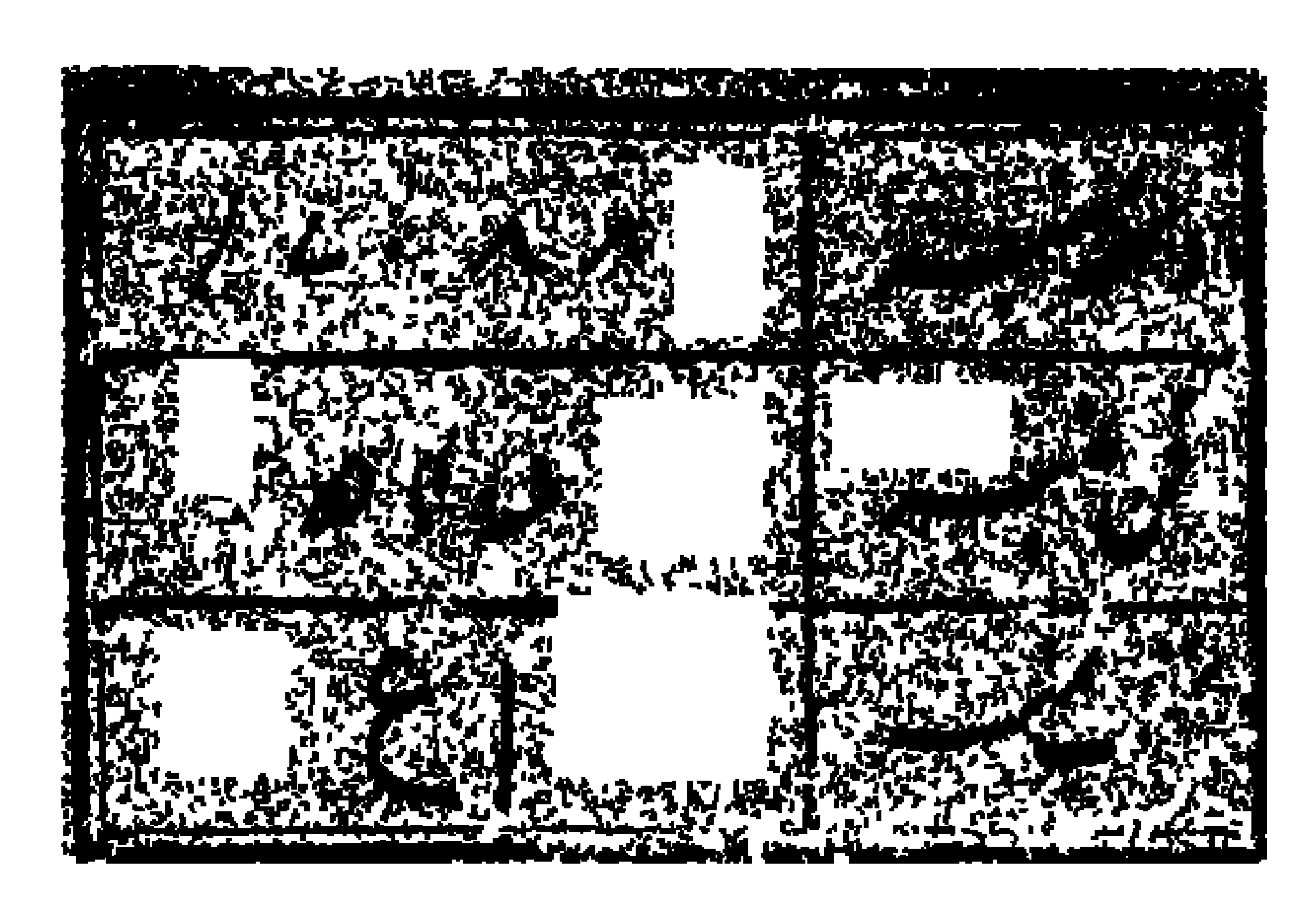
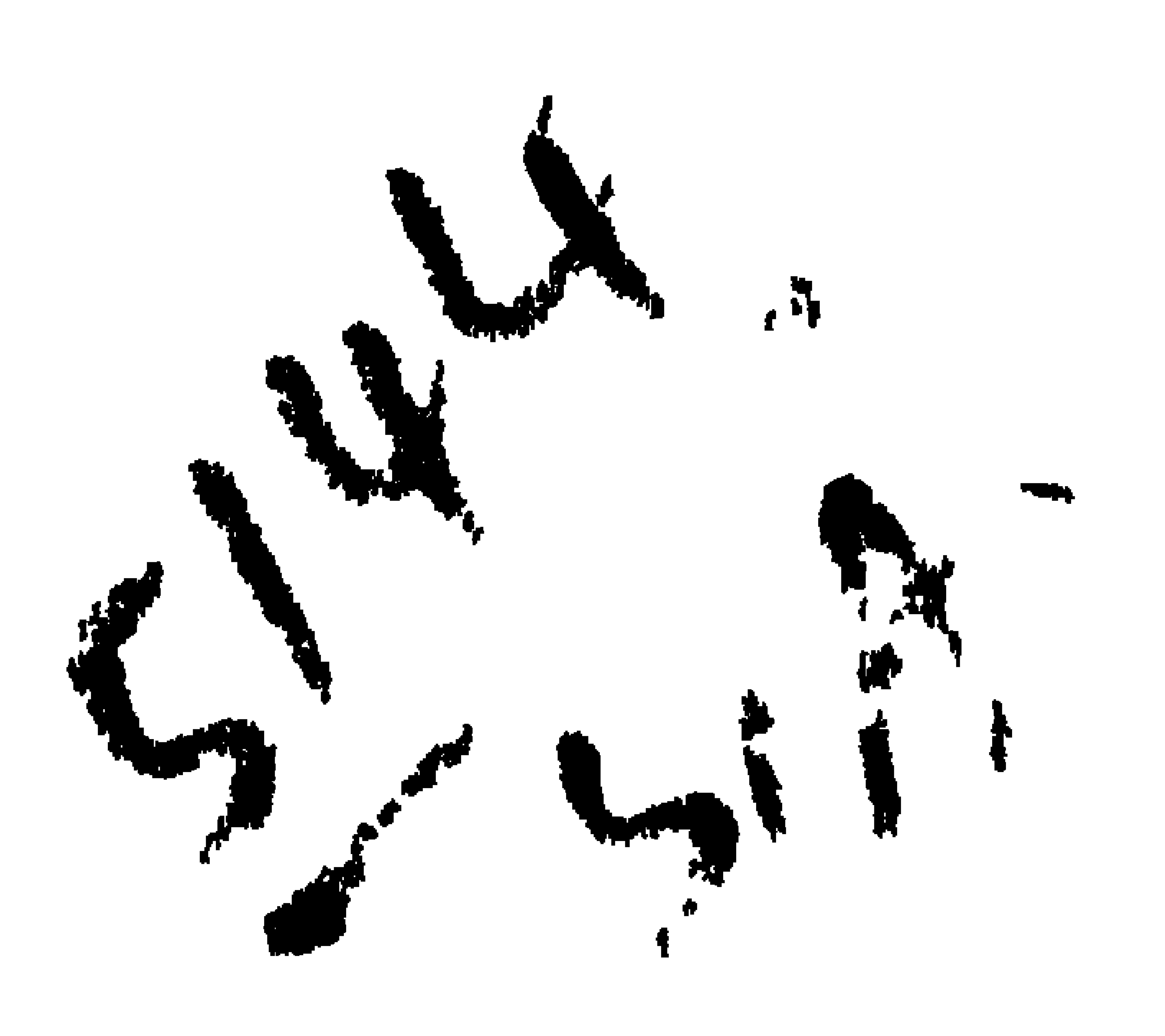






قضايا التاريخ الكبرى

او

اشهر المحاكمات والجرائم

حلي بالصور التاريخية

تأليف

محمد عبد الله عنان

المحامي

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

وطبع بمطبعتها بمصر

سنة ١٩٢٥

قضايا التاريخ الكبرى

او

اشهر المحاكمات والجرائم

تأليف

محمد عبد الله عنان

المحامي

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٥

كلمة للمؤلف

أردت بإنشاء هذه الفصول أن أتقدم الى قراء العربية صنفاً حادثاً من الآداب التاريخية القضائية ، تمتزج فيه سير التاريخ بسير القضاء ، وتدرس لمحات من الحياة الاجتماعية لمختلف العصور والمجتمعات بدرس الجريمة وتطوراتها ، وما فرضته لها الشرائع المختلفة من عقوبات ، وما سنته لتحقيقها من نظم واجراءات تختلف باختلاف أرواح العصور المتعاقبة

وقد تحريت التحقيق فيما أودعت هذه السير من وقائع التاريخ وأوجه القانون ، وأغفلت كل خيال وقصة ، ورجعت في ذلك الى مادة عزيزة من المراجع والمطالعات المستفيضة وخصوصاً فيما يتعلق بتاريخ الثورة الفرنسية ، التي عنيت عناية خاصة بشرح أسبابها وتطوراتها في الفصول السابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر . كذلك لم أتقدم الى القارىء برأي أو استنتاج خاص إلا أسنده الى الوقائع والوثائق التاريخية . أما تحليل هذه السير والتعليق عليها فقد تناوله صديقي الاستاذ الدكتور هيكل بك في مقدمته النفيسة التي تفضل بكتابتها لهذا السفر وضمنها تحليلا بديعاً للجريمة وآثرها في المجتمع

وقد كانت فكرة اخراج هذه الفصول تجول في ذهني منذ مدة ، ولكن الفضل يرجع الى صاحب الهلال في حثي على إتمامها وتنظيمها ، وهاهو ذا يعنى بنشرها مزينة بالصور التاريخية البديعة مما أسجله له ويسجله كل عارف لجهوده الادبية القيمة بالثناء الجم

القاهرة في يوليه سنة ١٩٢٥

محمد عبد الله عنان

المحامي

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل
رئيس تحرير السياسة

.. لعل ما نسميه الجريمة أقدم شيء في الوجود . بل لعلها الاساس الذي قامت عليه الحياة بدء ظهورها . فالجريمة ليست الا المظهر الادنى لقانون تنازع البقاء وبقاء الاصلح : والرجل الذي يفتك بجاره ويسلبه متاعه أو زوجه إنما يندفع الى ذلك كما يندفع اي حيوان ضار يريد أن يدفع عن نفسه غائلة الجوع أو يرضي من نفسه سليقة بقاء النوع ورقيه . وما زال الفتك والاعتداء نظام حياة أنواع شتى من الحيوان . وما تزال أنواع منظمة مهذبة من الفتك والاعتداء نظام حياة الانسان . ولن يزال الفتك والاعتداء والتدمير قاعدة التعامل بين الخلائق المختلفة . فلن يزال الانسان يفتك بالحيوان يتخذ منه لنفسه طعاماً ولباساً ومتاعاً .. ولن يزال تدمير النبات والجماد قوام حياة الانسان والحيوان . وهل الحياة الا هدم يعقبه بناء يقام ليهدم كي يحل محله بناء يقام ليهدم ؟ وهذه الجدة الدائمة التعاقب في كل مظاهر الحياة والتي يخضع الزمان لحكمها من تعاقب الفصول كما يخضع المكان لحكمها من دورة الافلاك ليست الا نضالا وتنافساً يهرم فيه الصيف الربيع وتتجاذب فيه العوالم ثم يكاد تنافرها يرسل من بعضها على بعض شواظاً من شهب محرقة . . . وهذا التعاقب والتجاذب وهذه الحياة التي تبلى لتعود جدة كي تبلى من جديد هي ملاك الحياة وكيانها . . والجريمة هدم وجدة . وهي أول ما كان بين الانسان والانسان من هدم وتجديد . فهي بذلك أقدم شيء في الوجود وهي الاساس الذي قامت عليه الحياة بدء ظهورها

وتاريخ الانسانية في علاقة الناس بعضهم ببعض أفراداً وأمماً يتحدث اكثر الامر عن تاريخ الجريمة . وإن شئت فهو يتحدث عن تاريخ القتل والسلب الذي لا يسميه الناس جريمة بل يسمونه حرباً ، وعن تاريخ القتل والسلب الذي لا يسميه الناس جريمة ان ارتكبه ذوو السلطان واسبغوا عليه دثار القانون ، وعن تاريخ القتل والسلب الذي يسميه الناس جريمة ان كان الذين اجترحوه أضعف على عظمهم من ذوي السلطان حيلة فأخذ القانون بخناقهم وامتدت يد العدالة اليهم ونكلت بهم وحفظت على الجمعية النظام الذي أراد الاقوياء وذوو السلطان حفظه عليها والذي لا يكون من دونه للانسانية رقيّ ولا سعادة

هذا تاريخ الانسانية . وبهذا التاريخ يفخر الناس ، وفيه يجدون موضع مجدهم وعظمهم . والامم السعيدة التي يسبغ عليها الوجود من النعمة ما يغنيها عن الامعان في النضال الى حد القتل والسلب ويحرمها بذلك مجد الجريمة العظيمة أمم لا تاريخ لها . وكيف يكون للرجل السعيد القانع بسعادته تاريخ والتاريخ قصة المطامع التي تستباح في سبيل تحقيقها الذمم والأنفس ؟

وكل مشتغل بالتاريخ تستهويه أحاديث الجرائم الكبيرة التي شغل بها الناس وكان لها قوام خاص . والجرائم العظيمة تشغل من تاريخ الانسانية ما تشغله الحروب والثورات . وللجرائم العظيمة في سجلات التاريخ ما للحروب من مقام . بل أن الناس لأكثر ولعاً بقصص الجرائم منهم بقصص الحروب لان في الجرائم من الخفية ما يثير الطلعة ولأنها تحفز اليها مطامع فردية تجيش في فؤاد كل إنسان ويود لو حققها له القدر من غير ان يتعرض لما تعرض له أبطال هذه الجرائم من أخطار

الى جانب ما في الجريمة العظيمة وحوادثها وتحقيقها والقضاء فيها من أخذ بالنظر العام ، وفضلا عن أن اكثر الجرائم العظيمة كان لها أثر في توجيه حظ الدولة التي وقعت فيها ، فان للعالم الجنائي من هؤلاء المجرمين العظماء ومن موضوع جرائمهم مباحث نفسية جليلة الفائدة في تاريخ العلم وما للعلم من أثر في التقدم الانساني . ولعل أعظم المباحث التي تمت في هذه

العصور الاخيرة وترتب عليها هـذا التطور العظيم في العلم وفي التشريع الجنائي الحديثين والتي يرجى أن تـكون أغزر نتائج في المستقبل القريب كان لها من عظماء المجرمين الذين انطبعت فطرتهم بطابع الجريمة منذ مولدهم والذين تلوثوا بجرائمهما تحت تأثير البيئة المحيطة بهم أغزر مادة واوسع نطاق للبحوث والمقارنات العلمية

من ثم كانت عناية المؤرخين والـكتاب بالجرائم الـكبرى ــ او بالقضايا الـكبرى ــ كما يسمونها . ولصديقنا الاستاذ محمد عبد الله عنان ولع خاص بالوقوف على التاريخ وتدوينه . والقراء يعرفون كتابه عن تاريخ العرب في اسبانيا . وها هو هـذا اليوم يقدم للجمهور تاريخ عدة من القضايا الـكبرى التي وقعت في الامم المختلفة وكان لهـا أثر عظيم في حظ هذه الامم كما كان للعلم الجنائي منها اكبر الفائدة

وانك لترى في رواية هذه القضايا ، او الجرائم الـكبرى ، الى أي حد تتشعب مطامع النفس الانسانية وكيف تدفع هذه المطامع الى الجريمة ، فاذا نجح صاحبها كانت جريمته في نظر العالم عملا عظيماً من اعمال البطولة ، وإن هو أخفق لم يكن ما يناله من قصاص كافياً ليمحو إثمه بل يظل بغيضاً الى الناس محتقراً عندهم

اتلُ قصة الفتى النبيل سنك مارس . كان ممتلىء الفؤاد بالمطامع التي لا تقف دون العرش والتاج . وقد ائتمر بريشليه وكاد ينجح . ولو لم تخنه الاقدار واستطاع أن يضع على جبينه تاج فرنسا لاعتبر الناس مؤامرته عملا من اكبر أعمال البطولة ودليلا ناهضاً على النبوغ بل العبقرية . فأما وقد انـكشف أمره وأخفق تدبيره وسيق الى المحاكمة وحكم عليه فقد دخل في عداد المجرمين واعتبره معاصروه ومن بعدهم غراً طائشاً

ثم اتلُ نبأ سليمان الحلبي . هذا فتى لم تـكن المطامع هي التي أغرته ، إنما دفع به الى قتل الجنرال كليبر ايمان متعصب جعله يقطع البيداء على راحلة ويعيش في بلاد غريبة عن بلاده ، يدبر الجريمة ، يجترها ويقدم عليها

في غير خوف ولا تردد ليثأر للخليفة مما أنزله هذا الجنرال « الكافر » بجنوده من هزيمة

واتل نبأ لويس السادس عشر وكيف أعدم . ثم اتل الى جانب ذلك جريمة لويس الرابع عشر وكيف ظل مع ذلك ملكاً عظيما

هذه وما معها من أنباء التاريخ التي قصها الاستاذ عنان في كتابه هي عبر التاريخ . وهي جميعاً تدور حول الملك سواء في أيام الملكية حين يكون الملك وبلاطه موضع الدسائس او في أيام الثورات حين تضطرب العروش على قوائمها ويتقدم الى صف الملك جماعة من المحكومين يريدون أن يأخذوا بأيديهم مقاليد الامر وتصريف أقدار أمثالهم من بني آدم

ولقد سبق الاستاذ عنان غيره من كتاب العربية الى تدوين القضايا الكبرى في التاريخ . فليس فيها كتاب قبل كتابه فيما نعلم . اما الغربيون فقد جعلوا لهذه القضايا الكبرى مجلات خاصة تعنى باصدار أعداد منها كلما جدت على التاريخ جريمة تستحق البقاء على صفحات التاريخ . كما أن رجال المحاماة وكبار الكتاب قد وجدوا في هذه القضايا الكبرى مظهراً سامياً من مظاهر البيان الساحر ، تقتضيه أغلب الامر مرافعات من جانب الاتهام ومن جانب الدفاع ، ويفيض به كثير من المتهمين الاكابر في رائع القول تبريراً لاعمالهم او دفعاً للتهمة عن أنفسهم او إعلاء لمبدأ يراه خصومهم جريمة تستحق الاعدام ويرونه عملا انسانياً عظيما جديراً بالخلود في ثبت اعمال الخير العظمى

هذا السبق من جانب الاستاذ عنان يجب أن يسجل له . ولئن كان لناقد أن يؤاخذه بأن اكثر ما تعرض له في كتابه من قضايا قد سبق لغيره من كتاب الغرب أن تعرض له ، وأن هذه القضايا جميعاً تمت في اوربا إلا قضية سليمان الحلبي التي قام بالامر فيها اتهاماً ودفاعاً جماعة من الفرنسيين كما سجل تاريخها كتاب الفرنسيين، فان للمؤلف على هذا الناقد رداً نراه وجيهاً ، فلم يعرف الشرق — أو لم يدون تاريخه — شيئاً من أمر القضايا الكبرى . وكان مرجع القضاء في الجرائم العظيمة التي تمت فيه كلمة

تسقط من بين شفتي الملك أو الامير وقد لا يسمعها إلا وزيره ثم يكون من بعدها ان يلقى بالآثم الذي يقعد به ضعفه عن أن يتسنم العرش أو يحل محل الوزير الاكبر في غيابات السجن أو أن يبتلعه الموج أو أن تسقط رأسه من غير تحقيق ولا تقاض ولا مرافعة . وإذا كان في تاريخ العصور الاخيرة في مصر وفي غير مصر شيء من القضايا الكبيرة فهذه ما زال أبطال رواياتها أحياء ، فليست للمؤرخ حرية النقد والتقدير في تصوير الوقائع وتحديدها والحكم عليها

وصحيح أن ما تعرض له الاستاذ عنان من القضايا قد سبق أن تعرض له جماعة من اكابر كتاب الغرب . ولكن الاستاذ عنان لم يقف بأبحاثه عند ترجمة واحد من هؤلاء الكتاب الاكابر . ولو أنه فعل لكان له فضل كبير . فإن نقل كتاب من لغة إلى لغة أخرى وصياغته في اللغة المنقول اليها صياغة صالحة ليس أمراً يسيراً فيما يقتضيه من مجهود وفيما يعود به على أهل اللغة الجديدة من فائدة . وهذا المرحوم فتحي باشا زغلول كان اكبر فضله على أهل العربية ما نقله إلى العربية من كتب . وكيف لا يكون ذلك فضلا وفيه إضافة ثروة جديدة للغة ما أشد حاجتها في تحولها الحاضر الى كل ثروة تضاف اليها . لكن الاستاذ عنان لم يقف عند النقل عن واحد من اكابر الكتاب ، فالاستاذ عنان مولع بالتاريخ وتدوينه . وولعه يدفعه الى مطالعات في التاريخ وأدب التاريخ واسعة . والمطالعة الواسعة تضع أمام الناظر مختلف الآراء والوقائع وتدعو الى تحقيق الوقائع والمفاضلة بين الآراء . وهذا ما تجده في كتاب قضايا التاريخ الكبرى : وصف للوقائع فيه التدقيق التاريخي المستند الى الوثيقة المؤكدة الثبوت ، وتقدير صالح لمواقف الاتهام والدفاع مأخوذ فيه بميول أهل العصر الذي وقعت الحادثة فيه اكثر من الاخذ بقواعد العدالة السامية المطلقة التي لم تهبط إلى مستوى الحياة الانسانية يوماً من الايام والتي ستظل أملا كبيراً يسكن في أفئدة العظماء ، البائسين بعظمتهم، الذين يفنون حياتهم سعياً وراء استنزال هذه العدالة من مقرها الاسمى فتأبى أن تهبط إلى

حيث كانت الجريمة أساس الحياة بدء ظهورها .

قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر وهو مقيم على رأس الجيش الفرنسوي بمصر . وربما كان طبيعياً وهذه هي الحال أن يجد سليمان الحلبي عطفاً من نفس مصري يرى دخول الفرنسويين بحملة بونابارت بدأ لهذا العهد الحاضر الذي تحمل فيه مصر من أهوال القسوة ما ربما كانت في غنى عنه لو أن عيون انكلترا لم تفتح بغزو نابوليون هذا القطر وتعريضه طريق الهند للخطر . مع هذا كان الاستاذ عنان مؤرخاً صالحاً وضع نفسه فوق مؤثرات العواطف فقال : « هذه هي قصة مقتل قائد الفرنسيس في مصر وقصة محاكمة قاتله . وهي قصة لا غبار عليها في تاريخ الحملة الفرنسية المصرية . بل هي صفحة ناصعة من صحف العدالة في ذلك العصر الذي غلبت فيه الفوضى كل قانون وكل شريعة واستبيحت فيه الانفس والاموال والحرمات » ثم قال : « وإذا لاحظنا في النهاية أن هذا الاعتداء الفادح قد وقع على اكبر رأس في الجيش الفرنسي في مصر ، وانه وقع في وقت تحرج فيه مركز الفرنسيين واشتد الجفاء بينهم وبين المصريين ، وأن فقد الجيش الفرنسي لقائده الأعلى في ذلك الظرف الدقيق كان داعية لتسرب الوهن والاختلال إلى صفوفه ، استطعنا أن نقدر اعتدال أولئك الجند القضاة ونزاهتهم وعدالتهم حق قدرها »

ترى مثل هذا الحكم الذي أصدره المؤلف عن محاكمة سليمان الحلبي عليه روح ترى النزاهة التاريخية فوق كل اعتبار في خاتمة كل فصل من فصول هذا الكتاب . ولقد يكون لك رأي على رأي المؤلف في حكمه . لكنك لن تستطيع أن تطعن في نزاهته وفي اعتداله

قد يكون لناقد الاستاذ عنان وجه آخر غير الذي أسلفنا . فهو كثير الانتاج في الترجمة والتأليف إلى حد عظيم . وأنت إذا رجعت الى ما ترجمه ووضعه من روايات وكتب ومقالات أدهشك خصبه في الانتاج ، وعجبت كيف يتسنى لشاب في سنه أن تكون له كل هذه الآثار ، وسرى إلى نفسك الاعتقاد أن هذه التآليف الكثيرة في تلك السنين القليلة لا بد

بنقصها وقت كانت في حاجة اليه لتمام نضجها. لكن الأستاذ عنان لم يوجه من همه وعنايته لكل هذه الكتب والمؤلفات بمقدار واحد . وإذا كانت سرعة الانتاج قد جنت في بعض الأحايين على أسلوب التحرير أو نظام الفكرة فذلك لم يكن قط في الكتب الاساسية التي اقتطع لها من وقته ما يستحق لتكون لابسة خير ثوب يود أن يخلعه عليها من الكمال

***

هذا ولعل وقت الاستاذ عنان يتسع لوضع تاريخ القضايا الكبرى في الشرق عامة وفي مصر خاصة . ولقد يكون في تاريخ بعض هذه القضايا من الخفية والدس ما في تاريخ سائرها من مهارة في الاجرام ومن بلاغة في الدفاع . فهو إن استطاع أن يضع سلسلة من قصص جرائمنا وجرائم الشرق فقد استطاع أن يبرز للناس شيئاً من مجد الشرق ومصر . فللجرائم حق في تاريخ الامم وفي مجدها . والجريمة أقدم شيء في الوجود . بل لعلها الاساس الذي قامت عليه الحياة بدء ظهورها

محمد حسين هيكل

ماري استوارت

سنة ١٥٦٨

— ١ —

كليوباتره ، شجرة الدر ، جنه دي نابولي ، كاترين دي مديتشي ، ماري استوارت : أسماء اذ يذكرها التاريخ يذكر كل ما كانت تتمخض عنه القرون الغابرة من نضال في سبيل السلطان والملك ، ومن دسائس ومكايد في خاصة القصور ، ومن جمال وفتنة وغرام

ملكات ، امتزن بالجمال الباهر ، وخضن غماراً شتى من دسائس السياسة والحب ، ونثرن حولهن من عطف ومن نقمة ، ومن هيام ومن حسرات ، ما نعمت به نفوس وتفطرت نفوس

ماري استوارت ! أي مأساة يذكرنا بها ذلك الاسم ، قصة ملكة جمعت سيرتها الغريبة بين أسمى مراتب العز والرفعة ، وأشقى صنوف الذلة والبؤس . ونُصبت عرش ايقوسيا في يومها السابع ، وعرش فرنسا في عامها الخامس عشر ، وسطعت آيات جمالها الباهر وظرفها الخلاب ، وشمائلها الفتانة في أفخم بلاط أوربي ، وبعثت فيمن حولها ضروباً من الهوى الشعري ، وأذكت ضراماً من البغضاء الخالدة ، ومنحت أسمى دلائل الولاء والاخلاص ، ولاقت أخس ضروب الخيانة والكيد ، وقضت من حياتها القصيرة زهاء عشرين سنة في أغلال الاسر ، ثم هلكت فوق نطع الجلاد كما يهلك شهيد ، وقطع رأسها البديع كما يقطع رأس مجرم سافل

هذه ماري ستوارت ، وتلك سيرتها الرائعة

***

وُلدت ماري استوارت ابنة جاك الخامس ملك ايقوسيا (اسكتلنده) وماري دي لورين في ديسمبر سنة ١٥٤٢ في لنلتجو ، وأعلنت ملكة

لايقوسيا عقب وفاة أبيها لسبعة أيام من ميلادها. وفي سن الخامسة عقدت خطبتها مع ولي عهد فرنسا ثم استقدمت الى البلاط الفرنسي في سنة ١٥٤٨ ، عهد بتربيتها الى جدتها الدوقة دي جيز ، وكان من معلميها الشاعر الكبير رونسار ، فلم تلبث أن ظهرت آيات من ذكائها وحدة ذهنها اذ ما كادت تبلغ الثالثة عشرة حتى كانت تتكلم وتكتب بعدة لغات منها اللاتينية ، ومهرت في الموسيقى والغناء والرقص واستطاعت ان تنظم الشعر.

وماكادت تبلغ الخامسة عشرة حتى كان جمالها الرائع وظرفها الجم فتنة لجميع الانظار . وفي وصفها يقول رونسار « ان الطبيعة لم تصنع قط مخلوقاً أجمل منها » ويقول المؤرخ برانتوم « ان جمالها كان يعدل مملكة بأسرها »

* * *

أحتفل بزواج ماري استوارت وولي عهد فرنسا ـ ابن الملك هنري الثاني ـ في ٢٤ ابريل سنة ١٥٥٨ وكلاهما لم يجاوز الخامسة عشرة . وفي يوليه سنة ١٥٥٩ توفي الملك هنري الثاني فارتقى فرانسوا الثاني وماري استوارت عرش فرنسا.

وكان فرانسوا الثاني مخلوقاً ضعيفاً ضئيلا شاحباً تغلب عليه الكآبة والسقم فلم يلبث أن توفي في ٦ ديسمبر سنة ١٥٦٠ ، فرأت ماري استوارت أن ليس ثمة ما تعمله في البلاط الفرنسي بعد أن نزل بها ذلك المصاب الفادح فاعتزمت مغادرة فرنسا والرحيل الى وطنها إيقوسيا التي كانت تضطرم عندئذ بعناصر الخلاف والفوضى لتعمل على إعادة الامن والسكينة اليها ، فعبرت البحر من كاليه في ١٤ اغسطس سنة ١٥٦١ يصحبها بعض سادة البلاط الفرنسي

وكان الرحيل مؤلماً مؤثراً ، وكانت ماري استوارت تخشى عواقبه أيما خشية حتى قال لنا المؤرخ برانتوم « كم رأيتها تخشى تلك الرحلة كأنما تخشى الموت وتفضل مائة مرة أن تبقى في فرنسا على أن تذهب لتحكم في بلدها المتوحش »

— ٢ —

ما كادت ماري استوارت تستقر بحاشيتها في أدنبورج حتى ثارت حولها عاصفة من الاقاويل والدسائس ، واشتد تعصب البروتستانت وانتهزوا فرصة حادث وقع لفتى فرنسي يدعى شاتلار قدم في حاشية الملكة وبقي في ضيافتها ، وكان شاعراً يهيم غراماً بها فضبط ذات ليلة مختفياً في غرفة نومها ، فقبض عليه وحوكم وأعدم — فأثار البروتستانت وخصوم الملكة حول ذلك الحادث دعوة شديدة من التشهير والقذف ، ورأت الملكة أن الصعاب تتفاقم حولها ، وأنها لا تستطيع أن تحكم ذلك الشعب المتمرد وحدها فاعتزمت ان تتزوج مرة أخرى ، ورأت اتباعاً لنصح العقلاء من اصدقائها أن تستشير في ذلك اليزابيث ملكة انجلترا . وكان يحق لماري أن ترث عرش انجلترا اذا توفيت اليزابيث بلا عقب باعتبارها حفيدة لهنري السابع . ولم يك ذلك الا ثقة متكلفة لان ماري استوارت حينما توفيت ماري تيودور طالبت بعرش هنري الثامن وتجاهلت وجود اليزابيث ابنته غير الشرعية واتخذت لقب ملكة إيقوسيا وانجلترا وارلنده . ولم تكن اليزابيث في ذلك الحين قد بلغت الثلاثين فلم تكن خصيمة لماري استوارت كملكة فقط ، بل كامرأة ايضاً . وكانت اليزابيث تتفوق في التربية على ماري فقد كانت بارعة في السياسة والتاريخ والفلسفة والشعر والموسيقى تتكلم وتكتب عدة لغات ، ولكن ماري كانت تتفوق عليها بجمالها الباهر ، وظرفها الخلاب . وكانت هذه جريمة لا تغتفر في نظر اليزابيث

أشارت اليزابيث الى جاك ملفيل سفير ملكة ايقوسيا أن تتزوج سيدته من الكونت ليستر ، وتقدم لخطبتها كثير من امراء اوربا مثل الارشيدوق شارل ثالث أبناء امبراطور المانيا ، والدون كارلوس ابن ملك اسبانيا ، والدوق دانجو الذي توج بعد ملكاً لفرنسا ، ولكن ماري محافظة على حقوقها في الملك رفضت ان تتزوج من أمير اجنبي ووقع اختيارها على قريب من أبناء عمومتها يدعى هنري استوارت لورد دارنلي

ابن الكونت لينوكس، وهو سليل لأسرتي استوارت وتيودور، فزواجه بماري مما يدعم حقوقها في العرش . وكان ذلك الاختيار سبباً في غضب اليزابيث اذ رأت فيه تهديداً لحقوقها ، وغضب موري - وهو أخ غير شرعي لماري - لانه جاء مخالفاً لرغباته ، وغضب الكالفينيون لانهم كانوا يرون في دارنلي كاثوليكياً متعصباً

وتم الزواج بالرغم من ذلك في ٢٩ يوليه سنة ١٥٦٥ . غير أن ماري ما لبثت أن شعرت بخطئها في ذلك الاختيار لان دارنلي كان فتى سيء السيرة ، وكان يطمح الى نيل الملك من وراء زواجه ، فحاول أن يرغم ماري على أن تمنحه التاج اذا ما توفيت بلا عقب فأبت عليه ذلك ، فعول عندئذ أن يحقق أطماعه بالعنف ، وائتمر بزوجه مع موري وزعماء الكالفينيين

* * *

كان اول ضحايا هذه المؤامرة دافيد رزيو أمين شؤون الملكة ، وكان رزيو ايطالياً ، من أتباع الدوق موريتو سفير دوق دي سافوا في ادنبورج ، وكان فتى رقيق الشمائل بارعاً في الغناء والعزف على القيثارة . سمعته ماري ذات مرة ، فطلبت الى دوق موريتو أن تلحقه بحاشيتها . ولم يلبث رزيو أن نال الحظوة لدى الملكة فعينته أميناً للمراسلات . وكان دارنلي يتظاهر بالغيرة من عطف زوجه على رزيو ومن تأثيره عليها فنفذ مع موري وبعض المؤتمرين ذات مساء الى متزين الملكة وكان رزيو هنالك مع نفر من السادة فانقض عليه رتفن أحد المعتدين ، وجذبه بعنف فاحتاط به الباقون وأثخنوه طعناً بخناجرهم وألقوا جثته الى أسفل القصر ، وهكذا زهقت روح المنكود أمام قدمي سيدته دون أن تستطيع دفاعاً عنه

فرأت الملكة حينئذ أن تلجأ الى الخديعة بعد أن خانتها وسائل العنف ، فعادت الى ملاينة دارنلي وملاطفته ، ولم يمض يومان حتى أنكر دارنلي شركاءه وانقلب الى معاداتهم ومطاردتهم

وبعد ذلك بشهرين وضعت الملكة ابناً توج فيما بعد باسم جاك السادس

ولم يمض ستة أشهر حتى فقد دارنلي كل صيت وهيبة وانتبذه اصدقاؤه ، ثم أصابه مرض شديد فلزم فراشه في منزل منعزل في ضاحية المدينة ، وذهبت الملكة هنالك لزيارته ومؤاساته ، ثم غادرته في الساعة الحادية عشرة . وفي نحو الساعة الاولى بعد منتصف الليل نسف دارنلي وخدمه ومنزله بينما كانت زوجه ترقص في حفلة محجبة



ماري استوارت ورزيو

وكان ذلك الانفجار من صندوق من الديناميت وضع خفية في قبو المنزل

فمن وضعه هنالك ؟ ومن دبر ذلك الجرم ؟

طارت الاشاعة في أدنبورج غداة الجريمة بأن الجاني انما هو الكونت بوثويل قائد حرس الملكة وأن المحرض له انما هي الملكة ذاتها . فطلب الاشراف الى الملكة أن تدفع عن نفسها هذه التهمة وناشدتها اليزابيث في كتاب أرسلته اليها أن تحمي شرفها من تلك الوصمة ، ولكن ماري لم تحفل بشيء من ذلك وتمادت في اغداق عطفها على الكونت بوثويل ، واستمرت تلازمه في غدواته وروحاته وتنفق معه كل اوقاتها في الحفلات والصيد معرضة عن سهام اللوم التي كانت توجه اليها من كل صوب .

بيد أنها حسبت انها تستطيع أن تدحض تهم خصومها بتدبير قضية يخرج منها بوثويل طاهر الذيل مرفوع الرأس ، فظهر بوثويل أمام قضاته دون تحقيق سابق فأصدروا حكمهم ببراءته

ولم يمض اسبوعان على ذلك حتى اختطف بوثويل الملكة في طريق لنلتجو بأن قبض على زمام جوادها واجتذبها اليه ، فهرول حرسها اليها لحمايتها ، فأمرتهم في هدوء وسكينة أن يغمدوا أسلحتهم لانها تذعن الى القوة . ثم تلا ماهو أغرب من ذلك اذ ما لبثت ماري استوارت أن تزوجت من قاتل زوجها وعقد الزواج طبقاً للرسوم البروتستانتية فقدمت ماري بذلك برهاناً على انها لا تتردد في أن تضحي في سبيل غرامها بأيمانها، وشرفها ، وعزتها

فأثار هذا التصرف سخط الرأي العام وازدراء الاشراف فاجتمعوا وائتمروا بالملكة وبوثويل وحاصروهما في حصن بورثويك . ففرا منه تحت جنح الظلام ، وجمعا قواتهما ، واصطدم الفريقان فمزقت جموع بوثويل لاول موقعة ، وفر قائد الحرس ، ووقعت الملكة أسيرة في قبضة الاشراف ، وأخذت الى ادنبورج حيث أمطرها الشعب وابلا من الاهانات واللعنات ، وسجنت في حصن لوخ ليفن ، وعين اخوها موري قائماً بشئون الدولة ، وحاول أن يكرهها على التنازل عن العرش مهدداً اياها بما كتمها عن مقتل دارنلي

* * *

غير أن ماري وقد سقطت الى ذلك الدرك ، وانفض من حولها كل صديق وناصر ، وأحاطت بها الاعداء من كل صوب ، لم تفقد جلدها ولجأت الى قوة سحرها الخارق ، فأثارت في قلب الفتى جورج دوجلاس ابن اللورد لوخ ليفن عاطفة غرام مبرح ، وسرعان ما أخذا يدبران وسائل الفرار ، حتى اذا تمت انسلت ماري من القصر ليلا متنكرة في ثياب وصيفة ووصلت في الغد سالمة الى حصن اللورد هاملتون ، ولم تمض بضعة أيام حتى جمعت من انصارها جيشاً يربو على ستة آلاف مقاتل

ولكن موري لم ترعه تلك الاهبة فسارع الى مهاجمة جيوش الملكة قبل أن تنتظم ، ثم هزمها ومزقها شر ممزق

وخشيت ماري استوارت عندئذ أن تقع في قبضة موري ، فاعتزمت الفرار الى انجلترا حيث وعدتها اليزابيث بمعونتها

وهنا يبدأ الطور الثالث من حياة ماري استوارت

— ٣ —

وصلت ماري استوارت الى كارليل في مركب للصيد ، وكتبت من هنالك الى ابنة عمها رسالة مؤثرة تلتمس فيها حمايتها ونصرتها ، ولم يخطر حينئذ بذهن الملكة الفارة أنها تغامر برأسها ، وانها ستجد بدل الملجأ الامين سجناً أبديا ترسف في غيابته حتى تساق الى ساحة الاعدام

كانت اليزابيث ترقب هذه الفرصة بفارغ الصبر وترى في القضاء على ماري استوارت قضاء على خصيمة تتفوق عليها في الجمال والفتنة وملكة تخشى من دسائسها وتعتبرها ملاذاً لكيد الكاثوليك ، ومنازعة لها في حقوق الاسرة والعرش

ولذا ما كادت ماري استوارت تصل الى انجلترا حتى دفعت بها اليزابيث الى احد القصور النائية ، وأجابتها بأنها لا تستطيع مقابلتها قبل أن تمحي عن شرفها وصمة مقتل دارنلي ، وانها ستطلق سراحها وتساعدها على استعادة عرشها مهما كانت نتيجة المحاكمة

ثم عينت اليزابيث لجنة للتحقيق في يورك من ثلاثة قضاة هم دوق نورفولك ، وكونت سسكس والسير رالف سادلر ، وقام موري أمام اللجنة بمهمة المدعي العمومي ، وكانت أدلة الاتهام رسائل غرامية قيل ان ماري استوارت كتبتها الى بوثويل قبل مقتل دارنلي وبعده ، غيرانها بفرض صحتها



الملكة اليزابيث

لم تكن كافية لادانة ماري في تهمة القتل ، ولذلك امتنعت اللجنة عن اصدار قرار في القضية

* * *

وكانت ماري استوارت قد نقلت اثناء ذلك من حصن توتبوري حيث

سجنت بادىء بدء الى قصر شفيلد في سنة ١٥٦٩ حيث عهد بحراستها الى الكونت شروزبوري وعقيلته ، وكان قصر شفيلد فخيماً ، تحوطه الحدائق الباسقة ، سلجنت فيه ماري استوارت خمسة عشر عاماً طويلة من الذلة والاسر ، لم تنعم في خلالها الا بلحظات قصيرة من الحرية والرياضة ، وكانت تقيم معها حاشيتها من وصيفات الشرف والاتباع والحشم وبينهم أميناها نو ، وكورلس ، وطبيبها الفرنسي بورجوان ، ورئيس الحشم اندريه ملفيل ، وجراح وصيدلي . وكانت ماري تقوم بالانفاق على تلك الحاشية الكبيرة ، ولا تؤدي اليزابيث من ذلك الا نفقة الطعام ، وكانت ماري تنفق عن سعة لانها فضلا عن ايراد املاكها الخاصة في ايقوسيا ، كانت تستولي بواسطة السفير الفرنسي على نفقة قدرها اثنتي عشرة الف جنيه سنوياً بوصفها ملكة سابقة لفرنسا

وكان لماري استوارت ممثلون سياسيون في معظم الدول الاوربية ، ووكلاء للتحري ، وعدد كبير من الرسل السريين يقومون بحمل رسائلها العديدة الى مختلف الانحاء

وكانت تنفق ايام اسرها في ثبات وجلد ، وكانت تصرف شطراً من الصباح في متزينها ، وتمهر في اخفاء غضون وجهها وما يبدو عليه من آثار العناء والكآبة ، فكان محياها يحتفظ دائماً بجماله الباهر وسحره الفتان وشبابه النضر ، ثم تعمد بعد الزينة الى الوشي ، ثم الى المطالعة ، وكانت تقضي بعض أيامها في الصيد ايضاً

على انها كانت تنفق معظم أوقاتها في قراءة وكتابة الرسائل العديدة التي كانت ترد اليها من مختلف أنحاء القارة أو ترسل اليها ، وكان معظم هذه الرسائل يكتب بالارقام السرية

ذلك ان الملكة الاسيرة كانت في الواقع عماداً لمعترك شاسع من الدسائس التي يدبرها انصارها في رومه ومدريد وباريس ، وكانت آمال الكاثوليك في انجلترا وايقوسيا تتوقف الى حد كبير على استعادة ماري لعرشها وسلطتها

وتبدأ سلسلة الدسائس والمؤامرات التي كانت ماري استوارت تدبرها أثناء أسرها لمناوأة خصيمتها واستعادة ملكها ، بمؤامرة أخذت تنظمها مع الدوق نورفولك أحد المحققين في مقتل دارنلي . ذلك لان الدوق كان منذ التحقيق يطمح الى الاقتران بماري استوارت ، فبدأت بين الاثنين مراسلات سرية تفيض عطفاً وكآبة ، وعول الدوق على ان يخوض غمار الدسائس السياسية ، وتعهد باثارة الكاثوليك في انجلترا اذا أمده فيليب الثاني بقوة يرسلها في نفس الوقت الى انجلترا ، غير ان تلك المؤامرة لم تلبث ان افتضحت اذ ضبطت رسالة سرية من فيليب الثاني الى ماري استوارت. وترجمت ووقفت اليزابيت بذلك على تفصيلات المؤامرة كلها

فقبض على دوق نورفولك وحوكم ، ثم قضي باعدمه فأعدم

وثار الرأي العام البروتستانتي مطالباً بمحاكمة ماري استوارت، فأجابت ماري انها وهي ملكة اجنبية مستقلة أسرت في انجلترا انتهاكاً لكل قانون وكل عدالة ، حرة في ان تدافع عن نفسها كيفما استطاعت وأن تفاوض في سبيل خلاصها مع كل من يتقدم لمعاونتها

لم تحاكم ماري استوارت تلك المرة ولكنها استمرت في تدبير المؤامرات والدسائس . بيد أن عين اليزابيت كانت ساهرة ، فكلما وضعت الملكة الاسيرة أسس مؤامرة أو مكيدة جديدة اكتشفت ، وحوكم الشركاء وأعدموا ، حتى ذهب في سبيل تلك المحاكمات المتوالية عدة من الاشراف والسادة ومنهم تركورتون ابن القاضي الاكبر

فضج البروتستانت أنصار اليزابيث عندئذ ورأوا ان في حياة ماري استوارت بالرغم من كونها أسيرة ، وبالرغم من احاطتها بأقسى ضروب الرقابة والحجر ، خطر دائم على ملكتهم وعلى دينهم ، وان موتها هو السبيل الوحيد لاتقاء ذلك الخطر . وعلى ذلك أصدر البرلمان تشريعاً صارماً يقضي باعدام كل من يثبت أنه تآمر على حياة اليزابيث و «كل من تدبر في صالحهم» تلك المؤامرات بشرط ان يكونوا على علم بها ، فكان من

الواضح ان المقصود بتلك الفقرة هي الملكة الاسيرة التي ازعجتهم بدسائسها المتوالية ، فلم يبق عليهم بعد ذلك الا انتهاز فرصة تمكنهم من أن يطبقوا عليها ذلك التشريع الجديد ·

وبينما كانت ماري استوارت مستمرة في ترتيب الخطط والمؤامرات للفرار من أسرها والانتقام من خصيمتها ، أخذت اليزابيث وأنصارها من البروتستانت في تدبير تهمة تؤخذ بها ملكة ايقوسيا ، وعهد بتلك المهمة الى وزير من وزراء اليزابيث يدعى والسنجهام

وكان والسنجهام كلفينياً متعصباً ، يرتكب كل ما يعتقد انه يعضد قضية الدولة وقضية الدين . وكان داهية جم الذكاء بارعاً في التجسس ، مقداماً في الخيانة والجريمة

— ٤ —

وفي ذلك الحين نقلت ملكة ايقوسيا من قصر شفيلد لأن عقيلة شروزبوي اتهمت زوجها بالميل إلى أسيرته الحسناء ، وخشيت اليزابيث من عواقب تلك الرقابة المريبة ، فنقلت ماري استوارت إلى حصن شارتلي ، وعهدت بحراستها إلى السير أمياس بولت الذي يذكر التاريخ أنه أقسى حراس ملكة إيقوسيا ، وأغلظهم قلباً . فشدد عليها المراقبة ، وقطع كل علائقها مع الخارج ، وحظر عليها كل استقبال وكل زيارة حتى اضطرت إلى ترك مراسلاتها السرية والكف عن تنظيم المؤامرات

ولكن تلك الشدة لم تكن تتفق مع مشاريع ولسنجهام ، بل كان من الضروري أن تستأنف الملكة مراسلاتها السرية وأن تراقب في الوقت نفسه . واليك خلاصة المشروع الذي دبره والسنجهام بالاشتراك مع قسيسين فتين ، أحدهما يدعى جيفورد ينتمي إلى أسرة انجليزية كاثوليكية شريفة مخلصة لماري استوارت ، ومع شخصين آخرين أحدهما يدعى جريجوري وكان ماهراً في تزوير بصمات الاختام وفض الرسائل ثم إعادة أغلاقها ، والآخر يدعى توماس فلبس ، وكان بارعاً في ترجمة الخطابات

السرقة ، وفي تقليد الخطوط وتزوير الرسائل

عهد إلى جيفورد بالنظر إلى مكانة أسرته وعلائقه بملكة إيقوسيا أن ينظم مؤامرة على حياة الملكة اليزابيث ، حتى إذا تم تدبيرها أخبرت بهـا ماري استوارث ، ثم تحمل على أن تـكتب بيدها رسالة تثبت علمها بالمؤامرة واشتراكها في تدبيرها ، فتضبط هـذه الرسالة وتتخذ أساساً لمحاكمتها والحكم عليها

فبادر جيفورد بتنفيذ مهمته ، واستطاع بالنظر الى مهنته ومكانة اسرته أن يتقرب الى السفير الفرنسي المسيو شاتونيف وأن يرسل بواسطته رسائله الى ماري استوارث ، واستعان أيضاً في ذلك بصانع بيرة كان يحمل كل اسبوع اناء كبيراً من البيرة الى حاشية الملكة ثم يعود بالاناء الفارغ ، وحمله على أن يصنع لآنيته قاعدة مزدوجة كانت تخفي فيها رسائل ماري استوارث في الذهاب والعودة ، وبذلك استطاعت الملكة أن تستأنف المراسلة مع العالم الخارجي

غير أن الرسائل كلها كانت منذ تلك اللحظة تقع في قبضة والسنجهام

ثم سافر جيفورد الى فرنسا لينبيء أصدقاء الملكة الاسيرة بالطريقة الجديدة التي ابتدعها لمراسلتها ، وأنه يريد أن يعمل لخلاصها بمؤازرتهم ، وقابل مندوزا سفير اسبانيا فوعده بمساعدته ، وأفهمه أنه يستطيع أن يحمل فيليب الثاني على أن يتقدم لتأييد هذه القضية العادلة

ثم عاد الى لوندره وأخذ يثير زعماء الـكثلكة ويستنهض هممهم وأذاع بينهم أن فيليب الثاني قد وطد عزمه على غزو انجلترا لينقذ الملكة وليعيد بواسطتها سلطان الـكثلكة في انجلترا ويمحق البروتستانتية ، وانه لا بد من قتل اليزابيث حتى تستطيع ملكة ايقوسيا أن تصل الى حقوقها بلا منازع

ثم دخلت المؤامرة في طورها الاخير حيث تعرف جيفورد بفتى كاثوليكي متعصب يدعى انتوني بابنجتون تعهد بقتل اليزابيث واستطاع أن يجذب اليه عدة فتيان آخرين

فلم يبق اذاً لتحقيق مشروع والسنجهام الا أن تقف ماري استوارت

على نية بابنجتون الجنائية وأن توافق عليها

* * *

لبث امياس بوليت ووالسنجهام يراقبان رسائل ماري استوارت علهما يظفران بالمستند المنشود ، ولكن مضى حين لم تكتب فيه السجينة الا خطاباً لبابنجتون ليس فيه كلمة يؤخذ بها

غير أن بابنجتون ما لبث أن كتب اليها رداً مسهباً وبسط اليها في خطابه تفصيلات المؤامرة برمتها . فوقعت الرسالة بالطبع في يد والسنجهام ، وترجمها فلبس ، وبذلك تحقق الشطر الاول من الشرك حيث أصبحت ماري استوارت على علم تام بالمؤامرة التي يدبرها انصارها لاغتيال اليزابيث

وفي ١٧ يوليه سنة ١٥٨٦ ردت ماري استوارت على رسالة بابنجتون ، ويروى أن السير بوليت صاح عند قراءة هذا الرد « لقد وقعت في يدنا ! وقد توج الله جهودي في النهاية واثابني عن خدماتي واخلاصي »

وكان خطاب الملكة على قول مترجمه فلبس يحتوي مصادقة منها على مشروع بابنجتون ، ونصائح أسدتها اليه لتأكيد النجاح ، وقد نقل منه فلبس صورة وأرسل الاصل على قوله الى بابنجتون

غير اننا نشك كثيراً في صدق فلبس لانه كما رأينا مزور وجاسوس لا ذمام له ، ومن المرجح جداً أنه زور في الصورة وأضاف اليها عبارات أوحيت اليه لتفي بالغرض المنشود ، خصوصاً وأن الرسالة التي دبرت من أجلها كل هـذه الخطط أرسلت على قوله الى بابنجتون وذلك حتى يحرقها تنفيذاً لامر الملكة فتستحيل بذلك مطابقة الصورة المزعومة على الاصل

ومهما يكن من الامر فمن المحقق أن رسالة ماري استوارت السرية لم يقرأها سوى فلبس هذا ، وأن أصلها لم يبرز قط

* * *

قبض على بابنجتون وشركائه وأودعوا سجن البرج ثم بدأت محاكمتهم ولم تعلم ماري استوارت وهي في عزلتها في شارتلي بشيء من ذلك حتى كان ذات يوم خرجت فيه الى الصيد برفقة أمينيها نو وكورلس وطبيبها

والسير أمياس بوليت ، فلما وصلت الى مدخل الغابة اعترضتها كوكبة من الفرسان وتقدم اليها رئيسهم السير توماس جورج وعنفها بلهجة حادة على تآمرها على حياة اليزابيث ، وعرفها بأنه أتى بأمر الملكة ليقبض على نو وكورلن ، فثارت ماري غضباً لقوله ، واحتجت على تصرفه ، غير أن الفرسان قبضوا على الامينين ، وسار السير أمياس بأسيرته الى تكسال حيث قضت ليلتها في دار قاضي الصلح

وفي أثناء غيبتها فتش عمال الملكة مسكنها في شارتلي تفتيشاً دقيقاً أملا في ضبط مستند تؤخذ به ولكن جهودهم ذهبت كلها سدى فاعيدت ماري الى قصر شارتلي بعد ان أبعدت عنه بضعة أيام

ثم قدم بابنجتون وشركاؤه الى العذاب ، فهلكوا أثناء التحقيق بين اللهيب والضواغط ولم يعترف أحد منهم باشتراك ملكة ايقوسيا في تدبير المؤامرة

فاشتدت ثورة الرأي العام حينئذ ، وعلا ضجيج البرلمان ، وطالب كلاهما بمحاكمة ملكة ايقوسيا . غير أن اليزابيث ترددت حيناً في ذلك لانها كانت تخشى ألا تكفي الادلة للادانة وان تؤدي المحاكمة الى تدخل ايقوسيا أو اسبانيا أو فرنسا

— ٥ —

لم يدم تردد اليزابيث طويلا ازاء تهيج الرأي العام ، وضغط وزرائها فأصدرت في ٥ اكتوبر سنة ١٥٨٦ قراراً بتعيين لجنة لمحاكمة ماري استوارت تتألف من ستة واربعين عضواً من الاشراف وأعضاء المجلس الخاص ، وضم اليهم عدة قضاة للاشراف على الاجراءات القانونية وتقرر أن تجلس هذه المحكمة في قاعة الجلسات الكبرى في قصر فوذرنجاي الذي كان سجناً قديماً للدولة

ثم أصدرت اليزابيث أمرها بالقبض على ماري استوارت ، فدهمتها قوة كبيرة من الفرسان بقيادة السير توماس جورج ، ونقلتها الى قصر فوذرنجاي .

وفي ١٢ اكتوبر اجتمع أعضاء اللجنة في ساحة القصر الكبرى وارسلوا الى ماري استوارت وفداً يحمل اليها خطاباً من اليزابيث تأمرها فيه أن تجيب اللجنة التي عهدت اليها بتحقيق المؤامرة التي اشتركت في تدبيرها ، فأجابته ماري استوارت بكبرياء وعزة أنها ملكة أيضاً ، وابنة ملك ، وأنها اجنبية أسرت وسجنت وعرضت لاشنع ضروب الاكراه والعسف خرقاً لكل حرمة ، وكل عدالة ، وأنها ليست من أتباع اليزابيث بل هي قريبتها وقرينتها وأنها لا تقبل أن تؤمر منها . ثم احتجت بمنتهى الشدة على تلك المهزلة القضائية وصاحت : أني أرد قضاتكم ، فدينهم يخالف ديني ، ولست أعترف بشرائعكم ولا أعرفها ، ولا أفهمها

« أني وحيدة لا ناصح لي ، وقد انتزع مني أمنائي ، وليس ثمة مجرم مهما كان من الضعة لا يسمح له بالالتجاء الى ناصح ينصحه ، ومدافع يتكلم عنه ! »

فنقلت اللجنة جوابها الى اليزابيث ، فأوفدت اليها في اليوم التالي وفداً ثانياً أخطرها بأن امتيازاتها الملكية ، وأسرها لا يحلانها من الجواب وأنها اذا أصرت على السكوت فان القانون يحتم اجراء المحاكمة في غيبتها

فاعتزمت عندئذ ماري استوارت أن تدافع عن نفسها خشية أن يصدر الحكم في غيبتها

وفي عصر ذلك اليوم تلي عليها قرار الاتهام ونصه : « أن ماري استوارت المسماة ملكة ايقوسيا ، وابنة جاك الخامس نظراً لاتهامها بأنها أذنت بتدبير مؤامرة شائنة لاغتيال ملكة انجلترا وغزو المملكة ستسئل بواسطة اللجنة عن هذه الوقائع »

ثم تليت عليها أسماء أعضاء اللجنة فلم ترد أحداً منهم ، ولكنها احتجت ثانية على ذلك التشريع الاستثنائي الذي سن خصيصاً من أجلها والذي استند اليه في تأليف هذه اللجنة وقالت :

« أنكم تشرعون طبقاً لاهوائكم ، غير اني وأنا ملكة أجنبية لست مرغمة على الخضوع الى قوانينكم ، ولست اعترف بالقانون الانجليزي

واذا زعمتم أنكم تحاكمونني طبقاً للقانون الكنسي ، فأن تطبيقه وتفسيره لا يعني سوى الكاثوليك الذين سنوه »

وفي اليوم التالي أخطرت ماري استوارت اللجنة قائلة : سأجيب فقط على ما يتعلق بحياة الملكة ، وهي تهمة أحتج عليها واقسم بأني بريئة منها

* * *

وفي الساعة التاسعة من الصباح دخلت ماري استوارت الى قاعة الجلسة الكبرى بين صفين من الجنود مستندة الى ذراع طبيبها ، وكانت تمشي ببطء وقد ارتسمت على ملامحها آثار الكآبة والعناء ، غير أن محياها لم يفقد شيئاً من جلاله . فجلست في المكان الذي أعد لها وأخذت تتأمل الحضور ، وتلتفت من وقت الى آخر الى السير بوليت الذي جلس الى جانبها لتسأله عن اسماء المتكلمين والسائلين

ثم نهض المدعي الملكي جوري وتلا صيغة التهمة ، ثم سرد وقائع المؤامرة المزدوجة ، وقرأ صور الخطابات التي تبودلت بين ماري استوارت وبابنجتون ، ثم قرأ اعترافاً قال أنه صدر من بابنجتون ساعة موته ، واعترافات قال أنها صدرت من نو وكورلس مذيلة بتوقيعهما وفيها يتهمان الملكة ، واختتم بتقديم هذه المستندات الى اعضاء الهيئة للاطلاع عليها

وحينئذ نهضت ماري استوارت واعترفت بأنها تبادلت الرسائل مع سفيري فرنسا واسبانيا وأنها في حل من أن تفاوض الامراء الاجانب سعياً الى استعادة حريتها. ثم أنكرت بشدة مكاتبتها لبابنجتون ، وأكدت أنها لم تستلم أو تكتب مثل هذه الخطابات ، وأنها لم تأتمر قط بحياة اليزابيث ، وطالبت الاتهام بابراز الرسائل المنسوبة اليها

واذ اضطر الاتهام أن يعترف بأنه لا يملك هذه الرسائل وأنه لا يملك الا صوراً منها قالت ماري استوارت :

« كيف تقلم هذه الصور اذا لم تكن لديكم أصولها ، واذا كنتم حصلتم عليها فلمَ لا تبرزونها ، ولمَ تكتفون بابراز الصور ؟ اني أعلن بشدة أني لم أكتب قط رسالة من الرسائل التي تنسبونها اليّ

وكيف تريدون أن أسئل عن مشاريع جنائية دبرها بعض الناقين ، ونظمت دون اشتراكي ودون علمي ؟ »

ثم طالبت مواجهتها بأمينيها نو وكورلس استناداً الى قانون صدر في العام الخامس عشر لحكم اليزابيث يقضي بأن « لا يحكم بادانة انسان في تهمة التآمر على حياة الملك الا بشهادة شاهدين يحلفان اليمين ويواجهان بالمتهم » قائلة :

« لمَ أعدمتم بابنجتون وشركاءه دون مواجهتهم بي اذا كان لديهم ما يقولونه ضدي ؟ »

وعلى الجملة فأن ماري استوارت دافعت عن نفسها في تلك الجلسة المشهورة بشجاعة وبراعة ، ولم تهن عزائمها ، ولم تفقد ثباتها لحظة

ورفعت الجلسة في نهاية اليوم بعد أن ساد عليها الضجيج والهرج

* * *

لم يغمض للملكة جفن في تلك الليلة بل سلخت سوادها في اعداد دفاعها ، وفي صباح اليوم التالي — ١٥ أكتوبر — ذهبت الى قاعة الجلسة مستندة الى ذراع طبيبها

ثم استأنفت دفاعها ، فذكرت كل ما ارتكب لتنظيم تلك المحاكمة من ضروب العسف ، وكل ما قاسته من صنوف الاستبداد والجور ، وكل ما فرض على حرية دفاعها من القيود ، ثم احتجت على الاسلوب الشائن التي تسير عليه تلك المحاكمة ، وطلبت أن تسمع أقوالها علناً وأمام الملكة اليزابيث التي تأبى سماعها منذ تسعة عشر عاماً ، وأمام البرلمان منعقداً بكامل هيئته

وكان بيرجلي رئيس الهيئة يقاطعها من آن لآخر بتحيز ظاهر فصاحت بغضب : انك عدوي ! واني لست أحاكم بل حكم عليّ مقدماً ، وقد تقرر موتي منذ أمد طويل لان حياتي تدع للكاثوليك مجالا للامل في استرداد حرياتهم الدينية

فأجابها بيرجلي محتداً : ان الامر لا يتعلق بدينك ، وانما يتعلق بجريمتك !

واستمر الجدال بين ملكة ايقوسيا وبين قضاتها في جو من الضوضاء والحدة ، وكانت أمارات الضجر بادية على وجوههم ، والتحيز ظاهراً في اقوالهم واشاراتهم

ثم اختتمت المناقشات واجتمع القضاة للمداولة ، ولكن قبل صدور القرار قدم رسول الملكة يحمل الى الرئيس بيرجلي أمراً بتأجيل القرار حتى تراجع اليزابيث أوراق القضية بنفسها ، فأجلت القضية عشرة أيام

ثم عادت اللجنة الى الاجتماع في ٢٥ أكتوبر في بهو وستمنستر ولكن ماري استوارت لم تحضر في تلك المرة ، وقد علق تيتلر على ذلك بقوله « تقدمت المتهمة في فوذرنجاي دون الشهود ، وتقدم الشهود في وستمنستر دون المتهمة » وهناك سمعت اللجنة أقوال نو وكورلس فلم يقررا شيئاً جديداً ضد الملكة

وعلى ذلك أصدر أعضاء الهيئة حكمهم بالاجماع وكان الحضور منهم ستة وثلاثون ، ووافق الغائبون وهم اثنا عشر على الحكم كتابة

وكان الحكم يقضي باعدام ماري استوارت

— ٦ —

لم تكن محاكمة ملكة ايقوسيا كما رأينا الا مهزلة قضائية ، بل كانت مكيدة شائنة أملت بتدبيرها على اليزابيث ووزرائها عوامل سياسية ودينية ، والسياسة لا ترعى حقاً ولا عدالة

قال فولتير في كلامه عن هذه القضية : « لم يشهد التاريخ محكمة أبعد عن الاختصاص الذي تدعي ، واجراءات أشد بطلاناً ، فقد قدمت اليها صور بسيطة من رسائل ، ولم تقدم اليها الاصول قط ، وأخذت ضد المتهمة بشهادة أمينيها مع أنها لم تواجه بهما قط ، وزعمت أنها ظفرت بالدليل القاطع من اعتراف ثلاثة من متهمين أعدموا وكان في الاستطاعة

بتأجيل اعدامهم حتى يواجهوا بالتهمة .

« ولو اتبعت أبسط الاجراءات التي تقضي العدالة باتباعها نحو أقل الناس ، واذا كانت الادلة قد نهضت على أن ماري استوارت تبحث عن المساعدة وعن المتقين ، فقد كان من المتعذر اعتبارها مجرمة

« لم يكن لاليزابيث عليها سوى قضاء القوي على الضعيف والمكروب ! »

وقال السير والتر سكوت : « ان الادلة التي قدمت على اتهام ملكة ايقوسيا لم يكن فيها ما يكفي لازهاق حياة أخس المجرمين ، ومع ذلك فقد كان للجنة من القسوة والنذالة ما اعتبرت معه ماري مجرمة ، وصادق البرلمان الانجليزي على ذلك الحكم الظالم »

* * *

صدر الحكم المنشود باعدام ملكة ايقوسيا ، غير أن تنفيذه لم يكن سهلا لان اليزابيث كانت تخشى أن يتخذ تنفيذه حجة لتدخل ايقوسيا ، او فرنسا أو اسبانيا ، أو ان يكون مثاراً لمعترك لا نهاية له من الفتن والدسائس . فمضت أسابيع دون تنفيذه ، وكانت اليزابيث أثناء ذلك تبحث عن وسيلة تتقي بها المسؤولية ، وتحقق أغراضها الجنائية في نفس الوقت دون أن تقع عليها مسئولية دم ابنة عمها ، وكان وزراؤها وأصدقاؤها يلحون في التعجيل بتنفيذ الحكم

وخشيت ماري استوارت أن يسفر ذلك التردد في تنفيذ الحكم علناً عن قتلها في سجنها غيلة فكتبت الى الدوق دي جيز « اني أتوقع الموت بالسم أو بطريقة سرية أخرى » واعتزمت أن تكتب الى اليزابيث بمطالبها الاخيرة فكتبت اليها ما يأتي :

« أطلب اليك بعد أن يروي أعدائي ظمأهم من دمي البرىء أن تسمحي الى خدمي المحزونين أن يحملوا جميعاً جثتي لتثوى في أرض فرنسا .

« ولعلك لا تأبين عليّ ذلك الطلب الاخير فتسمحين على الاقل بحرية الابدية الى جسد فارقته الروح خصوصاً وانهما حين اجتماعهما لم ينعما قط بالحرية والراحة . . . وأريد ان اعرف ردك الاخير على طلبي الاخير »

واليك جواب اليزابيث : تقدم اليها دافيسون بأمر التنفيذ لتوقيعه فوقعته ، وأفهمته بعبارة غامضة أنها تكون سعيدة اذا لم يتم التنفيذ وأن يجعله أحد رعاياها المخلصين امراً لا ضرورة له . ففهم دافيسون ما أشارت اليه الملكة واجتمع بوالسنجهام ثم كتبا الى السير امياس بوليت عن لسان الملكة دعوة صريحة الى اغتيال ماري استوارت في سجنها بطريقة خفية ، ولكن السير أمياس لم يكن قاتلا آثماً وان كان سجاناً غشوماً فأبى القيام بعمل « ينكره الله والقانون » . فقرر دافيسون عندئذ ان يبادر بتنفيذ الحكم اذ صدر الامر بتنفيذه ووقعته الملكة طبقاً للقانون ، فاستدعى الكونت أوف كنت والكونت شروزبوري الذي يجب عليه شهود التنفيذ باعتباره قائد انجلترا الاكبر ، وقدم اليهما أمر التنفيذ وعهد اليهما بابلاغه الى ماري استوارت

فذهبا في عصر ٧ فبراير سنة ١٥٨٧ الى قصر فوذرنجاي وطلبا مقابلة ملكة ايقوسيا ، وكانت مريضة تلزم الفراش ، فنهضت للقائهما وتقدم اليها شروزبوري وقرأ عليها صيغة الامر ، فلم يبد عليها أثر من الالم او الدهشة ، بل ربما أضاء محياها بلمحة من البشر فقالت وكأنما تقدم اليها نذر الخلاص « لقد كانت حياتي كلها سلسلة من المصائب ، واني لسعيدة اذ أراد الله أن ينقذني من غمار الآلام والاحزان التي رماني بها أعدائي »

ثم سألتهما عن ساعة التنفيذ فأجاب شروزبوري متلعثماً أنهـا الساعة الثامنة من صباح الغد

فاحتجت على هـذا التأخير في اخطارها ، وطلبت ورقاً لتكتب وصيتها ، ثم سألتهما عما اذا كانت الملكة اليزابيث قد سمحت بأن تدفن جثتها في ارض فرنسا ، فأجاباها بأن الملكة قد رفضت ذلك ، ثم انسحبا

فأخذت ماري استوارت عندئذ تنظم بعض الشئون في هدوء وسكينة ، ثم وزعت على حشمها حليها ومتاعها تذكاراً لكل منهم ، وكانت كلماتهـا الرقيقة تستثير منهم أحر الدموع والزفرات

ثم تناولت عشاءها في ساعة متقدمة عن المعتاد وأكلت قليلا

وبعدئذ كتبت وصية طويلة ، ورسالة لصهرها هنري الثالث ملك فرنسا تستحلفه فيها أن يسهر على ولدها وتوصيه خيراً بأتباعها وخدمها

ثم تمددت فوق فراشها بعد أن ارتدت كل ملابسها ، وطلبت إلى وصيفتها جنه كندي أن تقرأ لها فصولاً من كتاب « حياة الشهداء »

وكانت أثناء كل ذلك هادئة المحيا ، حاضرة الذهن ، فلم تنس أن تستحضر من متزيها منديلا موشى بالذهب لتحجب به عينيها في اللحظة الاخيرة

ثم عقدت يديها على صدرها ، وأغمضت جفنيها ، واستغرقت في صلاة حارة . وكان جبينها البديع في بياضه الناصع كأنما غشيه جلال الموت ، وجسدها الساكن كتمثال ممدد فوق مثوى الابدية

وكأنها كانت على قول جنه كندي « تبتسم إلى الملائكة »

***

وظلت ماري استوارت على تلك الحالة مستغرقة في صلاتها ، ومن حولها وصيفاتها وحشمها يصعدون الزفرات ، حتى دوت أرجاء القصر بصلصلة السلاح ، وغصت ساحته بجماعة كبيرة من الفرسان . وكان الصبح قد تنفس ، فنهضت الملكة بعد أن سلخت ليلها ساهرة تغوص في غمار من التأملات ، وعهدت إلى طبيبها بورجوان أن يقرأ وصيتها ، وأن يحملها إلى الدوق دي جيز الذي اختارته منفذاً لها

ثم دخلت إلى غرفة الصلاة وجثت تصلي

فلم تلبث حتى قرع الباب بعنف ، وأتى حاكم المدينة ليخطرها بأن الساعة قد أزفت

فنهضت قائلة : هيا !

وتبعت الحاكم راجية منه أن يساعدها على السير

وإذ حاول الجند أن يمنعوا خدمها من اللحاق بها إلى ساحة الاعدام طلبت أن يؤذن لهم باتباعها حتى النهاية ، وتعهدت أن تحملهم على أن يلزموا الهدوء وأن يضبطوا عواطفهم

ثم اخترقت الساحة الكبرى يحفها ذلك الجلال الذي كان لها طبيعة لازمة وهي تجيل في الحضور نظراتها الوديعة الهادئة ، وإذ تقدم السير أمياس بوليت ليساعدها على اجتياز السلم قالت له : شكراً لهذه الرقة يا سير أمياس ، انه آخر عناء أسببه لك ، وأطيب خدمة أديتها إليّ

ثم جلست على كرسي أسود منخفض أعد لها ، وجلس إلى جانبيها كنت وشروزبوري ، ووقف أمامها الجلادان ، فتقدم منها قسيس بيتربارا الاكبر بدلا من قسيسها الذي طلبته مراراً ، وأخذ يعظها بفصاحة خشنة ولهجة عنيفة

فطلبت اليه أن ينسحب وأفهمته أنهـا ترغب عن وعظه وأخذت هي تصلي بخشوع وحرارة ، فغلب الانفعال على الحضور ، وساد عليهم صمت عميق

ثم دنا منها الجلاد لينزع بعض ثيابها ، فأفهمته أنها ستتولى ذلك بنفسها ، وساعدتها وصيفتها جنه كندي على نزع قناعها ، ودثار عنقها ، وصدريتها

فجثا الجلادان أمامها ، وطلبا اليها طبقاً للتقاليد الانجليزية أن تصفح عنها لاعدامهما اياها فأجابتهما : اني أصفح عنكما من كل قلبي لانكما ستضعان حداً لكل آلامي

ولبثت جالسة في مكانها لاعتقادها أن رأسها سيقطع بالسيف اتباعاً لما تقضي به امتيازات الاشراف ، ولكن الجلاد جعلها تجثو ، وتضع رأسها فوق النطع ، ثم أشهر فأسه

وكانت ماري استوارت تصلي دائماً ، وزفرات الحاضرين تتصاعد ، ودموعهم تجري

فرفع الكونت شروزبوري عصاه ليؤذن الجلاد بالضرب ، ثم حول وجهه مرتاعاً وحجب عينيه بيديه

فهوت فأس الجلاد ، ولعله قد تأثر أيضاً بما حوله من مظاهر الحزن والالم ، فضرب بيد مرتجفة ، ولم تسقط الرأس إلا بعد الضربة الثالثة ،

فرفعها حينئذ إلى الجمع المحتشد وصاح كالعادة : « أدام الله الملكة اليزابيث ! »

* * *



اعدام ماري استوارت

هكذا أنفقت ماري استوارت أعوامها الاربعة والاربعين ، وعلى ذلك النحو الرائع انتهت حياتها الحافلة بالآلام ، والتي أثارت حولها عاصفة هائلة من الشهوات العنيفة ، والاحقاد الذاكية

لم تكن ماري استوارت تلك الساحرة الخطرة ، والمرأة الفاجرة

التي صورها أعداؤها ، ولم تكن أيضاً تلك الشهيدة الطاهرة التي أراد أن يصورها أنصارها . بل كانت امرأة شديدة المطامع وثابة العواطف والأهواء . كانت معاصرة لشكسبير ، ولم تكن بعيدة عن عصر مكيافيلي . كانت بارعة الذكاء ، ثاقبة الفكر ، بعيدة الغور ، كثيرة الأقدام غير أنها كانت شديدة التأثر ، تهتز جوانحها لكل عاطفة ، فلم تستطع أن تسلك طريقاً واضحة يحفها ثبات المبادىء ورسوخ العزيمة

ومع ذلك فسيسجل التاريخ دائماً أن ماري استوارت قد ضحت وقاست في سبيل اعتقادها ، وأنها لبثت في الاسر أعواماً طويلة تمثل آمال الكثلكة المهيضة المعذبة ، وأنها ذهبت ضحية الجور والعسف الشائن لأنها أبت أن تنزل عن حقوقها ومعتقداتها .

بياتريس

سنة ١٥٩٩

— ١ —

حدثت في مدينة رومة في خاتمة القرن السادس عشر جريمة رائعة يتمثل في وقائعها كثير مما كان يحتويه ذلك العصر ـ الذي يتميز في ايطاليا وخاصة في رومة بوقوع سلسلة من الجرائم والخيانات الشائنة ـ من خروج على قوانين الطبيعة والدين وانتهاك لحرمات الاخلاق والانسانية

ولا غرو فهو القرن الذي افتتح بعهد اسكندر السادس ، كبير آل بورجيا ، الذي ارتقى عرش البابوية فوق أكداس من الاشلاء ، وحكم إيطاليا بالسيف والنار ، وفرض عليها ألواناً رائعة من الارهاب والمذلة ، وخرج جهاراً على رسوم منصبه ، فأغرق في انتهاك الاخلاق والفضائل وارتكاب المفاسد والرذائل ، بل سخر من قوانين الطبيعة فهام غراماً بابنته الحسناء لوكريزيا

وهو العصر الذي روع فيه شيزاري بورجيا ابن اسكندر السادس رومة بجرائمه التي كان يرتكبها تارة في سبيل هيامه بأخته لوكريزيا وفضائحه الغرامية الاخرى ، وتارة في سبيل تحقيق مطامعه السياسية

وهو العصر الذي حاصرت فيه الجيوش البروتستانتية رومة بقيادة بوربون وفراندسبرج ثم وثبت بها وثوب الضواري المفترسة وارتكبت فيها من ضروب السفك والاثم ما ترتعد لهوله الفرائص ، واستمرت كذلك سبعة أشهر انتهكت خلالها الاماكن المقدسة ودنست ، وأرهق الرومانيون وأشرفوا على التلف

* * *

ذلك الصوت المطرب اذ فتح باب غرفتها فجأة فوقع بصرها خلال الظلمة الحالكة على ساحة تسطع بالانوار وهبت عليها عطور ذكية كالتي تستنشقها في لذيذ أحلامها ، ولمحت بالساحة جماعة من الفتيان والغيد الحسان كلهم عار الى النصف ، فتذكرت ما كانت تراه من ذلك في صور جيدي ورفائيل: وأولئك هم أصحاب فرنشيسكو وخلانه كان يدعوهم الى خفلاته الباهرة المستمرة

ودام ذلك الحلم البديع ساعة والفتاة ذاهلة من الطرب ثم أغلق الباب فاختفت الانوار وتركت بياتريس الى عزلتها وقد فاضت جوانحها بمختلف العواطف والانفعالات

وفي الليلة التالية تجدد ذلك المنظر الساحر ، ثم دخل فرنشيسكو غرفة إبنته ودعاها لان تشاطره السرور والمرح ، فشعرت بياتريس أنها تخطىء إذا لبت دعوته خصوصاً . وأنها لا ترى زوجة أبيها لوكريزيا بتروني بين أولئك النسوة . فأرعد فرنشيسكو وأبرق ثم عاد اليها في الليلة التالية وأشار لها الى الساحة المضيئة وكانت لوكريزيا هنالك في تلك المرة إذ اكرهت الزوجة المسكينة على مشاطرة الاثم ، وكان يصعب على بياتريس أن ترى عن كثب احمرار الخجل الذي ارتسم على وجه لوكريزيا أو تتساءل عن سبب دموعها المنهمرة وزفراتها الحرى

أشار فرنشيسكو لبياتريس إلى زوجته فلم تر الفتاة سبباً للامتناع في تلك المرة فتبعته حائرة تمشي على استحياء ، وانخرطت في سلك ذلك المعترك الفياض بالعار والخزي والشهوات السافلة

وهنالك رأت بياتريس ما تجهل وما تثور له النفس الابية

على أنها قاومت كثيراً : لقد كان ينبئها صوت خفي ان ذلك فظيع هائل ، ولكن فرنشيسكو كان يثابر مثابرة الشيطان فعرض عليها تلك المناظر الساحرة ليوقظ مشاعرها الطبيعية ، ولم يدخر وسعاً في تأييد إغرائه بالتجديف الشائن إذ كثيراً ما قص عليها أن كبار القديسين كانوا ثمرة اجتماع الآباء ببناتهم !!

ولم يك ثمة حد لتلك الوحشية فقد كان ذلك الاب الفاجر ، والوحش

الكاسر برغم لوكريزيا وبياتريس على الاجتماع في فراش واحد[1] ، ثم هدد زوجته بالقتل إذا هي أخبرت بياتريس بالحقيقة

واستمر ذلك الاثم الشائن أعواماً ثلاثة .

ثم اضطر فرنشيسكو إلى السفر لاسباب نجهلها فبادرت لوكريزيا بايقاف بياتريس على كل ما تحتويه حياتهما من صنوف العار والاثم ، وأنشأتا لفورهما مذكرة لكليمنضس الثامن شرحتا فيها كل ما أصابهما وما اضطرتا إلى ارتكابه ، ولكن فرنشيسكو كان قد احتاط لذلك واشترى عمال القصر المقدس فلم تصل المذكرة إلى البابا ولم يتأثر لظلامتهما أحد

— ٣ —

وانتهز جاك تشنتشي فرصة غياب أبيه فقدم لزيارة بياتريس مع صديق له يدعى الأب جورا . وكان جورا فتى جميل الطلعة حلو الشمائل فما كاد يرى بياتريس وما كادت تراه حتى سرى اليهما هوى متبادل ، وأعرب الفتى عن رغبته في خطبة الفتاة من أبيها حين عودته

وآب فرنشيسكو من سفره بعد بضعة أشهر ولم يعلم ما حدث في غيابه ، وحاول أن يجدد اثمه مع إبنته ، ولكن بياتريس لم تعد طفلة بل غدت فتاة تلم عفافها ، فدفعته عنها بغلظة ، فأبرق وأرعد ثم توسل وتوعد . فتلقت وعيده بثبات وأعارها الحب قوة وجلداً

فانقضت صواعق غضبه على لوكريزيا وبالغ في تعذيبها غير أن لوكريزيا لم تكن إلا ذئبة رومانية ، مفرطة في الحب ، مفرطة في البغضاء ، فاحتملت كل شيء ولم تتجاوز عن شيء

---

(١) يشير معظم المؤرخين الذين كتبوا تاريخ هذه الجريمة تلميحا إلى علاقة الاب وابنته ولكن موراتوري يذكر ذلك صراحة في كتابه « الاخبار الرومانية » حيث يقول :

" ... non si vergognava il perverso uomo d'abusari della figlia sugli occhi della stessa sua moglie"

ومعناه : « لم يخجل الرجل التعس من ان يأثم بابنته أمام عيني زوجته »

وبعد بضعة أيام قدم الاب جوريا وخطب الفتاة إلى أبيها ، ولكن فرنشيسكو رده بجفاء وأخطره باستحالة تحقيق بغيته ، فكرر رجاءه مراراً ولكن فرنشيسكو لم يزده إلا إصراراً . فتحول جوريا إلى الفتاة وتوسل اليها أن توضح له سر ذلك الاباء فقصت عليه الفتاة الحقيقة الهائلة خلال الدموع والزفرات ، ورأى جوريا أن هاوية سحيقة تفصلها، وأن ليس له او لسواه أن يأمل ، فافترق العاشقان بعد أن بكيا بدموع حرى وتعاهدا أن لا ينقضا ميثاق حبها إلى الابد

ولم تخطر الجريمة بذهن المرأتين الى تلك اللحظة ، ولكن فرنشيسكو دخل غرفة إبنته ذات ليلة وأرغمها على ارتكاب جريمة جديدة ، فسالت جروح فؤادها ، واحترقت جوانحها بنار البغضاء . وكان لبياتريس روح خليق بأشرف العواطف وأخسها ، فقررت أمرها عندئذ ، وافضت الى لوكريزيا بخبر الجريمة الجديدة ، وتعاهدت الزوجة المهيضة ، والابنة المنتهكة على قتل الزوج الغشوم ، والاب الفاجر

فاستدعتا جوريا وجاك تشنتشي لحضور ذلك المجلس ، وبعد مداولات عديدة تم الاتفاق على تنفيذ الجريمة في منزل جوريا ، واستحضر جاك لذلك الغرض شقياً اسمه مارتسيو ، وجوريا شقياً آخر اسمه اوليميو

وكان لكل من الاثنين باعث على ارتكاب الجريمة فان مارتسيو الذي كان وصيفاً لجاك رأى بياتريس مراراً وهام بها وأما أوليميو فكان يبغض فرنشيسكو لانه حمل صديقه الامير كلونا على طرده من قصره في نابولي « روكا بترلا » ، وكان فرنشيسكو كثيراً ما يقضي مع أسرته ردحاً من الزمن في روكا ، وكانت تربطه بالامير صداقة متينة العرى

***

بعد حين سافر فرنشيسكو الى روكا تصحبه زوجته وابنته ، وهنالك عاد الى تجديد اثمه بأشنع وسائل الاكراه والغصب ، فرأت بياتريس أن الساعة قد جاءت لتنفيذ انتقامها

وكان مارتسيو وأوليميو قد لحقا بفرنشيسكو الى روكا ولبثا أياماً

يتجولان حول القصر ، فأشارت اليهما بياتريس من نافذتها ذات يوم بالدخول الى جناح القصر الذي تقيم فيه أسرة تشنشي. وكان أولمبيو خبيراً بأسرار القصر وممراته لسابق عهده به ، فنفذ اليه مع رفيقه تحت جنح الظلام ، واجتمعا بالفتاة خفية فسلمت اليهما خطابين أحدهما الى الاب جوبرا تطلب اليه فيه ان يدفع الف ليرة لاولمبيو. وأما مارتسيو فقد رفض أن يأخذ مالا لان أقصى أمنية له أن يقدم الى بياتريس برهاناً على غرامه وإخلاصه . والثاني الى جاك تطلب فيه اليه أن يوافق على قتل أبيه مرة أخرى

فرحل أولمبيو ومارتسيو الى رومة وأديا مهمتهما ثم عادا في اليوم المحدد واجتمعا بلوكرزيا وبياتريس ورسم الاربعة خطتهم النهائية

وفي مساء اليوم التاسع من نوفمبر سنة ١٥٩٨ حينما جلس فرنشيسكو الى مائدة العشاء وضعت لوكرزيا مخدراً في كأسه خفية وتناول الشيخ كأسه طروباً فلم يلبث حتى غاضت قواه وتخاذل ساقاه فارتمى على سريره منهوكاً واستغرق في سبات عميق

وكان أولمبيو ومارتسيو قد انسلا الى القصر في مساء اليوم السابق وكمنا في أحد مخادعه ، فلما انتصف الليل ذهبت اليهما بياتريس واستدعتهما ثم قادتهما الى غرفة أبيها فدخل القاتلان وانتظرت المرأتان في الغرفة المجاورة

فتردد الشقيان بادئ بدء ولكن لم يدم ترددهما طويلاً ، بل تقدما من فراش الشيخ ووضع أحدهما في عينه مسماراً دفعه الآخر بمطرقته ، ثم دفعا الى عنقه مسماراً آخر ، فطارت تلك الروح المعذبة المثقلة بالخطايا الى مستقرها في شدة وعنف ، وسقط جسم الشيخ متدحرجاً فوق أرض الغرفة

فتقدمت بياتريس من الشقيين وسلمت اليهما كيساً مثقلاً بالذهب ، ثم صرفتهما فبادرا بالفرار

ولما انفردت المرأتان انتزعتا المسمارين من عين الشيخ وعنقه ولفتا جثته في غطاء وحملتاها من الغرفة الى شرفة صغيرة تطل على حديقة

مقفرة ثم قذفتا بها إلى البستان فعلقت بأفرع شجرة عتيقة من أشجاره وكانت فكرتهما في ذلك أن تحملا الناس على الاعتقاد بأن فرنشيسكو سقط من الشرفة حينما أراد اجتيازها قضاء وقدراً



آل تشنتشي يلقون جثة أبيهم

وحدث ما توقعتاه إذ وجدت الجثة في صباح اليوم التالي عالقة بالاغصان واعتقد الناس أن فرنشيسكو زلت قدمه بينما كان يجتاز الشرفة فسقط قتيلاً على الاثر ، ولم يلاحظ احد آثار المسمارين في العين والعنق لان الجثة أثخنت جراحاً ورضوضاً حينما سقطت فوق الاغصان اليابسة

وتظاهرت المرأتان حينما أعلن خبر الفاجعة بالحزن العميق واليأس القادح وعلا صراخهما وانهمرت دموعهما ، ولم يرتب إنسان في صدق حزنهما سوى غاسلة القصر التي عهدت اليها بياتريس بغسل الغطاء الذي لفت فيه الجثة ، وشيع الشيخ الراحل الى قبره في سلام وسكينة ثم عادت المراتان الى رومة .

— ٤ —

أقامت لوكريزيا وبياتريس في أمن ودعة ولم تشعرا بوخز أو تأنيب ضمير ، غير ان عين العدل الالـهي كانت ساهرة فان البلاط النابولي حينما علم بموت فرنشيسكو تشنتشي على تلك الصورة الفجائية المحزنة ارتاب في الامر واوفد الى روكا لجنة ملكية لاخراج الجثة وفحصها وتحقيق أسباب الوفاة ، فقامت اللجنة بمهمتها وأمرت بالقبض على خدم الامير كلوتا غير أنه لم يؤيد أحد منهم شكوك اللجنة سوى الغاسلة

فأرسلت اللجنة نتيجة تحقيقها الى رومة ، ولم تكن الادلة كافية للقبض على آل تشنتشي فمضت بضعة اشهر أخرى ، ولـكن الاب جوريا علم أن شرطة نابولي اشتبهت في أوليميو ومارتسيو وأمرت بالقبض عليهما، وكان جوريا فطناً حازماً فعهد الى شقيين آخرين بقتل أوليميو ومارتسيو ، فاستطاع أحدهما أن يقتل أوليميو ، ولـكن الآخر أخفق في مهمته ولم يصل الى نابولي الا بعد أن قبضت شرطتها على مارتسيو

ولما مثل مارتسيو أمام اللجنة اعترف بكل شيء

فارسلت اللجنة اقرار مارتسيو الى رومة وأرسلت الشقي اليها أيضاً لمواجهته بالمتهمين ، فأمر قضاء رومه بالقبض على جاك وبرنارا ابني فرنشيسكو وبياتريس ولوكريزيا وزجوا الى قلعة كورتي سافلا ، وهنالك ووجهوا بالشقي فانـكروا ما أسند اليهم بشدة ، وأعلنت بياتريس في وجهه بكبر وثبات أن ما قاله محض افتراء ، وراعى الشقي جمالها الباهر فاضطرب وعول على انقاذها بتضحية نفسه فقرر أمام القضاة أنه قال كذباً ، وأنه يطلب

الغفران من الله ومن ياتريس ، فسيق الى العذاب ليعترف فمات بين يدي جلاديه دون ان يفوه بكلمة من سابق اقواله ، وأيقن آل تشنتشي بالنجاة

ولكن قضى ربك أن الشقي الذي قتل أولمبيو قبض عليه لارتكاب جريمة أخرى واعترف امام محققيه بأن الاب جوررا عهد اليه بقتل لص اسمه اولمبيو تخلصاً من سوء كان يتوقعه من بقائه حياً

وعلم الاب جوررا بذلك الامر في حينه ، ففر من رومه في تنكيرة فحام بينما كانت الشرطة تجد في البحث عنه ، ووصل سالماً الى نابولي ومنها الى حيث لا نعلم .

وكان اقرار قاتل اولمبيو واختفاء الاب جوررا من الادلة القاطعة على أجرام آل تشنتشي فنقلوا في الحال من القلعة الى السجن ولم يحتمل الاخان العذاب فأقرا باشتراكهما في تدبير الجريمة ، وكذلك اعترفت لوكريزيا في اول درجة من العذاب

أما ياتريس فلزمت الصمت ولم يؤثر في جلدها واصرارها لا وعيد ولا وعد بل احتملت كل ما أصابها من يد جلاديها بثبات عجيب وشجاعة نادرة . وغلب قاضيها يوليس موسكاتي على امره ولم يستطع أن ينتزع منها كلمة تؤخذ بها ، فلم يشأ ان يأخذ على نفسه مسئولية التحقيق وأحال الامر على البابا اكليمنضس الثامن . وخشي قداسته ان يستأسر يوليس جمال المجرمة التي عهد اليه باستجوابها فيقصر في تعذيبها فأحال القضية الى قاض عرف بالقسوة والجمود

فلما راجع ما تم في التحقيق الابتدائي لاحظ ان يوليس اقتصر على معاملة ياتريس « بالتحقيق العادي » فأمر ان تعامل به « وبالتحقيق غير العادي » والنوع الاخير يقتضي تطبيق « عذاب الحبل » وهو من أفظع الطرق التي استنفد الانسان ذكاءه في استنباطها لتعذيب المجرمين

ولكي يقف القارىء على طرف من تلك الاجراءات الجهنمية التي امتاز بها قضاء تلك العصور يحسن ان نشرح له بعض امثلة منها .

* * *

تنص اجراءات التحقيق في القضاء الروماني على طرق شتى للتعذيب أكثرها شيوعاً « تحقيق النار » و « تحقيق اليقظة » و « تحقيق الحبل » . اما تحقيق النار فكان شائع الاستعمال قبل اختراع تحقيق اليقظة . وهو عبارة عن تقريب قدمي المتهم من نار مستعرة يتصاعد اليهما لهيبها . واما تحقيق اليقظة الذي اخترعه مارسيلوس فهو عبارة عن اجلاس المتهم فوق جواد من الخشب ارتفاعه نحو خمسة أقدام وهو عار وذراعاه مربوطتان الى ما ورائه ثم يجلس حوله رجلان أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ويرقبانه حتى اذا أغلق عينيه أيقظاه بعنف ومنعاه من النوم . وقد قال مارسيلوس انه لم ير انساناً احتمل ذلك النوع من العذاب ، غير انه يبالغ في قوله لان المحامي فارنياشي اثبت انه لم يعترف من المتهمين الذين عذبوا بتلك الطريقة سوى خمسة في المائة

وأما تحقيق الحبل وهو أهم طرق التعذيب وأكثرها شيوعاً ، فينقسم الى ثلاث درجات ، الخفيف والمتوسط والشاق . والاولى عبارة عن ما يحل بقلب المتهم من توقع العذاب فيصدر الامر بتهديده ثم قيادته الى غرفة التعذيب وتجريده من ملابسه ونشر الحبال والآلات مما يعرب عن العزم بتعذيبه . ثم يضغط الجلاد على يديه بقابض من الحديد بحيث يناله شيء من الالم . وكان ذلك النوع كافياً لحمل النساء والضعاف على الاعتراف

وأما الدرجة الثانية أو المتوسطة فهي عبارة عن ايثاق يدي المتهم وراء ظهره بعد تجريده من ملابسه وانفاذ الحبل المربوط به من حلقة بسقف غرفة التعذيب وربطه حول عجلة سريعة الدوران بحيث يستطيع الجلاد رفع المتهم وخفضه اما رويداً واما بعنف حسب أمر القاضي ، فاذا انتهى ذلك الدور وأصر المتهم على الانكار أعيدت عليه الكرة بطريقة أشد . وهذا النوع يستعمل عند وجود ارتياب في وقوع الجريمة دون البرهان عليها

وأما الدرجة الثالثة أو التعذيب الشاق الذي يبدأ به التحقيق غير العادي فيبدأ بعد أن يترك المتهم مصلوباً من يديه نحو ربع ساعة أو نصفها

أو ثلاثة أرباعها أو ساعة كاملة ثم يرفعه الجلاد ويخفضه أو يتركه ليسقط من عل ويمسكه فجأة قبل ان يصل الى الارض فاذا اصر المتهم على انكاره بعد ذلك ربط في اطرافه أثقال من الحديد لتضاعف وزنه فيتضاعف بذلك ألمه . وهذه الطريقة الاخيرة لا تستعمل الا في الجنايات الفظيعة بعد البرهان عليها كما اذا وقعت على انسان يحترم القانون شخص كأب أو كردينال أو أمير أو عالم

* * *

وقد ذكرنا ان القاضي أمر أن تعامل بياتريس بالتحقيق العادي وغير العادي ، وخير شرح لذلك هو المحضر الرسمي الذي أملاه القاضي وأثبته الكاتب نقدمه الى القارىء نقلا عن اوراق القضية المحفوظة في دار كتب الفاتيكان :

« لما كانت المتهمة بياتريس تشنتشي قد أصرت أثناء التحقيق على الانكار فقد نقلت بحراسة جنديين من السجن الى غرفة التعذيب حيث كان المحقق في انتظارها . وبعد أن قص شعرها أمر المحقق بطرحها فوق مقعد الاتهام ثم بتجريدها من ثيابها وايثاق يديها وراء ظهرها ثم انفاذ الحبل الموثقة به من حلقة بسقف القاعة وربطه في عجلة في أسفلها تدار بقوة رجلين وأربعة عصي

« وقبل البدء في التعذيب سألها المحقق أن تعترف بالاشتراك في مقتل أبيها ولكنها بالرغم من أقوال أخويها وزوجة أبيها وتوقيعهم على محضر الاعتراف أصرت على الانكار قائلة : عذبوني وافعلوا بي ما شئتم . لقد قلت الحقيقة ولن أقول سواها ولو قطعتموني ارباً

« فبدأ العذاب وأمرنا برفعها قدمين ثم تركناها ريثما تلونا الصلاة . وعدنا الى سؤالها عن الحقيقة فأبت أن تعترف بشيء ولم تجب بغير هذه العبارة : انكم تقتلونني ! انكم تقتلونني

« فرفعناها أربعة اقدام وعدنا الى الصلاة . وفي أثناء تلاوتها تظاهرت بالاغماء فألقينا على رأسها ماء بارداً فلما أفاقت صرخت « رباه ! اني هالكة

لا محالة ، انكم تقتلونني . رباه ! ولم تجب بشيء

« فعدنا الى رفعها والى الصلاة بينما كانت تنتفض وتقول ـ رباه ! ولم تشاركنا في صلاتنا

« ثم عدنا الى سؤالها عن الجريمه فأبت أن تعترف بشيء وكررت انها بريئة وعاد الاغماء اليها

« فألقينا الماء البارد على رأسها مرة أخرى ففتحت عينيها وصاحت تباً لكم أيها الجلادون ! انكم تقتلونني ! ولم تقل سوى ذلك

« فلما رأينا اصرارها على الانكار أمرنا الجلاد أن يبدأ برفعها وخفضها فرفعها نحو العشرة أقدام ثم استوقفناه وطلبنا منها أن تعترف، غير أنها ، إما لعجزها عن النطق أو اصرارها على الصمت ، لم تفعل سوى أن حركت رأسها إشارة بالرفض

« فأشرنا اليه أن يخفض الحبل فهبطت من ارتفاع عشرة أقدام الى قدمين . ولشدة الصدمة دار جسدها في جهة معاكسة لذراعيها فصرخت صرخة منكرة وأغمي عليها

« فألقينا على وجهها ماء بارداً فأفاقت وصرخت ـ تباً لكم من أنذال قتلة ! انكم تقتلونني ولكن لو فصلتم ذراعي من جسدي ما قلت سوى ما قلت

« فأمرنا أن يربط بقدميها ما يزن خمسين رطلاً ، ولكن فتح الباب في تلك اللحظة وسمعنا أصواتاً متعددة تصيح كفى . . . لا تعذبوها بعد . . . »

وكانت هذه أصوات باقي المتهمين جاك وبرنار ولوكرزيا أرسلوا لمواجهتهم بيباتريس ، فتقدموا من غرفة التعذيب فرأوا بياتريس مصلوبة وقد ارتخى ذراعاها وضرجها سيل من الدماء

فصرخ جاك لقد سبق السيف العذل فيجب أن نتوب لتنقذ الروح وأن نتحمل الموت بصبر وشجاعة

فهزت الفتاة رأسها البديع الذي جرد من شعره وقالت لاخيها ليكن

ما أردت ، ثم طلبت أن يحل وثاقها لتعترف ، فرفعت عنها أهبة العذاب وضمد الطبيب جراحها واعترفت كما وعدت بكل شيء

وبذلك اختتم التحقيق وأعيد المتهمون الى السجن

— ٥ —

وقد ارتاع قداسة البابا حينما تليت عليه تفصيلات الجريمة أيما ارتياع وأمر أن يطاف بالمتهمين في شوارع رومة مربوطين الى ذيول الخيل ، ولم يؤجل تنفيذ أمره القاضي الا بعد أن مثل لديه وفد من العظماء والكرادلة والتمس منه الرأفة بالمتهمين ، فأمهلهم قداسته ثلاثة أيام يهيئون فيها دفاعهم عن أنفسهم

وكان لذلك الحادث المؤلم أثر عميق في أنفس الرومانيين فتقدم للدفاع عن المتهمين عدد من كبار المحامين ومثلوا بين يدي قداسته في اليوم المعين ، وبدأ نيكولا ديزابيخ بالكلام فأفاض في دفاعه بفصاحة خلابة ، وتلاه فاريناشي فالتمس براءة المتهمين وقال في دفاعه أنه اذا كانت القوانين تنص على أحوال يسوغ للاب ان يقتل فيها ولده[1] فانه توجد أحوال يسوغ للولد فيها أن يقتل أباه ، وأن فرنشيسكو تشنتشي لم يعد أباً منذ اليوم الذي اغتصب فيه ابنته وذكر قداسته بالمذكرة التي أنشأتها بياتريس ولم تصل الى علمه ، ثم اختتم التيري الدفاع بأن توسل الى قداسته في العفو عن المتهمين

---

(١) نصت القوانين الرومانية على ثلاث عشرة حالة يسوغ للاب ان يقتل فيها ولده وهي : (١) اذا هم الولد بضرب أبيه (٢) اذا ضره ضرراً بليغا (٣) اذا اتهمه بارتكاب جريمة غير خيانة الملك وخيانة الوطن (٤) اذا اختلط بأناس لا خلاق لهم (٥) اذا تربص لقتل ابيه (٦) اذا زنى بزوجة أبيه أو خليلته (٧) اذا رفض أن يضمن أباه اذا سجن لعجزه عن أداء الدين (٨) اذا منعه من كتابة وصيته سواء بالقوة أو الاكراه المعنوي (٩) اذا انضم دون اذن أبيه الى جماعة من المصارعين أو المضحكين (١٠) اذا رفضت البنت الزواج وترتب على ذلك ان ثلمت عفتها (١١) اذا لم يعن الولد بوالده حال مرضه . (١٢) اذا رفض افتداء أبيه او أمه من أسر العدو (١٣) اذا خرج عن دين الكثلكة

والظاهر أن كليمنضس الثامن قد تأثر بظروف المتهمين ودفاع المحامين فقضى ليله يدرس أوراق التحقيق مع الكردينال سان مارتشيلو ثم أمر في اليوم التالي بإعادة المتهمين الى السجن بل أفهموا أنه يوجد ثمة أمل في الابقاء على حياتهم، فتنفست المدينة صعداً

ولكن حدث حادث قضى على عطف البابا وهو أن المركيز ساتنا كروتشي قتل أمه قتلاً شنيعاً ومزق جسدها بخنجره لانها أبت أن تجعله وارثها الوحيد فراع قداسته ما كان من تماثل بين الجريمتين وأمر في الحال الدوق تافرنا محافظ رومة أن يتصرف قضية آل تشنتشي فعقد المحافظ مجلساً من قضاة المدينة نظر القضية ثم أصدر حكمه باعدام جميع المتهمين

فضجت المدينة بأسرها لذلك الحكم القاسي ، وسارع الكرادلة وعظماء المدينة الى التوسل لدى البابا أن يعفو على الاقل عن برنار أصغر المتهمين لانه لم يشترك في الجريمة مطلقاً وأن يعدم المتهمون داخل السجن، فعفا قداسته عن برنار ولكنه اشترط أن لا يخطر بذلك العفو الا بعد أن يقاد الى ساحة الاعدام ليشهد اعدام باقي المتهمين

* * *

وأخطر المتهمون بالحكم فجزعت بياتريس جزعاً هائلا ولكن لوكريزيا قابلت مصيرها بثبات وسكينة

وفي مساء ١١ سبتمبر سنة ١٥٩٩ أعدت معدات التنفيذ في ساحة سانت انجيلو وسيق المتهمون الى هنالك في موكب هائل لان رومة بأسرها قدمت لتشهد خاتمة هذه المأساة الرائعة . وكانت لوكريزيا تبكي حينئذ . وكان الزحام هائلا والحر شديداً حتى أغمي على كثير من الحضور ومات بعضهم ، وانتشرت في المدينة على أثر ذلك حمى أودت بحياة كثيرين

ونحن نفر على القارىء وصف ذلك المنظر المؤلم ونكتفي بأن نقول أن الجلاد بدأ باعدام جاك ثم لوكريزيا ثم بياتريس ، وكانت رؤوس أولئك

المنكودين تسقط أمام عيني الفتى برنار الذي أخطر بالعفو عنه أمام نطع الجلاد وحمل محموماً الى السجن

ثم حملت جثث القتلى الى مقرها الاخير في مساء اليوم التالي فدفنت لوكريزيا بترونى في كنيسة القديس جورج عملا بوصيتها ، ودفنت بياتريس في أسفل هيكل القديس بطرس في مونتوريو . وفي وسع الزائر أن يرى قبرها الآن هنالك ، وفي وسعه ايضاً أن يرى في أروقة متحف باربريني صورتها التي قيل ان جيدو رسمها في الليلة السابقة على ليلة الاعدام

مؤامرة سنك مارس

سنة ١٦٤٢

— ١ —

لما تولى الكردينال دي ريشليه الوزارة في عهد لويس الثالث عشر كانت الفتن الدينية والسياسية تعصف بسلام فرنسا ودسائس الاشراف تضطرم حول العرش وتفتات على سلطته . فقبض ريشليه على أزمة الحكم بيد من حديد ، ووضع نصب عينيه اخماد الفتن الدينية التي كان يدبرها الهوجنوت فمال عليهم وجد في مطاردتهم حتى فرق شملهم وأخمد شوكتهم ، ثم تجرد لمقاومة الاشراف وحماية العرش من مكائدهم ، فحطم نفوذهم وأذل عزتهم

وكان الملك لويس الثالث عشر بالرغم من تضاؤل سلطته أمام سلطة ذلك الوزير الكبير يؤيد سياسته في الحكم ، ويصغي الى نصحه ، ويعتمد عليه في توطيد دعائم عرشه وسحق الخارجين عليه

وكان الاشراف كلما اشتد ريشليه في ارهاقهم والضغط عليهم ، وكلما آنسوا من الملك استسلاماً لوزيره كلما ازدادوا نشاطاً في تدبير الدسائس والمؤامرات سعياً الى الانتقام واسترداد ما فقدوا من سلطة ونفوذ

وكانت مؤامرة سانك مارس من أهم هذه المؤامرات وأخطرها

***

وبطل هذه المأساة هو هنري كفييه مركيز سانك مارس ، وهو الابن الثاني لانتوان كفيه مركيز ديفيات الذي تولى عدة مناصب هامة في حكومة لويس الثالث عشر ورقي في النهاية الى رتبة المارشال . وكان ريشليه يحبه ويؤثره لما كان يبديه من المهارة والحزم في جميع المناصب التي تولاها ، فلما توفي تعهد ريشليه أولاده برعايته وحمايته

وكان المركيز دي سانك مارس في العهد الذي نتحدث عنه فتى صغيراً

أو غلاماً لا يجاوز الخامسة عشرة ، وقد ورث كثيراً من جمال أبيه وظرفه، فكان جميل الطلعة ، خلاب المحيا ، رشيق القد ، جم الرقة ، وافر الذكاء، وثاباً إلى المعالي . فاعتزم ريشليه أن يأخذ بيده ويرفعه وأن يستفيد من ذكائه وهمته في تنفيذ خطط ومشاريعه فعينه ضابطاً في حرس الملك ، وفي سن الثامنة عشرة عين رئيساً لخزائن الثياب الملكية .

ولم يلبث لويس الثالث عشر أن قدر مواهب ذلك الفتى وصفاته الخلابة فمال اليه وأغدق عليه عطفه ورعايته ولم يمض عام حتى كان جليسه ، بل خله الحميم الذي لا يستطيع صبراً على بعده

وهذا هو نفس ما كان يرمي اليه ريشليه من مساعدة سانك مارس ومديحه والتنويه بصفاته ومواهبه لدى الملك

ذلك لان لويس الثالث عشر لم يكن في الواقع دائماً على وفاق تام مع وزيره ، فقد كان يخضع لنفوذه ، ويقر سياسته في الحكم وتدبير مهام المملكة ، غير أن أحدهما لم يشعر نحو صاحبه بشيء من العطف الحقيقي ، بل لقد كان الملك يأنس أحياناً شيئاً من النضاضة في تحمل نير الكردينال ، وكثيراً من الغيرة لاستئثاره بالحكم ، وكان يروح عن نفسه ويلتمس الفرار من ضجره في اللهو والصيد ، وكثيراً ما يفضي بمكنونات صدره ويبث غضبه من وزيره الى خل يؤثره ويأتمنه على دخائل سريرته

وكان ريشليه يقف تمام الوقوف على أطوار الملك ونزعاته ، ومما يؤثر عنه قوله ذات يوم الى أمينه الاب يوسف « كثيراً ما يجهدني حكم الملك بأكثر مما يجهدني حكم الدولة » ولذلك دفع الى جانب الملك بذلك الفتى سانك مارس معتقداً أنه يستطيع الاعتماد على وفائه ، مؤملاً أن يستعين به على حكم الملك وعلى دفع ميوله الى الاتجاه الملائم لنفوذه

وكان المتسلط على عواطف الملك في ذلك الحين خليلته الآنسة دي هوتفور خصيمة ريشليه ، وكان نفوذها يسود كل نفوذ آخر في البلاط . غير أن نجمها الساطع أخذ في الافول منذ أن أشرق نجم سانك مارس ، واشتد ولع الملك بعشرته وأصبح لا يكاد يسمح له بساعة يقضيها بعيداً عنه

وكان توثق الروابط بتلك الصفة وزوال الكلفة بين الملك وخله سبباً في أن تحدث بينهما المناظر العاصفة من حين الى آخر ، غير أن تلك الخصومات السطحية لم تنقص من حب الملك لصديقه ، بل لقد نما ذلك



سانك مارس

الحب واشتد فلم يمض عام آخر حتى اسندت الى سانك مارس وظيفة « كبير الركائب الملكية » وهي أهم مناصب البلاط

ولا ريب أن هذه الحظوة الكبرى ، وذلك الفوز الباهر قد بعثا الى سانك مارس شيئاً من الغرور والزهو ، كيف لا وقد أصبح في سن

التاسعة عشرة من أعظم رجال البلاط الفرنسي ، وأشدهم نفوذاً ، وأبعدهم تغلغلاً في شئون الدولة

وهذا ما أشارت اليه الاميرة دي جونزاج في مذكراتها حيث قالت عن سنك مارس ما يأتي : « لقد تآمرت كل الظروف على إثارة زهوه وكبريائه ولا غرو فقد كان ارتفاعه كارتفاع الملك أو الكردينال ، وكان يتبعه حين ذهابه الى الملك مائتان من السادة ، وكان يبذ جميع رجال القصر ببهاء ثيابه ، وجمال هندامه ، ورواء طلعته ، وظرف معاملته . وكان النساء يتنافسن في استمالته ، والوزراء على أهبة لتلقي أوامره »

كان هذا شأن المركيز دي سانك مارس وهو فتى لم يجاوز العشرين بعد غير أن الملك والكردينال لبثا يعاملانه معاملة الطفل ، وكلما غضب منه الملك أحاله على وزيره ليؤنبه . وكثيراً ما اعتذر عنه ريشليه الى الملك بقوله : « من المستحيل أن يجتمع الشباب والحكمة »

— ٢ —

في ذلك الحين وثبت أول بادرة للجفاء بين سانك مارس والكردينال

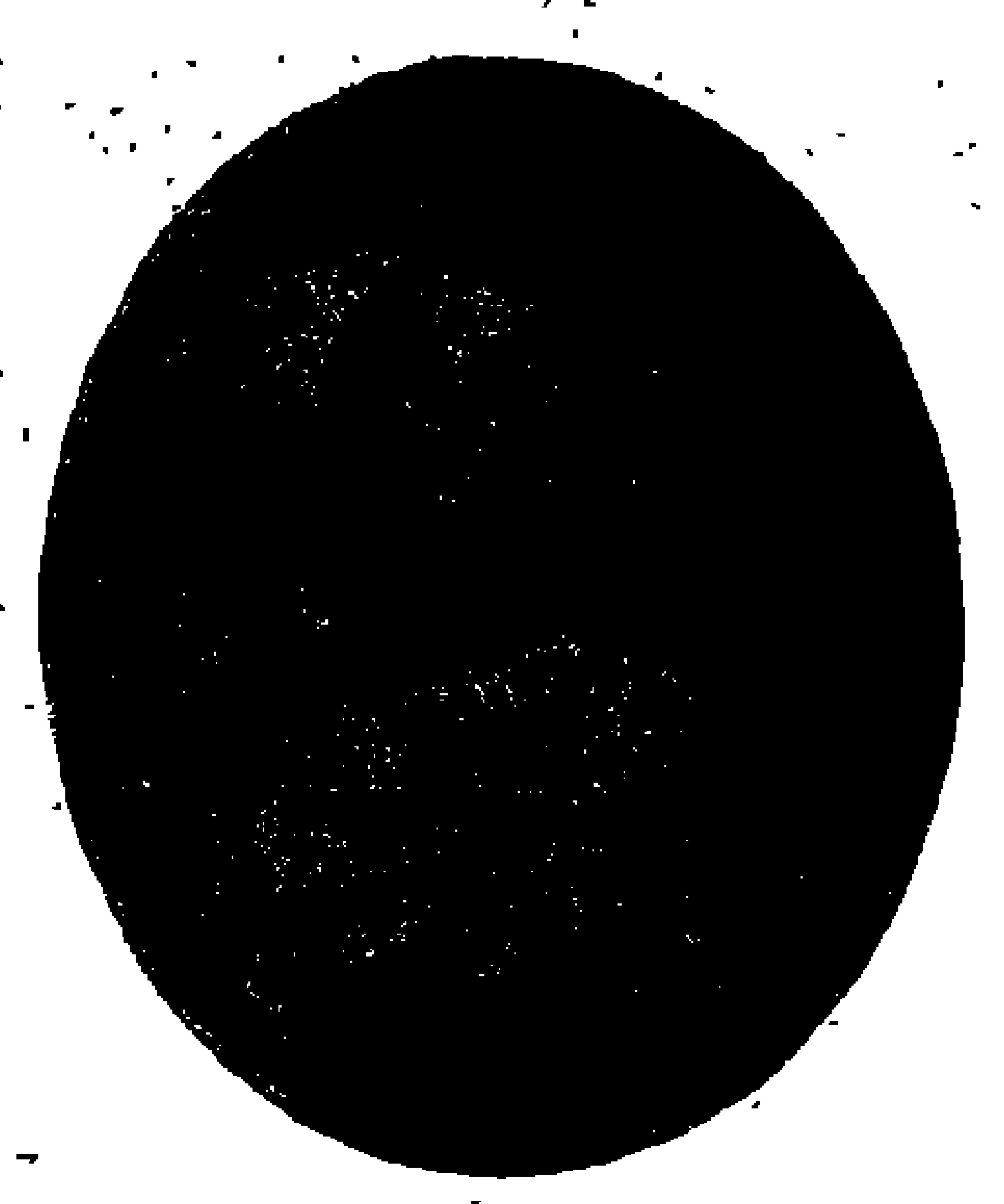
وذلك أن سانك مارس التقى في البلاط بالاميرة ماري دي جونزاج ابنة دوق نفرومانتوا فهام غراماً بها . وكانت ماري دي جونزاج فتاة رائعة الحسن ، وافرة الذكاء والظرف ، غير أنها لم تكن من أولئك الفتيات اللاتي يسلمن مصائرهن الى نزعات فؤادهن بل كانت فتاة كبيرة الاطماع ، تسعى في تحقيق مشاريعها وأطماعها دون الاكتراث لاهواء قلبها

وقد كانت تطمع بادىء بدء في الاقتران بجاستون دورليان أخي الملك ، فخاب ذلك الامل وتزوج الدوق دورليان بمرغريت دي لورين

فلما تقدم اليها سانك مارس وباح اليها بهواه ، وأعرب لها عن شديد رغبته في الاقتران بها لم ترده غير أنها أشارت اليه في رقة ولطف أنها لا تستطيع الاقتران به قبل أن يرفعه الملك الى رتبة الامارة

فبادر سانك مارس بالالتجاء الى ريشليه ، وكاشفه بمشروعه ، وطلب

اليه أن يساعده على نيل أمنيته بالسعي لدى الملك في منحه ما يطمح اليه من الالقاب ، فرده الكردينال بغلظة وخاطبه بشدة وقال له : « ما أنت الا سيد بسيط وضعت بالحظوة فلست أدري كيف تجرأ على التفكير في عقد مثل هذا القران ، بل لو كانت الاميرة ماري تفكر حقيقة في اجابة رغبتك لكانت اكثر حماقة منك »



الاميرة ماري دي جونزاج

فغادره سانك مارس ذاهلاً صعقاً ، وقد جرحت كبرياؤه ابلغ جرح ، وفاض قلبه على الكردينال غضباً ونقمة

وأصبح سانك مارس منذ ذلك اليوم عدو الكردينال الالد ، وخصيمه الذي لا تخمد اوار حقده ، ولا يخبو لهيب بغضه ، والذي لا يدخر وسعاً ولا وسيلة في الانتقام لعزته الجريح

وحدث أيضاً أن الملك أراد أن يعقد مجلس وزرائه ذات يوم ، وكان سانك مارس حاضراً ، فأعرب الملك لريشليه عن رغبته في أن يشترك

صديقه في المجلس قائلاً انه يريد بذلك أن يحمله على الاهتمام بشئون الدولة ليستطيع أن يحسن خدمته ، فلم يجب ريشليه بشيء غير أنه أحجم عن البحث في أمر من الامور الهامة ، فلما انتهى المجلس كاشف الملك بخطأ فكرته وأوضح له خطر اشتراك فتى في خفة سانك مارس وطيشه في شئون الدولة والوقوف على أسرارها ، فقدر الملك نصحه ومنع سانك مارس من حضور مجلسه مرة أخرى

فأدرك سانك مارس حقيقة الامر ، وذكا حقده على ريشليه ، واشتد ظمؤه الى الانتقام منه انتقاماً يتناسب مع الاهانات الشائنة التي يوجهها اليه من حين الى آخر

* * *

ومنذ تلك الساعة أصبح سانك مارس محور الدسائس التي يدبرها الاشراف في فرنسا ضد الوزير الاكبر

فتعرف في البلاط بادىء بدء بسيد أحدب يدعى المركيز دي فونتراي ، وكان أيضاً يحقد على ريشليه أمرّ حقد لانه أهانه ذات يوم ، ويسعى الى الانتقام منه

وقد اعتقد فونتراي أنه وجد في سانك مارس ضالته التي ينشدها للانتقام ، وآنس من نفوذه وبغضه وحقده عوناً له على مشروعه ، فأخذ يذكي ضرام بغضاء سانك مارس ويقنعه بأن الكردينال هو العقبة الوحيدة في سبيل زواجه بالاميرة دي جونزاج

وهكذا غدت ارادة سانك مارس صريعة تأثير غرامه وتحريضات ذلك السيد الماكر فما لبث أن اعتزم الائتمار بحياة الرجل الذي رعاه ورفعه

— ٣ —

وكان الدوق دي بويّون صاحب سيدان والدوق دي سواسون وهما من ألد اعداء الكردينال قد ائتمرا بمؤازرة اسبانيا بلويس الثالث عشر ووزيره ، ونشبت بين الفريقين حرب قتل فيها الدوق دي سواسون وهزم

حليفه غير أن ريشليه آثر العفو عن الثائر على أن تسقط سيدان في يد الاسبان

فرغب سانك مارس في الاتصال بالدوق دي بوبون وأوفد اليه صديقه الحميم منذ الحداثة دي تو المستشار بالبرلمان وكبير المكتبة الملكية ليعقد بينهما أواصر الصداقة والتحالف

. وكان دي تو من أذكى سادة عصره وأفصحهم بياناً فقام بالمهمة خير قيام ، ورحب الدوق دي بوبون بصداقة سانك مارس ، وعقد على جاهه ونفوذه آمالا كبيرة . ثم تقابلا وتفاهما

وقابل سانك مارسل أيضاً جاستون دورليان أخا الملك في أميان . وكان الدوق دورليان روح كثير من المؤامرات التي تدبر لاسقاط ريشليه سعياً الى اغتصاب العرش من أخيه . فحادثه سانك مارس ، ثم اجتمعا بالدوق دي بوبون والمركيز دي فونتراي وتباحث الاربعة في الوسائل التي تؤدي الى تحقيق غايتهم المشتركة . وكانت الوسيلة الناجعة في رأي فونتراي هي قتل الكردينال ، والظاهر أن سانك مارس لم يكن بعيداً عن ذلك الرأي غير أنه رأى أن يسعى في نفس الوقت من طريق آخر بأن يحاول عقد معاهدة مع اسبانيا . وانتهز فرصة مرض الملك ليخرج فكرته الى حيز الفعل ، فأنشأ مشروع معاهدة كتبه بخطه ونقحه الدوق دي بوبون ، ثم اجتمع الاربعة ووضعوا صيغته النهائية ، وكتبه سانك مارس بخطه ثانية

وخلاصة هـذا المشروع أن يتعهد الدوق دي بوبون بأن يمكن الاسبان من الدخول الى فرنسا من بلده المنيع سيدان ، وأن يتولى الدوق دورليان قيادة الجنود المتحدة ويسير على رأسها لمهاجمة الجيش الفرنسي ، وأن يمد ملك اسبانيا المتآمرين باثني عشرة الف رجل وخمسة آلاف جواد واربعمائة الف جنيه لانفاقها في اعداد الانصار والجند ، وأن يتناول الدوق دورليان من اسبانيا معاشاً سنوياً قدره مائة وعشرون الف جنيه ، وكل من المركيز سانك مارس والدوق دي بوبون أربعة آلاف جنيه. واتفق المتآمرون فيما بينهم أيضاً على أنه في حالة نجاح خطتهم يتولى سانك

مارس رآسة الوزارة مكان ريشليه ، وبذلك تصل اسبانيا الى عقد سلام تتوق الى نيله من زمن بعيد

وتعهد فونتراي بأن يحمل المعاهدة بنفسه الى مدريد ليمضيها من الدوق اوليفاريس رئيس الحكومة الاسبانية

***

وكان الملك يتهيأ في ذلك الحين للسفر الى روسيون ليباشر بنفسه حصار بربنيان مفتاح كاتالونيا احدى ولايات اسبانيا الشمالية وقد كانت فرنسا حينئذ في حرب مستمرة مع اسبانيا ، فغادر سان جرمان (مقر البلاط) في ٢٥ يناير سنة ١٦٤٢ وسافر معه الكردينال دي ريشليه بالرغم من مرضه محمولا فوق محفة

والتحق سانك مارس والدوق دورليان والدوق دي بويون على المقابلة في ليون

أما المركيز فونتراي فسافر خفية الى نافار ومنها الى اسبانيا وبعد جهد شديد نجح في حمل الدوق أوليفاريس على توقيع المعاهدة ، ثم عاد الى البرنيه حيث التقى بسانك مارس ودي تو في كاركاسون (قرقشونه) وسار معهما الى بربنيان

ويروى أن سانك مارس كان يتحين في ذلك الحين فرصة لقتل الكردينال وأنه كان يحمل في نطاقه خنجراً كبيراً كان يريه لاصدقائه ويقول لهم أن مشروعاً كبيراً يختمر في رأسه سيتحقق عاجلا . ولكن الظاهر أنه كان كثير الكلام قليل العمل وأنه كان يميل الى الادعاء والتفاخر لانه لم يعمل شيئاً ، بل سار مع الملك الى بربنيان ، وتخلف الكردينال في ناربون لشدة مرضه

وقد كان مرض الكردينال وتخلفه بتلك الصفة عن تدبير المهام والشئون داعياً الى ارتياع أنصاره فقد خشوا أن يؤدي نفوذ سانك مارس الى اسقاطه وادالة دولتهم ، واعتقد سانك مارس أنه قرب من غايته فازداد غروراً وصلفاً ، بل طيشاً وخفة ، وأخذ يبذر المال دون حساب

بين الضباط والجند مع أنه كان مثقلا بالدين ، ويجاهر بقرب سقوط الكردينال وذهاب دولته . وبلغ من نفوذه على الملك حينئذ أن الملك كان يؤثر آراءه ونصائحه على آراء الكردينال ونصائحه ، ودب الانقسام الى الضباط والجند فكان منهم أنصار الكردينال وأنصار سانك مارس .

ولكن سانك مارس لم يلبث أن تجاوز في غطرسته وطيشه وغروره كل حد ، فأخذ أنصاره في السخط عليه والانفضاض من حوله تباعاً ، بل لقد حملته الحماقة وسوء التدبير على أن يغامر بحظوته لدى الملك التي هي منشؤ رفعته ودعامة نفوذه وجاهه ، فما زال يتهاون في معاملته ، ويقصر في احترامه بل يقذفه اذا ما ابتعد عنه ، والملك يقف ما بين هذا وذاك على إساءاته اليه واهاناته له ، وما زالت تنشب بينهما المناقشات الحادة والمناظر العاصفة حتى بلغ الغضب بالملك ذات يوم أن حظر على سانك مارس الدخول عليه لمدة أيام ، فلما انتهى الخصام بينهما ، لم يعد لسانك مارس في قلب الملك تلك المنزلة الرفيعة ، وغاض من بينهما ذلك الصفاء الذي كان فيما مضى يوثق بينهما أواصر الحب والصداقة ، ويرفع رسوم الاحتجام والكلفة

— ٤ —

وقد كانت عين الكردينال ساهرة أيضاً ، ولم يمنعه مرضه وتخلفه في ناربون من ان يرقب حركات خصمه وسكناته ، وأن يحصي زلاته وحماقاته ، فما لبث أن نما اليه خبر المعاهدة السرية بطريقة غامضة ، كل ما عرفه منها هو أن فرنسياً عقد في مدريد معاهدة سرية مع الدوق أوليفاريس ، غير أنه أدرك بثاقب فكره أن سانك مارس ليس غريباً عنها وكذلك الدوق دورليان والدوق دي بويون

بل يظهر من جهة أخرى أن سر هذه المؤامرة لم يكن محوطاً بالكتمان الشديد لان الاميرة دي جونزاج كتبت في ذلك الحين الى سانك مارس تخبره أن سره قد ذاع في باريس، فارتاع المركيز دي فنتراي لذلك

وحاول أن يحمل سانك مارس على الفرار معه الى انجلترا . فأبى نصحه وفر المركيز وحده

وفي نفس الليلة التي فرّ فيها فونتراي أوفد الكردينال شافيني الى الملك فقدم اليه صورة المعاهدة السرية التي عقدها المتآمرون مع اسبانيا والتي توصل الكردينال الى الحصول عليها بطريقة لا نعلمها

وقد صعق الملك لقراءة هذه الوثيقة الهائلة ، ولم يشأ بادىء بدء أن يؤمن بخيانة سانك مارس حتى قيل أنه استدعاه ، وقدم اليه برهان خيانته وسأله عما اذا كان حقاً ما نسب اليه ، فسكت سانك مارس ، وكان السكوت أقطع حجة على ادانته ، وأن الملك سمح له بالانصراف من حضرته ولم يصدر أمره بالقبض عليه الا في اليوم التالي بناء على الحاح شافيني

وروى الفرد دي فيني في قصته البديعة « سانك مارس » أن سانك مارس تقدم الى الملك والكردينال طائعاً مختاراً وقدم سيفه الى الملك قائلا : انك تأنس يا مولاي صعوبة في القبض عليّ لان ورائي عشرون الف رجل ولكني أسلم لأني أريد الموت وليس لأني قد غلبت ، وان سانك مارس أراد الموت لانه علم أن الملكة أرغمت حبيبته الاميرة دي جونزاج على تركه وقبول خطبة ملك بولونيا

ولكن الحقيقة هي أن ماري دي جونزاج لم تقبل خطبة ملك بولونيا الا بعد اكتشاف خيانة سانك مارس وسجنه ، وأنها جزعت لخبر القبض عليه خشية أن تضبط رسائلها التي كتبتها اليه بين أوراقه ، فبذلت كل وسيلة لاسترداد هذه الرسائل ، وان اهتمامها بأمر محنته كان قاصراً على خوفها من التشهير والفضيحة

وان سانك مارس لم يتقدم لتسليم نفسه ، بل بالعكس حاول أن يفر قبل صدور الامر بالقبض عليه ، ولكنه ضبط مختفياً في منزل حقير في احدى ضواحي المدينة لانه لم يستطع مغادرتها نظراً لغلق الابواب وحراستها

أما دي تو فقبض عليه في منزله ، وأما الدوق دي بويون الذي كان يرافق جيش ايطاليا فقد أخطر في الوقت المناسب واختفى ، وأما الدوق

دورليان أخو الملك فقد ارتاع أيما ارتياع للقبض على شركائه وسعى الى أخيه في طلب العفو والمغفرة ، وتقدم الى الكردينال معتذراً نادماً ، معلناً استعداده لان يبوح بكل شيء وأن يغادر البلاد على أن تنقذ حياته

وهذا بالذات ما كان يسعى اليه الكردينال اذ نذكر أنه لم يكن لديه من دليل على المؤامرة سوى صورة بسيطة من المعاهدة لا قيمة لها في الاثبات ، ولذلك طلب الى الدوق دورليان أن يبعث اليه باعتراف مكتوب يشرح فيه تفاصيل المؤامرة ، وما قام به كل من المتهمين ، ووعده بأنه اذا « قام بما يجب للوصول الى معاقبة الجناة الذين أرادوا خراب الدولة ، فان الملك يسمح له ان يعيش في فرنسا عيشة فرد عادي »

فأذعن الدوق دورليان الى طلب الكردينال وقدم اليه في ١٦ يوليه سنة ١٦٤٢ اعترافاً كتابياً حوى كل تفاصيل المؤامرة وظروفها ، واشترى حياته وحريته بتلك النذالة

وافتدى الدوق دي بويون أيضاً نفسه بثمن غال هو مدينته سيدان فتنازل عنها للملك وغادرها ليعيش في فرنسا مع أسرته

* * *

أما سانك مارس ودي تو فقد استجوبهما الكردينال بنفسه في تاراسكون غير أنه لم يظفر منهما بكلمة اعتراف واحدة

فحادث الملك في تاراسكون قبل أن يغادرها الى باريس ، وكان الملك آسفاً لمحنة سانك مارس غير أنه فوض الامر الى وزيره في أن يسرع في اتمام المحاكمة ، وأن ينزل بالمتهمين عقاباً رادعاً لكل من يجرؤ على أن يتآمر على مليكه وأمته

فبادر ريشليه باتمام المهمة وقرر محاكمة المتهمين في مدينة ليون ، وانتدب المستشار سجييه لرآسة المحكمة الجنائية التي تقوم بنظر القضية . وألفت المحكمة من خمسة من مستشاري الدولة ، وسبعة من مستشاري برلمان جرينوبل ليكون مجموع أعضائها ثلاثة عشرة

وفي أثناء ذلك اقتاد الكردينال المتهمين بنفسه الى ليون بحراسة

فرقة قوية من الجند . ونحن نحيل القارىء الى قصة الفرد دي فيني البديعة [1] ليقرأ فيها وصف تلك الرحلة العجيبة ، وكيف أن ذلك الكردينال ذا العقل الراجح والارادة الصلبة لم تقعده متاعب الشيخوخة ولا آلام مرضه المبرح عن الاستمرار في العمل بنفسه والسفر طريحاً في فراشه في سفينة تخترق النهر ، والسهر على حراسة المتهمين اللذين يحملهما قارب غاص بالجند ألحق بسفينته

— ٥ —

وفي ٣ سبتمبر سنة ١٦٤٢ وصل ريشليه الى ليون ، وزج بالمتهمين الى قلعة بير أوسيز وشدد عليهما الحرس والرقابة

وفي صباح اليوم التالي بدأت لجنة من تسعة قضاة برآسة المستشار سجيه بالتحقيق فاستمر استجواب المتهمين عدة ساعات دون أن تفوز اللجنة منهما بطائل ، والواقع أنه اذا كانت اعترافات الدوق دورليان والدوق بويون تكفي لاحراج مركز سانك مارس فانها لم تكن كذلك بالنسبة لدي تو الذي لم تكتشف ضده قرينة ولم يقدم عليه دليل ، وقد كان من الضروري للحكم عليه بعقوبة الموت أن يثبت أنه كان عالماً بالمعاهدة ولم يبح بها . واذا كان الصمت يكفي في جريمة الخيانة والاعتداء على ذي الجلالة للحكم بالاعدام طبقاً لقانون أصدره لويس الحادي عشر وأريد تطبيقه على دي تو ، فانه يجب مع ذلك أن يثبت علم المتهم بجميع تفاصيل الجريمة وهو ما لم يسفر عنه التحقيق . ولذلك رفض المدعي العمومي بالرغم من ضغط ريشليه والحاحه أن يطلب عقوبة الاعدام في مثل هذه الحالة

فلجأ الكردينال عندئذ الى وسيلة شائنة ، وذلك أن عهد الى مستشار للدولة من رجاله وصنائعه يدعى لوباردمون — وهو شخص لا شرف ولا ذمام — أن يسعى في جمع الادلة اللازمة له . فقابل لوباردمون سانك مارس في سجنه وأفهمه أن الاعتراف الحقيقي الكامل في مثل حالته هو الوسيلة

(1) A. de Vigny. Cinq-Mars ou une Conjuration sous Louis XIII, Cahp· XXV

الوحيدة لنيل العفو ، وأن ليس ثمة لوم عليه في ذلك لأن الدوق دورليان والدوق دي بوبون قد اعترفا ، بل أن دي تو نفسه قد اتهمه واعترف عليه أيضاً (وهو كذب صراح) وانه من الحق ازاء هذه الظروف أن يلتزم هو بصمته مجاملة لم يبد زملاؤه نحوه شيئاً منها .

فبهت سانك مارس وذهل من أن دي تو الذي يثق باخلاصه وأمانته يقدم على خيانته ويعترف عليه ، وجازت عليه خديعة المستشار الشائنة ، وغلب عليه الاضطراب والانفعال ، واعتقد أنه يستطيع حقاً أن ينقذ حياته بالاعتراف والصراحة استناداً الى وعد الكردينال ، فذكر كل المساعي التي قام بها دي تو ليوثق الصلة بينه وبين الدوق بوبون ، وعلمه أخيراً بخبر المعاهدة حينما عاد بها فونتراي ممضاة من الدوق أوليفارس ، ثم كرر اعترافاته أمام المستشار بصفة رسمية ووقع عليها

وعندئذ استدعي دي تو وسئل عما كان اذا كان لديه ما يطعن به على سانك مارس ، فأجاب دون أن يشك لحظة واحدة في ما حدث من اعتراف سانك مارس عليه أنه لا يطعن عليه قط وانه بالعكس يعتبره رجل الوفاء والحق

فقرىء عليه اعتراف سانك مارس ، فصعق وكاد أن يكذب أذنيه والتفت الى صديقه وسأله وقد اشتد تأثره وانفعاله : أحقاً يا سيدي أنك قلت ما قرىء علي ؟

فذهل سانك مارس ولم يجب ، وأدرك في الحال أن لوباردمون قد خدعه وغرر به وان دي تو لم يعترف عليه قط

وأدرك دي تو أيضاً طرفاً من الحقيقة فاستسلم للقدر واعتزم أن يفوز بكرامته فخاطب قضاته بما يأتي :

« أيها السادة : كان في وسعي أن أنكر اطلاقاً أنني وقفت على شيء ، وما كان باستطاعتكم هزيمتي بالخديعة أو باعتراف المركيز دي سانك مارس ، فاني لم أكتب أو أحدث بالامر أحداً في العالم

« وليس لاقرار متهم على متهم آخر قيمة في الاثبات ، ولا يمكن الحكم بالموت الا بشهادة شاهدين ذوي عدل

« خياني وموني ، وأداني وبراءني ، معلقة على كلمة مني

« ومع ذلك فاني أعترف أيها السادة أني علمت بالمؤامرة : أعترف بذلك لانني استطعت خلال ثلاثة أشهر قضيتها في السجن أن أزن الحياة والموت جيداً ، حتى اقتنعت بأنني لن أستطيع أن أحيا سوى حياة نكدة سوداء ، وان الموت خير منها بكثير ، وأنه أوضح نقطة في صحيفة قدري . فأنا على أهبة لان أموت اذاً ولم أكن قط أكثر رغبة في الموت



دي تو

« واذاً فلست أريد أن تضيع هذه الفرصة التي أستطيع أن أظفر فيها بسلام روحي ، واذا كانت جريمتي معاقباً عليها بالموت فانها ليست سوداء وليست فظيعة

« أعترف أيها السادة بأني علمت بالمؤامرة واني بذلت كل ما أستطيع لاقنع المركيز سانك مارس بالعدول عنها

« وقد اعتقد أني صديقه المخلص الوحيد ، فلم أقدم على خيانته ، ومن أجل ذلك أراني أستحق الموت »

ألقى دي تو كلمته بحماسة وثبات ، فساد الدهش على قضاته ، ولم يتمالكوا أنفسهم من الاعجاب برجل يلقي بنفسه الى براثن الموت بمثل اقدامه وشجاعته

وهكذا أفلح لوباردمون في مهمته وتم ما أراد الكردينال ، فلم يجد المدعي العمومي بدأً من أن يطلب عقوبة الاعدام بالنسبة لسانك مارس ودي تو معاً

وقد صدر الحكم باعدام سانك مارس باجماع القضاة ولكن حدث بالنسبة الى دي تو خلاف شديد في الرأي . على ان الرئيس سجيبه بذل كل ما أوتي من منطق وذلاقة في اقناع زملائه وانتهت المناقشة بأن صدر الحكم باعدام دي تو أيضاً بأغلبية أحدى عشر صوتاً ضد صوتين فقط

ونحن نورد نص هـذا الحكم ، لنقدم الى القارىء نموذجاً من الاجراءات الجنائية الفرنسية في عهد لويس الثالث عشر :

« ما بين النائب العام للملك ، بوصفه مدعياً في جريمة اعتداء على ذي الجلالة طرف أول

« وبين السيد هنري كفييه دي سانك مارس كبير الركائب الملكية وعمره اثنان وعشرون سنة ، وفرانسوا أوجست دي تو ، مستشار الملك وعمره خمس وثلاثون سنة ، كلاهما سجين في قلعة بير أوسيز في ليون ، بوصفهما مدعى عليهما ومتهمين طرف ثان

« بعد الاطلاع على أوراق القضية التي حققت بصفة غير عادية بناء على طلب النائب العام للملك ضد المذكورين ، كفييه ودي تو ، وعلى ما ورد من أخبار وتحقيقات ، واعترافات وانكارات ، ومواجهات ، وبعد الاطلاع على صور معترف بها من المعاهدة التي عقدت مع اسبانيا ، وعلى قرارات الغرفة المنتدبة :

« (١) من أن كل من يعتدي على شخص الوزراء والامراء يعتبر طبقاً للقوانين القديمة ودساتير الامبراطرة مرتكباً لجريمة الاعتداء على ذي الجلالة

« (٢) وأنه طبقاً للقانون الثالث الذي اصدره الملك لويس الحادي عشر توقع عقوبة الاعدام على كل من لا يبوح بسر مؤامرة تدبر ضد الدولة ·

« قرر المستشارون المنتدبون من قبل جلالته أن المذكورين كفييه ودي تو قد ارتكبا وثبتت عليهما جريمة الاعتداء على ذي الجلالة لان اولهما وهو كفييه دي سانك مارس قد دبر المؤامرات والاجتماعات والمعاهدات مع الاجانب ضد الدولة ، ولان ثانيهما دي تو قد علم بالوقائع المذكورة

« وأمروا عقاباً لهما على الجرائم المذكورة بتجريدهما من كل شرف ولقب ، وحكموا ويحكمون عليهما بقطع الرأس على نطع يقام لذلك الغرض في ميدان تيرو في تلك المدينة

« وقرروا ويقررون أن يصادر كل ما يملكان من منقول وعقار لحساب الملك ، وأن يضاف ما امتلكاه من التاج مباشرة الى أملاك التاج ، وأن يؤخذ مما امتلكاه قبل ذلك مبلغ ستين ألف جنيه للاعمال الخيرية »

وتلي الحكم على المتهمين على أثر صدوره ، وكان دي تو يصغي اليه جاثياً مكشوف الرأس طبقاً للاوامر ، أما سانك مارس فلم يخضع للامر بل ظل واقفاً ولم يجسر انسان على ارغامه . فلما أتم الكاتب تلاوة الحكم صاح دي تو : شكراً لله ! وقال سانك مارس بثبات : ما روعني الموت قط

وكان الكردينال قد غادر ليون صباح يوم المحاكمة ، فلحق به في الطريق رسول الرئيس سجبيه يحمل اليه نبأ الحكم الذي يتمنى ، وأبلغ في نفس الوقت نبأ سقوط بربنيان ، فارقت اسرته ولاحت على وجهه امارات السرور والبشر وكتب الى الملك لويس الثالث عشر ما يأتي :

« مولاي ! لقد مات أعداؤك وملكت بربنيان »

— ٦ —

وتقرر أن يكون تنفيذ الحكم في نفس هذا اليوم — ١٢ سبتمبر سنة ١٦٤٢ — عند مغيب الشمس

وكان ثبات المتهمين بعد الحكم عليهما أشد ما يدعو الى الاعجاب ، بل كان آية من آيات الشجاعة والبسالة

اندفع سانك مارس الى ذراعي دي تو وطلب اليه الصفح وتعانق الصديقان بحرارة وتأثر

وطلب دي تو الى وصيف أخته الذي أرسلته ليودعه بالنيابة عنها أن يبلغها أنه قد عرف أن العالم ليس الا أكذوبة وفتنة وأنه يموت راضياً بقضاء الله

وكتب سانك مارس الى أمه خطاباً أخيراً يودعها فيه ويطلب اليها الصفح ويؤكد لها حبه وخضوعه وعميق شكره

ثم استسلم كل منهما الى كاهنه ليعترف

ولما أذنت الشمس بالمغيب ودنت الساعة، أخذ المحكوم عليهما واركبا مع الكاهنين عربة مكشوفة سارت بهما الى ميدان تيرو يتقدمهما الحرس الملكي

وكانت الطرق غاصة بالجموع المحتشدة وقد اصطف الجند على الجانبين ليؤدوا التحية الاخيرة الى « كبير الركائب الملكية »

وكان سانك مارس يرتدي ثياب البلاط الفاخرة ويحيي جموع الشعب بذلك الظرف الذي كان يخلب لب كل من عرفه او اقترب منه

اما دي تو فكان يرتدي ثياباً بسيطة سوداء

ولما وصل الموكب الى ميدان تيرو حيث أقيمت معدات الموت ، أصعد سانك مارس الى النطع أولا ، فصعد اليه بقدم ثابتة ، وأشرف من فوقه على الشعب هادئاً ، رابط الجأش . ثم خلع صديريته وسلم الى كاهنه الاب مالاقاليت علبة صغيرة مرصعة بالماس قائلا له أن بها صورة سيدة كان يهواها وطلب اليه أن يحرقها مع خصلة من شعره

ثم تناول الصليب من كاهنه وقبله بحرارة ، ورفض أن تحجب عيناه

ولما هوى سيف الجلاد على عنق سانك مارس صاح الشعب ارتياعاً وعلم دي تو أن دوره قد أتى . فصعد الى النطع الملطخ بدم صديقه ، ثابت الجنان والجأش ، وهو يصلي بحرارة ، وطلب ان تحجب عيناه لان رؤيته لجثة صديقه تبعث اليه الاضطراب والتأثر

غير أنه حافظ على ثباته وشجاعته حتى آخر لحظة

واليك ما كتبه مشاهد لتلك المأساة المؤلمة : « لقد رأينا صديق أعظم الملوك وأعدلهم تقطع رأسه على النطع في سن الثانية والعشرين بشجاعة نكاد لا نجد لها مثيلا في تاريخنا ، ورأينا مستشاراً للدولة يموت كما يموت الشهداء لارتكابهما جريمة لا يستطيع الناس اغتفارها دون خرق للعدالة

« ليس في العالم انسان يعلم ائتمارهما بالدولة لا يقضي عليهما بالموت ، وقليل من الناس ممن يعرفون ظروفهما وخلالهما الرفيعة لا يأسون لمحنتهما

« وفي وسعنا دون أن نخرق العدالة أن نذم جرمهما ، وأن نمتدح ندمهما »

* * *

كانت هذه المأساة مستقى خصيباً لاقلام عدة من أمراء الخيال الفرنسي مثل اسكندر دماس والفرد دي فيني مزجوا التاريخ بالقصة والغرام بالسياسة ، وصوروا سانك مارس بطلا للحب والتضحية

غير أنك قلما تجد قصصياً من هؤلاء ، ولن تجد بالاخص مؤرخاً يتحرى الوقائع الصادقة ويحكم قواعد الاخلاق والسياسة يذم حكم القضاء في تلك القضية الشهيرة ، أو يحمل على تصرف لويس الثالث عشر

واذا كان ثمة من يذم تصرف الوزير العظيم ريشليه مؤسس فرنسا الحديثة ، فان له من غايته السامية ، واخلاصه لمليكه ووطنه أقوى وأعدل مبرر

لقد كان ريشليه صارماً ، شديد الوطأة ، ولكنه كان يعمل لعظمة فرنسا ، وما كانت له في جميع اعماله قبلة سواها ، بل لقد كان جوابه وهو على فراش الموت بعد وقوع هذه المأساة بثلاثة اشهر حينما طلب اليه ان يصفح عن اعدائه : « ما كان لي اعداء قط غير اعداء فرنسا ! »

وكفى هذا الوزير فخراً انه شرّف الآداب بانشاء الاكاديمية الفرنسية ، التي يعتبر وسامها اليوم أثمن حلية في تاج البطولة الادبية

المركيزة دي برانفلييه

او

مأساة السموم

سنة ١٦٧٦

— ١ —

اذا كان عهد لويس الرابع عشر أمجد عصور التاريخ الفرنسي ، عصر كولبير وباسكال وكورني وراسين ولافونتين وموليير ، فهو ايضاً عصر السلطان المطلق ، وطغيان الطبقات ، وذلة الشعب ، واضطهاد الفكر ، وانحلال الاخلاق : هو عهد الملك القائل « انا الدولة » والعهد الذي سطع فيه بهاء بلاط استطاع ان يعيد سيرة القصور الرومانية بما احتوته من بطش واثرة ، ومكائد وفضائح ، هو العهد الذي غص فيه الباستيل بالابرياء

لسنا ننتقص من عظمة ذلك العصر الزاهر ، ولكن الانحلال الخلقي ، واطلاق العناصر السيئة ، والشهوات السافلة ، والاغراق في الترف ، ظواهر محتومة تتسرب الى كل مجتمع تسمو فيه آيات العظمة ، وتزدهر الحضارة . كثيراً ما تتمخض هاته البيئات ذات الجانب الخلاب والجانب المظلم معاً عن حوادث هائلة تعتبر بحق مفاجآت مؤلمة للانسانية

ومن أروع هذه المفاجآت ما سنقصه عليك في هذه السيرة ، ونحن انما نقص الحقائق التاريخية منزهة عن شوائب الخيال والمبالغة

***

في سنة ١٦٦٥ قبضت شرطة الملك على الشفالييه جودان دي سانت كروا بينما كان يجوب شوارع باريس مع خليلته المركيزة دي برانفلييه في عربة مقفلة ، ثم زج الى سجن الباستيل

ولم يكن الشفاليه متهماً بارتكاب جرم معين قبض عليه من أجله ، ولكنه اعتقل بناء على احدى الرقاع المعروفة « باللتر دي كاشيه »(١)

وكان سانت كروا في ذلك الحين فتى في نحو الثلاثين من عمره ، جميل القد والمحيا ، يتألق البشر في وجهه ، جم السرور والطرب ، مولعاً باللهو والمجون ، وافر الاسراف والكرم ، شديد الحب والغيرة . ولم يكن له أصل معروف في النبل أو ثروة معينة تسمح له بأن ينفق بمثل سعته وبذخه وأن يغرق فيما كان مغرقاً فيه من اللهو والطرب ، فكان البعض يقول انه ولد غير شرعي لسيد كبير ، والبعض الآخر أنه ولد أبوين فقيرين ، غير أنه آثر العار المتوج بمراسم النبل على الظلام والعدم فادعى ما لم يكنه . وكل ما هو مؤكد عنه أنه ولد في قرية مونتوبان وأنه انتظم في خدمه الجيش وتدرج في مناصبه حتى صار في العصر التي تتحدث عنه ضابطاً برتبة قبطان في فرقة تراسي

أما ظروف القبض عليه فهي أنه حوالي سنة ١٦٦٠ تعرف بالمركيز دي برانفليه ، قائد معسكر نورمندي أثناء ان كان يعمل تحت لوائه ، وكان التقارب بينهما في السن ، والتماثل في الصفات والاخلاق ، سبباً في تقوية عرى الصداقة بينهما ، فلما عاد من الجيش الى باريس قدم المركيز صديقه سانت كروا الى زوجته الحسناء

وكانت المركيزة دي برانفليه ـ اوماري مادلين دوبري ـ ابنة المسيو انتوان دريه دوبري الذي كان محافظاً لسجن الشاتليه ، وكان له ابنة أخرى وولدين

وفي سنة ١٦٥١ تزوجت ماري مادلين دوبري من المركيز دي برانفليه فحملت اليه مهراً قدره مائتي الف جنيه فوق ثروته الطائلة التي يربو ريعها على ثلاثين الف جنيه

---

(١) هي رقاع كانت تحمل أمر الملك بالقبض اوالسجن اوالنفي ويمهرها بخاتمه ، ولا يعين فيها اسم من تصدر ضدهم هذه الاوامر ، وكان يحصل عليها ذوو النفوذ في البلاط ، ويشتريها ذوو اليسار ، ويستعملونها في النكاية بخصومهم

وكانت ماري مادلين فتاة وثابة العواطف ، مضطرمة المشاعر ، ملتهبة الميول ، ثائرة النزعات ، لم يحسن أباها تربيتها الخلقية والدينية ، بالرغم من مكانة أسرته ، فنشأت كما تهوى وأطلقت العنان لاهوائها وشهواتها العاصفة

وكانت وقت أن قدم اليها زوجها صديقه الشفاليه سانت كروا في الثامنة والعشرين ، في ريعان جمالها ، حسناء ساحرة الملامح والقد . وكانت بالرغم من طبيعتها المضطرمة جامدة المحيا وافرة الهدوء والسكينة ، تستطيع أن تضبط عواطفها بمهارة فائقة

وقد أسفرت صداقة المركيز وسانت كروا عن النتيجة الطبيعية فسرى الى المركيزة والشفاليه منذ اللقاء الاول عطف متبادل لم يلبث أن تحول الى هيام مبرح ، ثم غدت المركيزة خليلة للشفاليه

وسواء أوقف المركيز على سر هـذه العلائق وأغضى عنها متأثراً بالروح الفلسفية التي كانت ظاهرة للحياة الزوجيـة في ذلك العصر أو لم يقف عليها لان الملاهي التي كان منكباً على خوض غمارها لم تترك له متسعاً لدرسها فانه لم يثر من ضروب غيرته صخاباً في سبيل توثقها ، بل استمر غارقاً في بحار لهوه وفجوره غير مشفق على ثروته حتى اضطربت أحواله ودب الجفاء بينه وبين المركيزة التي كانت تضطرم جوانحها بنار غرامها الجديد . ثم حصلت الفرقة بينهما ، فهجرت المركيزة منزل الزوجيـة واستسلمت بروحها وجسدها الى سانت كروا ، وظهرت معه علناً في كل مكان

غير أن المسيو دوبري راعه سلوك ابنته وسقوطها الى ذلك الدرك فبادر بالحصول على رقعة من رقاع « اللتر دي كاشيه » صرح فيها بالقبض على سانت كروا أينما وأنى وجد ، فقبضت عليه شرطة الملك كما رأينا وهو يتنزه مع خليلته

* * *

زج سانت كروا الى الباستيل وهو يعوج يومئذ بفرائسه ، وأودع غرفة كان زميله فيها رجل نحيف ، طويل الشعر ، شاحب اللون ، فتعارف الاسيران ، وكان ذلك الزميل يدعى اكسيلي

فمن هو ذلك الرجل ؟ وما الذي أودى به الى ظلمات الباستيل ؟

لم يكن إكسيلي اسماً خاملا أو نكرة ، بل كان علماً طائر الصيت ، كان إكسيلي كيمائياً ايطالياً بارعاً ، ولكنه اختص ببراعته الجانب الاسود من مهنته ، فانكب على درس السموم وخواصها ومؤثراتها حتى غدا اسمه قرين الموت في ايطاليا . وحدثت في رومة عدة وفيات اشتبهت في امرها السلطات ولكنها لم تظفر بالادلة على الجناية فاتجه ريبها الى إكسيلي فنفته من رومة ، فذهب الى باريس ولم يلبث أيضاً أن أثار شكوك السلطات هنالك غير أنها لم تظفر ايضاً بالادلة على اجرامه ، فقبضت عليه وزجته الى الباستيل

وكان قد مضى على إكسيلي ستة أشهر في سجنه قبل ان يفد عليه سانت كروا ، فتعارف الرجلان وتفاهما ، وقوت بينهما الشدائد وأغلال الاسر أواصر الصداقة والحب ، وأراد إكسيلي ان يقدم الى زميله في الاسر برهاناً على اخلاصه فعرض أن يقفه على أسرار سمومه الرائعة وطرق تركيبها واستعمالها ، فقبل سانت كروا ووجد في تعلم تلك الاسرار الخفية لذة لم تلبث أن تحولت الى شغف هائل ، فعكف بالنهار والليل على درس تعاليم إكسيلي وتجاربه حتى غدا قرينه في المهارة والبراعة

ثم خرج سانت كروا من الباستيل بعد أن قضى فيه عاماً أسود ، ونفسه ثائرة على المجتمع ، وجوانحه تضطرم بنار البغض والانتقام ، غير أنه خرج وفي يده سلاح هائل يستطيع أن يخضعه لنقمته في أمن وخفاء

هذا ما ترويه بعض التواريخ عن الظروف التي درس فيها سانت كروا أسرار السموم ، ويقول بعضها الآخر أن سانت كروا تلقى علمه عن كيمائي سويسري شهير يدعى خريستوف جلازر ، وكان صيدلياً للملك وله معمل للتجارب الكيميائية في ضاحية سان جرمان ، وكان صديقاً حميماً لسانت كروا . والظاهر ان سانت كروا تلقى علومه وبراعته عن إكسيلي وجلازر معاً

— ٢ —

وما كاد سانت كروا يخرج من سجنه حتى استأنف العاشقان علاقتهما ، غير انهما خشيا أن يعيد المسيو دوبري الكرة عليهما فاحتاطا لان يكون أول فريسة لسلاحهما الجديد وبذلك ينتقم سانت كروا لنفسه ، وتتخلص المركيزة من الرقابة ، وتصلح بالميراث ما أفسدت بتهتكها وسفهها

تأهب سانت كروا سلاحه الهائل ، وكان المسيو دوبري قد انهكه المرض والعناء في ذلك الحين فعول على أن يقضي اجازته في قصره في اوفمون ، فعرضت عليه ابنته المركيزة أن تصحبه الى هنالك ، وكان يعتقد أنها قد قطعت علاقتها مع سانت كروا فقبل صحبتها مسروراً ، وسافرا الى اوفمون في ضاحية كمبياني

وهنا التجأت المركيزة الى قناع محياها الهائل واستجدت بذينك الجمود وضبط النفس اللذين قلنا أنهما يسبغان على ملامحها الوداعة والهدوء مهما كان من اضطرابها وثورة نفسها : بذلك القناع الهائل كانت تغدق على أبيها مظاهر الاخلاص والاشفاق والعطف بينما كانت تتحين في نفس الوقت فرصة لتنفيذ مشروعها الفظيع

وسنحت الفرصة وقدمت المركيزة الكأس المسموم الى أبيها ذات مساء وراقبته اذ رفعه الى شفتيه ثم تجرعه ، ولم ترتسم على وجهها بادرة من الجزع الذي كان يمزق فؤادها

ثم أعادت الكرة واستمرت تقدم السم الى أبيها جرعات صغيرة وتراقب فعله فيه بهدوء وثبات

وكان المسيو دوبري يشعر بالتهاب شديد في الاحشاء ويغلبه القيء من وقت لآخر غير أن الطبيب الذي استدعي لفحصه لم يخامره أدنى ريب في الحقيقة الهائلة واستمر يصف له دواء لا خير فيه

فلما اشتدت الحال على العليل بادر بالعودة الى باريس عملا باشارة ابنته حيث تتوفر وسائل العلاج والعناية ولكن المركيزة كانت تقصد من

المودة أن تبتعد عن مسرح الحادث حيث شاهد الطبيب الاعراض الاولى ومن ثم تنقطع أوصال المشاهدة والبحث

وفي وسع القارىء أن يقدر ما كانت تنطوي عليه طبيعة تلك المرأة الهائلة من عناصر الاجرام والعزم متى علم أنها اعترفت أثناء محاكمتها فيما بعد أنها اضطرت أن تسمم أباها نحو ثلاثين مرة . وفي ذلك تقول مدام سفينيه أشهر كاتبة في ذلك العصر : « ان أروع الجرائم تعتبر أموراً تافهة بالقياس الى عمل تلك التي تلبث ثمانية أشهر تعتزم قتل أبيها ، ولا تقابل كل عطفه وملاطفاته الا بمضاعفة الجرعة ! »

لبث المسيو دوبري بضعة أيام تتقاذفه آلام الموت والمركيزة الى جانبه لا تفارقه لحظة واحدة ، ثم أسلم روحه بين ذراعي ابنته وهو يبارك تلك التي قتلته . وكانت المركيزة أشد أولاده وجداً على فقده

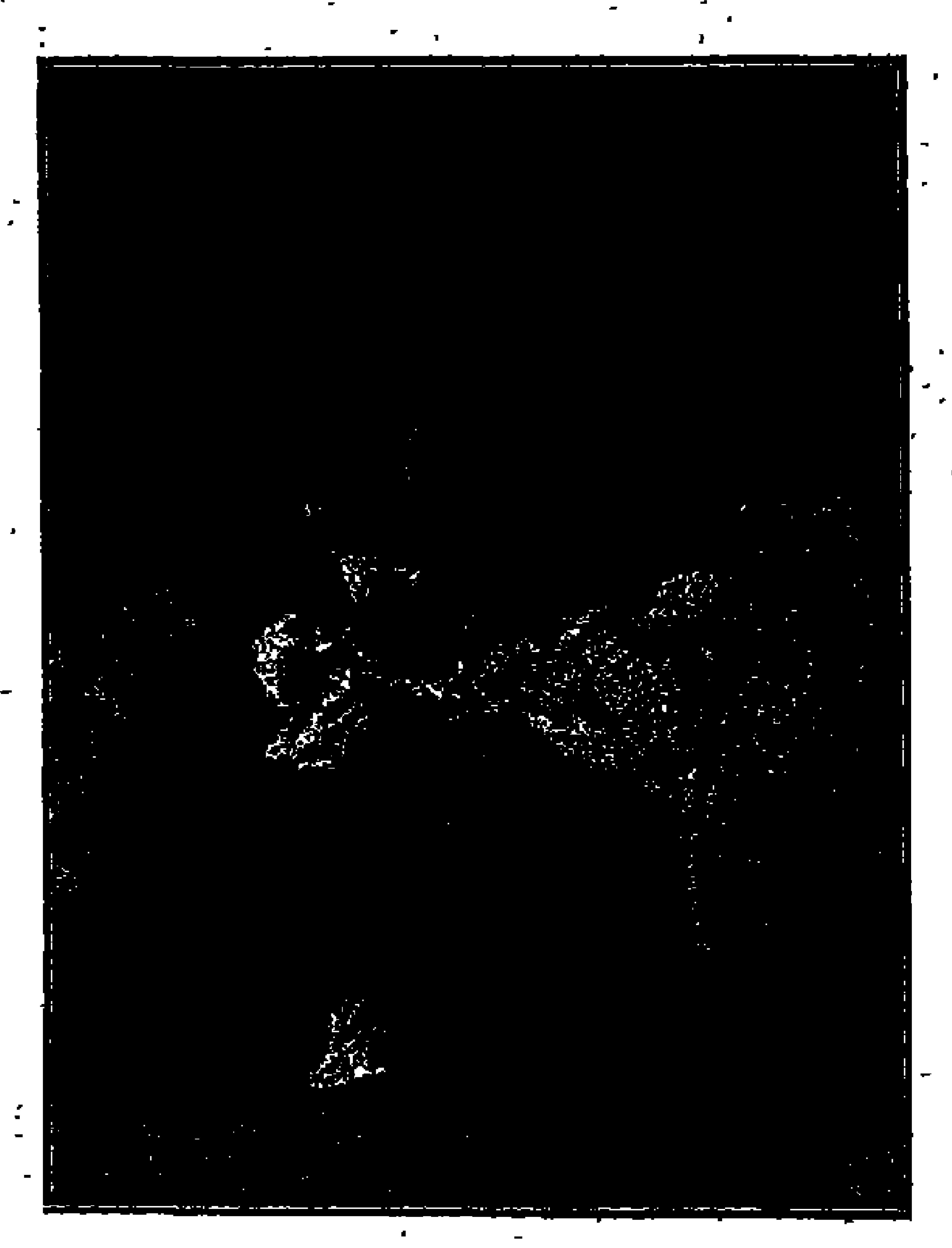
وطارت الاشاعة بأنه قد مات مسموماً غير أن الاطباء الذين فحصوا جثته لم يجدوا ما يدعو الى الريب فنسبوا الموت الى أسباب طبيعية

***

وكان سانت كروا في ذلك الحين غارقاً في لهوه ومجونه يعيش في بذخ لا يعلم مصدره أحد . أما البسطاء فكانوا يقولون انه اكتشف أسرار الاكسير الذهبي

غير أنه كان في الواقع يؤدي أعمالا أخرى فقد كانت له علائق كثيرة بكبار النبلاء والاغنياء ذوي المشاريع والمطامع . مثال ذلك أنه كان صديقاً حميماً لشخص من كبار الاغنياء يدعى بنوتييه وهو المحصل العام لخزينة الكنيسة . وكان لبنوتييه شريك في أعماله ومصالحه يدعى دالبير . فتوفي دالبير ذات يوم فجأة ، واختفت المستندات المثبتة للشركة ونكبت بذلك أرملته وأولاده . فارتاب صهر له يدعى مجدلين في أمر وفاته وأخذ يجري بعض المباحث للوقوف على الحقيقة ولكنه توفي أثناء مباحثه فجأة . فكان أولئك الذين لا يعتقدون في السيماء يقولون أن سانت كروا وبنوتييه يزاولان معاً صفقات رابحة

أما المركيزة فانها لما انتهت فترة الحداد على أبيها استأنفت علائقها مع خليلها ، وأمعنت في تهتكها وفجورها بأشد من ذي قبل، فغضب لسلوكها الشائن أخواها ، ونقلت اليها أختها الصغرى وكانت لا تزال تتعلم في دير الكرمليت لومهما واستياءهما



المركيزة دي برانفلييه
تجرب سمومها في المرضى

وكان أكبر الاخوين قد خلف أباه في منصبه والآخر محامياً لدى البرلمان ، وكانا قد استوليا بالوراثة على معظم تركة أبيهما ولم تنل المركيزة منها الا جزءاً يسيراً

قرأت المركيزة أنها لم تتخلص بقتل أبيها من الرقابة ، ولم تحظ بما كانت تطمح اليه من الثروة . وشجعها نجاحها في الجريمة الاولى على أن تفكر في ارتكاب جريمة ثانية

غير أنها لم تشأ أن تنفذ بنفسها في تلك المرة ـ وسنرى أن هذه أكبر غلطة أدت الى هلاكها ـ فاستعانت بوصيف لخليلها يدعى « لاشوسيه » استطاعت أن تدخله في خدمة أخويها وكانا يقيمان في منزل واحد

كذلك خشيت أن تستعمل في تلك المرة سماً سريع الأثر كالذي أودى بحياة أبيها فأمدها خليلها بسم بطيء الأثر . ولكنها أرادت قبل استعماله أن تجربه بنفسها تجربة مقنعة

ومن غرائب الظروف أن تلك المرأة الهائلة كانت برغم تهتكها واجرامها تعرف بالاحسان والبر ، وكثيراً ما كانت تزور المستشفيات لتواسي المرضى ولكن أي مؤاساة ! فانها كانت تحمل الموت الزؤام الى أولئك التعساء : كانت تقدم اليهم الفاكهة والاشربة ممزوجة بسمها النقيع ، ثم تعودهم لترى فعل السم فيهم وتراقب سيره وآثاره ، وتحادث الاطباء الذين يتولون معالجتهم لترى رأيهم ومبلغ وقوفهم على الحقيقة

وقد كانت تجاربها باهرة تبعث على أشد الاطمئنان والامن اذ كانت الفرائس تهلك واحدة بعد أخرى دون أن يهتدي أحد من الاطباء الى الحقيقة أو يخالجه أدنى ريب

فلما ان المركيزة دفعت الى منزل أخويها بوصيف لخليلها ليكون رسول الموت اليهما ، وكان ذلك الوصيف ـ لاشوسيه ـ وغداً سافلا لا يحجم عن ارتكاب منكر ، فدخل في خدمة السيدين وأخذ يتربص الفرص لتنفيذ مهمته الفظيعة ، ويدس السم من وقت لآخر الى الاخين في ما يحمله اليهما من الطعام والشراب ، فما لبثا حتى مرضا وأصابتهما آلام شديدة في الاحشاء وأخذا في الهزال والسقم ، وأخذ القيء يصيبهما من وقت لآخر .

ولبثا على تلك الحال شهرين يصارعان الموت دون أن ينجع في شفائهما دواء ، وأشكل الامر على جميع الاطباء واشتدت حيرتهم ،

واعتقدوا في النهاية من الشبه بين أعراض مرضهما واعراض مرض والدهما أن الامر يتعلق بمرض وراثي

ثم ساءت حال الاخ الاكبر فجأة وقضى نحبه في ١٧ يونيه سنة ١٦٧٠ بعد أن لبث يعاني عذاب السم اثنين وسبعين يوماً

فثارت حول موته بعض الشكوك وشرحت جثته بصفة رسمية بمعرفة عدد من مهرة الجراحين ، فوجدوا سواداً في المعدة وقروحاً في الكبد مما يتخلف عن فعل السم عادة ، وكذلك مما يتخلف عن أثر عوامل أخرى ، ولذلك لم يجرؤوا على أن يؤكدوا ريبهم فقرروا أن الوفاة طبيعية

اما الاخ الاصغر وهو المحامي فلبث يعاني آلام المرض بعد أخيه ثلاثة أشهر أخرى ثم تبعه الى القبر . وثارت حول وفاته الشكوك أيضاً فشرحت جثته كما شرحت جثة أخيه ووجدت بها نفس الاعراض ولكن الاطباء قرروا أيضاً ان الوفاة طبيعية بالرغم مما ساورهم من الريب والحيرة

وهكذا أخفقت جميع المباحث وعميت جميع الابصار عن الفاعلين بالرغم مما ساد على الاندية والجماعات من الروع والدهشة لتوالي تلك الفواجع المؤلمة في أسرة واحدة ، وبالرغم مما كان يذاع من الاقاويل ويثار من الشكوك

أما المركيزة فبدأت الحداد على أخويها ، وأما لاشوسيه فلم يرتب في أمره احد بل كافأه سيداه اللذان عذبهما في وصيتهما بمائة جنيه مكافأة له على اخلاصه في خدمتهما والعناية بهما ، وأما سانت كروا فلبث منصرفاً الى لهوه وبذخه

* * *

ولكي يستطيع القارئ ان يقدر هول ذلك السلاح الرائع الذي تستخدمه المركيزة وخليلها ، ولكي لا يدهش ايضاً من خفائه وتعثر الاطباء في الاهتداء الى آثاره نقول ان سموم سانت كروا التي ضبطت عقب وفاته كما سنقص بعد قدمت الى الخبراء للفحص والتحليل ، فحللت وجربت في الطيور والحيوانات فكانت تموت على الاثر ، وكانت الاعراض

والنتائج واحدة دائماً . وكان من دهشة الاطباء والخبراء ان التشريح لم يثبت اثراً للسم في أحشاء الحيوانات الميتة ، وكذلك لم تسفر أية تجارب أخرى عن النجاح .

واليك نتيجة التقرير الذي وُضع عن صفات هذا السم : « ان هذا السم الصناعي يفر امام المباحث التي يراد اجراؤها فيه ، وهو من الخفاء بحيث يتعذر اكتشافه ، ومن النفاذ بحيث يفلت من مهارة الاطباء ، ويكذب كل تجربة تجري بشأنه ، ويخطىء كل قاعدة تطبق عليه

« ان أصح التجارب وأعمها تجري بواسطة الماء والنار وفي الحيوانات ، ولكن سم سانت كروا قد جاز كل تجربة وهزأ بكل اختبار ، فهو يعوم فوق الماء ، ويفر من تجربة النار ولا يترك الا مادة لطيفة بريئة . أما في الحيوانات فيختفي بحذق بحيث تستحيل معرفته »

ونحن نعرف اليوم ان ذلك السم الخفي لم يكن سوى الزرنيخ وقد اكتشفه قبل ذلك بعدة اعوام كريستوف جلازر وهو صيدلي سويسري بارع ، وكان كما قدمنا صديقاً لسانت كروا . وقد يكون هو بعينه ذلك السم الخفي الذي كان يستعمله آل بورجيا والذي روعوا به مدينة رومه حيناً من الدهر .

ولم يكن قد عرفه الاطباء في ذلك الحين ، ومن ثم كان عجزهم عن الاهتداء الى آثاره . ومن ذلك نرى انه كان سلاحاً هائلا بيد الجناة يضمن بخفائه فرارهم من العقاب

— ٣ —

وهكذا تم للمركيزة ما أرادت من قتل أبيها وأخويها والتنعم بما كانت تطمح اليه من المال والحرية .

غير أن حياتها دخلت من ذلك الحين في طور آخر ، ولسنا نقصد بذلك أنها بدأت تعاني وخز الضمير ومرارة الندم فان قلبها الصخري كان خليقاً بتحطيم أية عاطفة . وما كان تأنيب الضمير او الاشفاق والوجد الا نزعات

ضعف تزدريها تلك الطبيعة القوية الممتازة بحق ، إذ لا ريب أن كل خروج على بوادر الضعف البشري يعتبر امتيازاً ولو كان في نظر مجتمعنا إجراماً وإثماً

أما ما كانت تعاني منه المركيزة فهو الخوف الدائم والرعب المستمر من خيانة شركائها لان الوغد لاشوسيه الذي لم تخمد قط جذوة جشعه كان يدهمها من وقت لآخر منذراً متوعداً وكانت تكابد من خشونته ونذالته وغلظته أمرّ ما يخفض كبرياءها ويؤلم عزتها

كذلك لم يكن سانت كروا أقل الحافاً وآمن جانباً بالرغم مما كان يربطها به من صلات الهوى ، بل كان من نتيجة وعيده أنه أرغمها على ان تكتب له سندين قيمتها خمسة وعشرون الف جنيه . وكانت تعرف أنه يضعها مع طائفة من رسائلها المثبتة لجرائمها في صندوق حديدي صغير احمر كان يضع فيه زجاجات السموم

فكانت كلة او رسالة تكفي لهلاكها

كانت المركيزة تعيش إذاً في غمار من الارتياع الدائم ، يطاردها شبح لاشوسيه وشبح سانت كروا وشبح الصندوق الاحمر : ذلك الذي لم تدخر وسعاً في سبيل رؤيته واستخراج رسائلها منه ، والذي استنفدت كل ما تملك من تضرع وحنان ووعد ووعيد ويأس لكي تحمل خليلها على تسليمه اليها فلم تفلح

فكانت تارة تكتب اليه بأنها ستدبر قتله ، وتارة تعد بأن تهبه جميع ثروتها ، وأحياناً تتظاهر باليأس وبأنها تعتزم الانتحار حتى تحمل خليلها على ان يعدل عن اباثه الحديدي

بل لقد ذهبت يوماً الى أبعد من التظاهر فشرعت في الانتحار فعلاً ، وشربت مقداراً من السم وكتبت في اللحظة ذاتها الى سانت كروا تخطره عما فعلت. غير أنها ما كادت تشعر بالنار تسري الى احشائها حتى عدلت في الحال وشربت كميات كبيرة من اللبن انتهت بقيء السم ولم تصب منه الا بانحراف بسيط

تضور ذينك العاشقين اللذين وثقت بينهما أسرار جرائمهما الهائلة بأكثر مما وثق الهوى ، يعيشان عدوين جنباً الى جنب ، ويراقب كل منهما صاحبه ، ويحذره ويخشاه ويتربص به ، ويخفي تحت ستار الغرام ارتيابه به وخوفه منه ، بينما تضطرم في جوانحه جذوة ذلك البغض الذي أقسم كل منهما في أعماق نفسه بان يحمله لصاحبه

استطاع سانت كروا ذات يوم ان يدس السم لخليلته ولكنها ما كادت تتجرعه وتشعر بوخزه حتى فطنت لخيانة خليلها ووفقت في تلك المرة ايضاً الى الافلات من موت محقق

كانت المركيزة بعد ارتكاب جرائمها تعيش في ذلك الجحيم تحت المظاهر الخلابة لحياة النعيم والهوى

وقد كان لتلك الحياة الفياضة بالخوف والروع نتيجة أخرى لا تتفق في الواقع مع ذكاء المركيزة وحزمها ، ولكنها قد تعتبر نتيجة طبيعية لما ناءت به جوانحها من عوامل الاضطراب واليأس

ذلك انها أصبحت تأنس السلوى في مضاعفة أسباب حذرها وخوفها . وكان يدفعها الى سبيل الهلاك شيطان خفي ، ويستأسرها سراب الخطر المجهول ، ويجتذبها سحر الخوف الغامض . كانت تطرب للافتخار بجرائمها ، فتقيم بذلك على آثمها وعارها شهوداً جدد

من ذلك أنها قالت لوصيفتها ذات يوم مشيرة لها الى صندوق صغير مملوء بالزجاجات : هنالك ما أستطيع الانتقام به من جميع أعدائي ، وفي ذلك الصندوق الصغير تركات عدة ! فحفرت تلك العبارة الهائلة في ذهن الوصيفة حتى انها حينما دعيت للشهادة امام القضاء فيما بعد تذكرت وذكرت قصة الصندوق « ذي التركات العديدة »

وأخطر من ذلك أن المركيزة شعرت ذات يوم بحاجة غريبة الى ان تفضي الى مؤدب اولادها — وهو فتى يدعى بريانكور — باسرار جرائمها الماضية بل باسرار مشاريع اجرامها المستقبلة ، ومنها عزمها على اغتيال أختها الصغرى وأرملة أخيها الاكبر

وكان بريانبكورفتى ضيف الجنان والخلق فصعق لاعترافات سيدته بادىء بدء ، ولكنه كان ايضاً أبي النفس مستقيم الطوية . فلم يلبث ان ثار ارتياعاً لذلك الاثم الفظيع وجرؤ ان ينحي باللائمة على سيدته في عنف وشدة وان يقسم انه لن يمكنها من تنفيذ مشاريعها

فكان جزاء تلك الجرأة ان حولت اليه المركيزة صواعق نقمتها واعتزمت ان تزهق روح ذلك الامين الذي خطر له ان يؤنبها ، وأظهر أنه غير أهل لثقتها خصوصاً وانه قد حذر أختها الآنسة دوبري سراً . واعتقد المسكين بحق ان حياته قد أصبحت في خطر فضاعف حذره واعتاد ان يتناول « الترياق » وقاية لنفسه من السم ، وبذلك استطاع ان ينقذ نفسه من جريمتين دبرتا لقتله إحداهما بالسم والاخرى بالخنجر

بيد أنه رأى ان ليس ثمة ما يحمله على البقاء في دار جحيم فاعتزل عمله وسافر الى اوبرفلييه

* * *

وكان يحدث في تلك الدار الهائلة منظر مدهش آخر بين المركيز وزوجه ، إذ الواقع انه لم يكن أنعم بالاً او اكثر اطمئناناً على حياته من بريانكور . كان يشهد جرائم زوجه دون ان يستطيع تدخلاً أو مقاومة ، وكان همه منصرفاً الى ان يذود عن حياة نفسه إذ شعر ان أخطاراً غامضة سوداء تهددها من وقت لآخر، فكان يتناول الترياق مراراً في اليوم ، ويعهد الى وصيفه الخاص بأن يقف وراءه وقت الطعام ولا يسمح لأحد سواه بخدمته

ولم يكن حذره عبثاً لان المركيزة كانت تتحين الفرص لقتله ليخلو لها الجو، ولتستطيع أن تقترن من سانت كروا . غير أن الشفالييه كان لحسن طالع المركيز يرغب عن ذلك الزواج ، بل كان يسهر على حياة المركيز بنفسه حتى أسعفه ذات يوم خانه الحذر فيه واستطاعت المركيزة أن تدس له السم في شرابه بترياق أنقذ حياته ، واستمر يسعفه كلما دعت الحاجة ليحافظ بذلك على حياة كان يعتبر صيانتها ضرورة لسلامه وأمنه

واستمرت تلك الحال المدهشة بضعة أعوام ، وغمض جفن العدالة عن جرائم سانت كروا وخليلته ، وخمدت ثورة الاقاويل والشكوك ، وكادت المركيزة تنسى مخاوفها لولا أن قضى ربك أن يموت سانت كروا فجأة ، وأن تفضي وفاته الى نتائج لم يكن في استطاعة الشيطان ذاته أن يأخذ حذره منها

— ٤ —

وذلك أن سانت كروا كان يجري تجاربه الهائلة عند صديقه جلازر في غرفة استأجرها لذلك في حي موبير ، فأدى انهما كهما في تلك التجارب الخطرة وتعرضهما الى استنشاق الابخرة السامة الى أن مرض جلازر ثم توفي . ثم مرض سانت كروا ولزم منزله في شارع برناردان غير أنه لم ينقطع عن تجاربه فأنشأ في منزله معملاً لاجرائها هنالك

وكان سانت كروا لم يقتنع باكتشاف سلاحه الهائل بخواصه التي وصل اليها فعكف على جهوده في اكتشاف سم اكثر خفاء وأنفذ أثراً وأيسر استعمالاً . وكانت أخبار سموم البورجيا وكاترين دي مديتشي تبعث الى مخيلته السوداء رغبة شديدة في الاهتداء الى أسرارها

فاستمر على اجراء تجاربه في منزله . وكان يحمي نفسه من مخاطر الابخرة السامة بقناع محكم من الزجاج يضعه فوق وجهه ، فقضى ربك ذات يوم أن يسقط القناع عن وجهه بينما كان منحنياً يرقب السم ، فسقط مصعوقاً لساعته وزهق روحه الخبيث على الاثر

وألفته زوجته في المساء صريعاً في غرفته والقناع محطم الى جانبه فأخفت آثار الزجاج والنار ، وخشيت عواقب الامر وثرثرة الخدم فطلبت الى مندوب الضبط المدعو بيكار أن يضع الاختام على أوراق الميت ومتاعه

وطار الخبر في أنحاء المدينة لان سانت كروا كان معروفاً جداً ، وعلم الوغد لاشوسيه بموت سيده وبما حدث من وضع الاختام على أمتعته فتقدم الى الضبطية معارضاً في ذلك بدعوى أنه لبث في خدمة المتوفي سبعة أعوام ،

وأنه أودع عنده منذ عامين ثلاثمائة جنيه ، فأفهم ان ينتظر حتى يصدر الامر بفك الاختام

* * *

لم يكن بين أولئك الذين جزعوا لمصرع سانت كروا من هو أكثر ارتياعاً ووجداً من المركيزة ، فقد كادت تجن لذلك النبأ

ولم يكن ذلك أسفاً منها على غرام تصرم لان هيامها بسانت كروا تحوّل في الاعوام الاخيرة كما رأينا الى نقمة وبغض ، ولكن لان موت شريكها في الأثم بتلك الصفة الفجائية قبل أن تتمكن من اخفاء آثار جرائمها التي كان يحتفظ بها كان داعياً لتجديد مخاوفها الماثلة من الوقوع في يد العدالة ، وضربة قاضية على أمنها وسلامتها

كان سانت كروا يضع أوراق المركيزة كما قدمنا في صندوق حديدي صغير وضعت عليه الاختام كما وضعت على باقي الامتعة ، وكان موضع رعب المركيزة وجزعها الماثل ذلك الصندوق وحده

ولم يفهم احد سر ارتياع المركيزة سوى شخص واحد هو بريانكور مؤدب أولادها السابق ، ذلك الذي ائتمنته على أسرارها وكاشفته بجرائمها ففر منها رعباً . بيد أنها لم تجد في ذلك المأزق الا أن تلتجيء اليه ، فبادرت بدعوته الى الحضور اليها عاجلا . وفهم بريانكور أنها تريد أن تبحث معه في خير طريق لنجاتها ، فأبى عليه سابق اخلاصه أن يتقاعد عن اغاثتها في محنتها

فوفد عليها لفوره ، غير أن الاختام كما قلنا وضعت على أمتعة سانت كروا لانه كان مثقلا بالدين ومن المستحيل أن يفكر أحد في رفعها قبل ان تفعل ذلك ادارة الضبط

فاستولى اليأس على المركيزة وقضت بضعة أيام في أشد حالات الاضطراب والجزع حتى قررت ادارة الضبط أخيراً أن ترفع الاختام عن أمتعة المتوفي وكان ذلك في يوم ٨ أغسطس سنة ١٦٧٢ لتسعة أيام من وضعها

وحينما شرع رجال الضبط في ذلك تقدم اليهم محامي المركيزة وطلب أن يثبت في المحضر « انه اذا وجد بالصندوق الذي تطالب به موكلته سندات صدرت منها وقيمتها ثلاثين الف جنيه فانها تقرر أنها انتزعت منها بالاكراه وانها تعتزم طلب الحكم ببطلانها »

ثم بدأ القومسير بيكار ومساعده بحضور مسجلين ووكيل أرملة المتوفي ووكيل الدائنين برفع الاختام . ولنذكر قبل كل شيء أن ادارة الضبط لم تكن تقصد بذلك الاجراء ان تفتش منزل المتوفي لانه لم يك ثمة جريمة او شبهة على ارتكابها ، وانما كان الغرض فقط ان تجرد أمتعته ومنقولاته محافظة على حقوق الدائنين والورثة

ولم يجد القومسير شيئاً غير عادي في الغرف الاولى غير انه لما دخل الى غرفة سانت كروا المنعزلة حيث كان يجري تجاربه وجدها غاصة بالآنية والانابيق والافران الصغيرة والآلات المختلفة ووجد فوق مائدة الكتابة غلافاً ظاهراً كتب عليه « اعترافي » ، فارتد الى رفاقه مستفهماً عما عساه يفعل به فرأى الجميع وجوب احراقه ، احتراماً لذكرى الميت ، فألقى الغلاف الى النار وذهبت بذهابه اسرار لا يعلمها سوى الله

بيد أن ذلك لم يكن كافياً لانقاذ المركيزة لان القومسير بيكار عثر اخيراً بالصندوق الحديدي الصغير ومفتاحه مربوط اليه ففتحه فوجد فيه عدداً من زجاجات صغيرة فيها سوائل مختلفة الالوان ، وعدة خطابات من المركيزة ، وسندين موقعين منها احدهما بمبلغ خمسة وعشرين الف جنيه والآخر بثلاثين الف ، وسنداً بمبلغ عشرة آلاف جنيه صادراً الى بنوتييه المحصل العام لخزانة الكنيسة من المركيز والمركيزة دي برانفليه بواسطة سانت كروا ، ومرفق بجميع هذه الاوراق رقعة صغيرة يرجو فيها الكاتب بالحاح أن يسلم ذلك الصندوق الى المركيزة دي برانفليه لان ما فيه يعنيها وحدها

ولم يك ثمة ما يدعو الى التردد في العمل بوصية الميت لولا ان هذه الزجاجات وما تحتويه من السوائل المجهولة ، وما كان يذاع حول

سانت كروا والمركيزة من الاشاعات الغريبة ، بعث الى حن القومسير ضروباً مختلفة من الريب فآثر ان يحاول اكتشاف السر بنفسه ووضع الاختام ثانية على الصندوق ومحتوياته وعهد بحفظه الى مساعده

فأخطرت أرملة سانت كروا المركيزة بذلك في مساء نفس اليوم فثارت غضباً ورعباً ، ثم بادرت بالذهاب الى مساعد القومسير وخاطبته في الامر بكبرياء وحدة قائلة انها ترى من المضحك ان يأخذ القومسير صندوقاً هو ملكها ، ثم حاولت ان ترشيه بالمال ليسلمه اليها . ولكن الرجل كان نزيهاً لا يرشى فأحالها على رئيسه . وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ولكن المركيزة ذهبت بالرغم من ذلك الى زيارة القومسير في منزله فأبى استقبالها في مثل ذلك الوقت المتأخر وضرب لها موعداً للمقابلة في اليوم التالي

وفي اليوم التالي تردد على القومسيون كل من بريانكور ومحامي المركيزة ، ثم المركيزة ذاتها ، وحاول كل منهم عبثاً ان يحمله على رد الصندوق الى صاحبته

فعيل صبر المركيزة حينئذ وفقدت كل ثباتها وجلدها ، غير انها لم تضع وقتاً في اتخاذ أسباب الحيطة والحذر وإعداد معدات الفرار

***

وفي ١١ أغسطس امر الضابط المدني برفع الاختام عن الصندوق وفحص محتوياته ، وقدمت السوائل الى الخبراء لتحليلها ومعرفة خواصها وآثارها ، فثبت بالفحص والتحليل أنها سموم قاتلة شديد الاثر ، غير أن خواصها كانت موضعاً لحيرة الاطباء ودهشتهم لانها جربت في الحيوانات والطيور فكانت تقتلها على الاثر دون ان تترك فيها أثراً مميزاً يمكن ان تنسب الوفاة اليه

وقد أوردنا فيما سلف نبذة من التقرير الذي وضعه الخبراء عن خواص هذه السموم ، ومنه يرى مبلغ خفائها وخطرها ، ومنه يرى ان سانت كروا كان من أبرع الكيمائيين في عصره

ذاعت هذه الاخبار بسرعة البرق في أنحاء باريس وغدا صندوق

سانت كروا وما وجد فيه من السموم موضعاً لاحاديث الافراد والجماعات والاندية ، بل دوائر الحكومة والبلاط ، وغدا كل يذكر أسماء سانت كروا والمركيزة دي برانفليه وبنوتيبه كشركاء ثلاثة في الاثم ، وأذيعت أغرب القصص والنوادر عن المؤثرات العجيبة لذلك السم الجديد حتى ان فريقاً من الناس أخذ ينسب اليه كل الوفيات الفجائية الاخيرة أو على الاقل تلك التي لم تتضح أسبابها وعللها

ولم تكن العدالة غافلة عن كل ذلك ، غير أنها كانت في مأزق لان الاشاعات مهما كثرت ، والحدس مهما تغلغل. لا يكفيان لاثبات الجريمة. هذا الى ان سمو منصب بنوتيبه وثروته الطائلة ، ومكانة أسرة المركيزة ومركزها الاجتماعي، كانت تحتم التأني وابراز الادلة القاطعة قبل القبض عليها والى انه لم تتقدم ضدها أية تهمة أو شكوى

غير أنه وقع حادث فجائي أذكى جذوة الاقاويل والشكوك ، وضاعف اهتمام العدالة

ذلك ان الشقي لاشوسيه تقدم بعد رفع الاختام الى القومسير بيكار مرة أخرى مطالباً بالمبلغ الذي ادعى انه أودعه لدى سيده القديم ، فسأله القومسير فجأة عن ما يعلمه عن صندوق السموم فاضطرب الشقي وتلعثم ، واعتقد ان جرمه قد اكتشف فأطلق ساقه للريح وترك محدثه مبهوتاً مندهشاً

فاستصدر القومسير في الحال أمراً بالقبض على لاشوسيه ، وأطلق في أثره رجال الشرطة فقبض عليه واحد منهم يدعى توماس رجنيه بعد أن لبث مختفياً بضعة ايام . وحاول هذا الشرطي ان يتقدم في بحثه فذهب الى المركيزة وأخطرها بنبأ القبض على لاشوسيه مؤملاً أن يخونها جلدها فتضطرب لذلك النبأ وتفتضح ، غير انه لم يفلح في تدبيره لان المركيزة بالرغم مما أثاره ذلك النبأ في نفسها من الجزع والروعة استطاعت أن تضبط عواطفها وان تهدىء روعها بمهارة فائقة

بيد أنها في نفس الوقت شعرت بالخطر يحدق بها وبعين العدالة ترقبها

وتعذرها فغادرت باريس خفية في اليوم التالي وعبرت البحر الى انجلترا

وكان فرارها في الوقت المناسب لان مدام دوبري أرملة المسيو دوبري أخي المركيزة الاكبر قدمت على أثر القبض على لاشوسيه ضد وصيف زوجها السابق شكوى اتهمته فيها بتسميم زوجها ، فنشط القضاء الى تحقيق التهمة ، واستدعى بريانكور لسماع أقواله فبدرت منه عبارات تؤيد ادانة المركيزة. غير ان الشقي لاشوسيه أنكر ما نسب اليه بتاتاً ودافع عن نفسه بمهارة زعزعت من يقين قضاته في المحكمة الابتدائية فحكم باحالته على العذاب حتى اذا اعترف قضي عليه والا برئت ساحته

فاستأنفت مدام دوبري ذلك القرار خشية أن يصبر الشقي على آلام التعذيب فيفلت من قبضة العدالة ، فأعادت محكمة تورنيل الاستئنافية نظر القضية وأخفق الدفاع في تلك المرة وقضت المحكمة باعدام لاشوسيه على العجلة وقررت احالته الى العذاب قبل ذلك ليعترف بأسماء شركائه في الجريمة ، فعومل لاشوسيه بالتحقيق العادي وغير العادي (وقد شرحناها في فصل سابق) غير أنه خرج ظافراً بعد ان مزق لحمه وهشم عظمه ولم يتكلم الا حينما أخذ الى ساحة الاعدام لاهلاكه فاعترف حينئذ بجريمته وسرد كل ما قامت به المركيزة دي برانقليه من الاعمال في تلك المأساة الرائعة ، وكان اعدامه في ٢٤ مارس سنة ١٦٧٣

وفي ٢١ ابريل اصدرت المحكمة أمراً باستجواب بنوتييه فسمعت أقواله غير أن القرائن لم تكن كافية ضده فحفظ التحقيق بالنسبة اليه ، وأطلق سراحه بعد أن قضى عدة أسابيع في السجن

— ٥ —

كان لاجراءات هذه القضية وما كشفته من الاسرار الشائنة والآثام الفظيعة دوي كبير في أرجاء فرنسا وخاصة في باريس فاهتم البلاط بأمرها، وأعرب الملك لويس الرابع عشر عن شديد رغبته في مطاردة الجناة ومعاقبتهم بلا رأفة ايا كانت صفاتهم ومراكزهم

وكانت ادارة الضبط البارزية تجدّ في أثر المركيزة منذ اختفت حتى علمت بوجودها في انجلترا فطلبت الحكومة الفرنسية تسليمها من الحكومة الانجليزية

وكانت المركيزة تعاني في لوندرة منذ بضعة أشهر أمرّ صنوف الشقاء والجزع لا سيما بعد أن علمت بأن الحكومة الفرنسية طلبت تسليمها . ومع أن الحكومة الانجليزية لم ترفض ذلك التسليم صراحة غير أنها رفضت أن تقوم شرطتها بالقبض وطلبت أن تتولاه السفارة الفرنسية ، في حين أن السفارة لا تملك في الواقع وسيلة لاجرائه

بالرغم من ذلك شعرت المركيزة أن حياتها في خطر وأرادت أن تفر من شبح الرعب الدائم فغادرت مدينة لوندره في أوائل سنة ١٦٧٣ الى دير في مدينة لياج

* * *

ظنت المركيزة أن الدير خاتمة المطاف وأنها ستجد في الزهد والعزلة ما يسكن ثورة نفسها ويهدىء روعها ، ولم تدر أن الحكومة الفرنسية كانت ساهرة ترقبها في غدواتها وروحاتها ، وأنها كانت ترقب بفارغ الصبر فرصة للقبض عليها ، وانهذه الفرصة قد سنحت بوجودها في لياج التي كانت حينئذ تحتلها الجنود الفرنسية . ولذا ما كادت تأوي الى الدير حتى أوفد الوزير لوفوا الى لياج فتى من أمهر رجال الضبطية يدعى دجريه لتنفيذ تلك المهمة ومعه عدد من رجال الشرطة . فتم القبض على المركيزة باذن حاكم المدينة ودون صعوبة ما

أما ما يزعمه بعض الكتاب ومنهم المؤرخ ميشليه من أن دجريه اضطر أن يتنكر بزي راهب ليستطيع دخول الدير ، وانه نصب للمركيزة شركا غراميا وأوهمها بحبه ثم ضرب لها موعداً للقاء خارج الدير وقبض عليها بعد ذلك فرواية خيالية ليس ثمة ما يؤيدها أو يرجحها

وفي ٢٦ مارس أخطر دجريه لوفوا بأنه قبض على المتهمة وضبط معها صندوقاً صغيراً حاولت أن تسترده منه لانه يحتوي على اعترافها ، وقد

كانت هذه حقيقة لان المركيزة كتبت سيرة حياتها وجرائمها وفجورها في عدة فصول ترتعد لها الفرائص هولا وتحمر الوجوه خجلا ، وكان ذلك الاعتراف موضوع مناقشات حادة أثناء المحاكمة كما سنرى غير أنه اختفى بعد ذلك من بين أوراق القضية ولم يظفر بسيرته الكاملة أحد ممن كتبوا سيرة المركيزة دي برانفلييه ، وكل ما وصلنا منه شذور وردت في بعض رسائل الكاتبة الشهيرة مدام دي سفنييه معاصرة المركيزة ، من ذلك ما ورد في احدى هذه الرسائل وهو :

« تقول لنا مدام دي برانفلييه في اعترافها أنها صارت ثيباً في سن السابعة وأنها استمرت على تلك النغمة ، وأنها سمت أباها وأخويها ، وأحد أولادها ، وأنها سمت نفسها لتجرب مفعول الترياق . . . ! »

ولم يكن من السهل على دجريه ورفاقه أن يعيدوا المركيزة الى باريس بعد القبض عليها فهي لم تدخر وسعاً في محاولة الانتحار ما بين آونة وأخرى، ولم تترك حيلة ممكنة للفرار الا دبرتها ، فحاولت بادىء بدىء أن تستميل حراسها بالرشوة والوعود ، فلما لم تفلح دبرت مشروعاً لاختطافها بواسطة أصدقاء قدماء قابلتهم في الطريق عرضاً ، فلما أخفقت دبرت كميناً لاغتيال دجريه ، ولكنها أخفقت أيضاً ـ فحاولت أخيراً أن تقطع أعنة جياد العربة فجأة ومن ثم تنتهز فرصة الارتباك لتفر فوق ظهر أحد الجياد

غير أن دجريه ورفاقه كانوا ساهرين حذرين فخبطت مشاريع المركيزة كلها

وقد حاولت المركيزة أيضاً الانتحار مراراً ، فأرادت مرة أن تبتلع دبوساً طويلا فانتزعه من فمها أحد حراسها ، وحدث أيضاً أنها بينما كانت تتناول العشاء مرة كسرت كأسها فجأة وحاولت أن تبتلع الزجاج فحيل بينها وبين ذلك

* * *

وفي ١٧ ابريل سنة ١٦٧٦ مثلت المركيزة في مزيير أمام قاضي التحقيق لاول مرة ، وكان المحقق معها القاضي بالو . فسئلت عن اعترافها فأجابت

أنها كتبته حقيقة ولكنه ليس الا هذياناً وسخفاً سطرته في نوبة من الحمى الشديدة ، واكتفت بالاجابة عن باقي الاسئلة بأنها لا تعرف أو لا تذكر شيئاً

وفي ٢٦ ابريل وصلت الى باريس وأودعت السجن . وفي ٢٩ ابريل مثلت أمام أكبر هيئة قضائية في فرنسا وهي محكمة تورنيل والقاعة الكبرى مجتمعتين برآسة المستشار دي لاموانيون ، فاستغرقت القضية اثنتين وعشرين جلسة أدهشت المركيزة فيها قضاتها بقوة عارضتها ، وحدة ذهنها، وشدة جلدها ، ولم تعترف بشيء بل أنكرت كل التهم التي وجهت اليها بجرأة وعناد وإباء

وكانت أهم نقطة احتدم الجدل حولها هي مسألة الاعتراف الذي كتبته المركيزة بيدها ، وما اذا كان هذا المستند الكتابي يعتبر دليلا على الادانة أم لا . فعارض بعض القضاة في الأخذ به بشدة وتمسكوا بحرمة الاعتراف ، وقرر بعضهم أن لا مانع من الاخذ به لأن بعض المحاكم الكنسية اعتبرته دليلا على الادانة ، وأخيراً أحالت المحكمة هذه النقطة على هيئة من علماء الدين فقررت أن سر الاعتراف لا يعتبر في تلك الحالة وأنه لا يجب أن يعتبر له وجود الا فيما بين المعترف والكاهن وانه مع ذلك يمكن قراءة الاعتراف الذي كتبته المركيزة دي برانفليه

وكانت أشد الجلسات وطأة على المركيزة جلسة ١١ يوليه سنة ١٦٧٦ التي استمرت ثلاثة عشرة ساعة والتي وُجهت فيها بيريانكور مؤدب أولادها السابق

فقد تقدم بريانكور وقص بصوت يخنقه الانفعال والتهدج سيرة سيدته القديمة وكل ما أفضت به اليه من أسرار جرائمها وفجورها ، وكيف سمت أباها ، ودست لاشوسيه لاغتيال أخويها ، وكيف أنها كانت تعتزم اغتيال اختها وأرملة أخيها ، ثم قصة غرامها مع سانت كروا ، وما كان يقع بينهما من المناظر العاصفة ، وقصة الصندوق وما بذلته المركيزة لاسترداده من تضرع ووعيد ، وكيف أنها حاولت الانتحار من أجل ذلك . ثم وصف الحياة الشريرة التي كان يحياها سيده المركيز دي برانفليه في ذلك

البيت المشئوم ، وكيف ان المركيزة أفضت اليه يوماً باسرارها الهائلة وهددته حين أنبها على جرائمها . وكيف انها حاولت أن تقتله مراراً بالسم والخنجر ، وكيف انها دبرت ذات ليلة كميناً لاغتياله في غرفة نومها اذ أوهمته انها تهواه ، ودعته الى لقائها في منتصف الليل ، فذهب ليتعرف حقيقة الأمر ففاجأ خليلها سانت كروا مختفياً وراء الموقد متربصاً لاغتياله بخنجره ، ولكنه استطاع النجاة من ذلك الكمين

وكانت المركيزة أثناء كل ذلك تقاطعه بكبرياء وشدة قائلة ان هو الا خادم نذل طردته من خدمتها فله ان يقول ما شاء

ولما انتهى بريانكور من شهادته تحول نحو المركيزة وقال لها بصوت تخنقه الدموع « لقد حذرتك مراراً يا سيدتي من طيشك، ومن قسوتك ، وحذرتك من الوقوع في عاقبة جرائمك »

فكان جواب تلك المرأة الهائلة ، التي استطاعت وحدها أن تحافظ على سكينتها وأن تضبط عواطفها بالرغم مما يسود حولها من عوامل الاضطراب والانفعال أن قالت : « انك بلا قلب لانك تبكي ! »

والواقع أن بريانكور لم يكن يبكي وحده ، بل كان من أثر السحر الغريب الذي تبثه تلك المركيزة الخلابة حولها أن بكى معظم القضاة والحضور ، بل كان الانفعال يخنق صوت الرئيس نفسه

* * *

ثم نهض المحامي نيفيل الذي عهد اليه بالدفاع عن المركيزة وافتتح دفاعه بأن قال : ان فظاعة الجرائم وصفة المتهمة تتطلبان أدلة قاطعة جداً ، وادلة كتابية لا تترك مجالا للشك حتى يمكن الحكم بادانة المتهمة. ثم ناقش الادلة التي قدمت وقرر بأن ليس لها تلك الصفة ، وقارن أقوال الشهود وما تضمنته من تناقض وضعف ، وشرح نقطة القانون الكنسي التي تطبق على مسألة الاعتراف وقرر أنه لا يمكن أن يؤخذ دليلا على الادانة ، ثم وصف حياة المتهمة وصفاً بليغاً مؤثراً ، وكيف انها سقطت من أرقى مراتب الرفعة الى أسفل دركات الحضيض ، وصور آلامها المادية والنفسية التي

عانتها خلال أعوام طويلة ، وكيف أنها فرت أمام سخط الرأي العام ولبثت طريدة شريدة تعاني الخطوب والشدائد ، وناشد في النهاية اشفاق القضاة على أطفال أبرياء تركهم المركيزة وراءها ، وسيكون الحكم على أمهم بالاعدام والعار ضربة قاضية على عواطفهم ومستقبلهم

غير أن ذلك الدفاع الرنان لم يؤثر في اعتقاد القضاة وان كان قد خفف نوعاً من حدة الرأي العام ضد المركيزة

وفي ١٥ يوليه بذل رئيس المحكمة آخر جهوده ليحمل المركيزة على الاعتراف بجرائمها ، فلما أعيته الحيلة في ذلك أخطرها بأن أختها راهبة الكرمليت أوفدت اليها حبراً جليلا ليعظها ويحثها على التوبة والتكفير ، وكان ذلك الحبر هو الأب بيرو أحد كبار الوعاظ وعلماء الدين وهو الذي ترك لنا وصفاً مسهباً لمحادثاته الاخيرة مع المركيزة

قدم الاب الى السجن ليقوم بتلك المهمة الشاقة وقلبه فياض بالاحجام والخوف معتقداً أنه انما سيقابل الشيطان مجسماً ويعده الى لقاء ربه ، فما كان أشد من دهشته حينما لقي أمامه امرأة وديعة المحيا ، صغيرة القد زرقاء العينين تفيض ملامحها سحراً ورقة : كانت المركيزة تغنم دائماً عطف كل من يقترب منها ، بل قد يدهش القارىء اذا علم أن حراسها كانوا يبكون كلما سمعوا بأنها ستموت

فاستقبلت الاب بترحاب ورقة ، وتقدمت اليه ذليلة خاضعة ، فاستجوبها باناءة ورفق ، فما لبث ان تكللت جهوده بالفوز واستطاع انسان لاول مرة ان يخترق حجب تلك الروح الحالكة . ثم دعاها الى التوبة والتفكير في سلامها ، فكان أيضاً أول انسان استطاع ان يستثير الدمع الصادق من تينك العينين اللتين ما بكتا من قبل قط الا لتحجب دموعها جذوة روح تتقد بنيران القسوة والبغضاء

وفي صباح اليوم التالي قدم الرئيس بابيل الى السجن ليخطر المركيزة بان الحكم سيصدر ، وكانت المركيزة قد نامت ليلها هادئة بينما أرق الاب المسكين ولم يغمض له جفن مما عصف بمخيلته من عوامل الاضطراب

والانفعال والجزع ، فحادثته المركيزة قليلا ووعدته بأنها ستعترف أمام المحكمة بالحقيقة كاملة ، ثم تركته يصلي من أجلها ونزلت الى ساحة الجلسة لتسمع تلاوة الحكم

فبدأ الرئيس باستجوابها ثانية ، واستمر ذلك الاستجواب الاخير خمسة ساعات ، قصت خلالها المركيزة كل جرائمها ، وقررت بان ليس لها شركاء سوى سانت كروا ولاشوسيه ، وأنها لا تعرف سر تركيب السم الذي استعملته ولا الترياق أيضاً . فلما انتهى الاعتراف أشار الرئيس الى الكاتب أن يتلو صيغة الحكم

وكان ذلك الحكم الشهير في تاريخ الجريمة مؤرخاً في نفس اليوم أي في ١٦ يوليه سنة ١٦٧٦ ، ونحن نورده هنا بنصه لنطلع القراء على صفحة غريبة من اجراءات القضاء الجنائي في ذلك العصر :

« بعد اطلاع المحكمة العليا مجتمعة الخ . . . على أمر احالة المدعوة دوبري دي برانفلييه ، وتحقيقات نائب الملك ، واستجواب دوبري المذكورة عن وقائع القضية ، قررت المحكمة وتقرر باقتناعها بان دوبري دي برانفلييه السالفة الذكر قد سمت أباها السيد دري دوبري وأخويها السيدين دوبري ، وشرعت في قتل أختها تريز دوبري ، وانها عقاباً لها قضت وتقضي على دي برانفلييه المذكورة ان تعترف بذنوبها أمام الباب الاكبر لكنيسة باريس حيث تؤخذ عارية القدمين ، والحبل في عنقها ، حاملة في يدها شمعة كبيرة مضيئة ، وهنالك تجثو على ركبتيها وتقول وتصرح انها أتت إما بعامل الانتقام أو الحصول على المال، فسمت أباها وحرضت على سم أخويها وانهــا تندم على ذلك وتطلب الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، ثم بعد ذلك تؤخذ الى ميدان جريف في هذه المدينة حيث يقطع رأسها على نطع يقام لذلك الغرض في الميدان المذكور ، ثم تحرق جثتها وتذر حطامها في الهواء . وقبل كل ذلك يطبق عليهــا التحقيق العادي وغير العادي لتعترف باسماء شركائهــا . وتقرر المحكمة حرمانها من ميراث أبيها وأخويها وأختها منذ ارتكابها للجرائم المذكورة ؛

ومصادرة كل أملاكها وإعطاءها لمن يستحقها وان يؤخذ منها قبل كل ذلك مبلغ اربعة آلاف جنيه غرامة للملك ، واربعمائة جنيه لاقامة الصلاة عن أرواح اخويها وأبيها وأختها في كنيسة سجن الحقانية ، وكذلك كل المصاريف التي صرفت في محاكمة المدعو لاشوسيه

صدر بالمحكمة في ١٦ يوليه سنة ١٦٧٦

ولسنا بحاجة للقول بان المركيزة أصغت الى تلاوة الحكم بثبات وسكينة ولم تبد على ملامحها بادرة ارتياع أو ضعف

* * *

وبالرغم من اعتراف المركيزة نفذ عليها أمر التعذيب ، فأخذت الى قاعة التعذيب وعوملت بتحقيق « الماء » لتعترف بما لم تعترف به ، وهذا النوع من العذاب عبارة عن إكراه المتهم على ابتلاع مقادير كبيرة من الماء قد تصل الى عدة لترات ، يكره على تجرعها تدريجياً بحيث تترك له بين كل جرعة وأخرى فترة ليعترف فيها ، والجرعة نحو لترين . وطريقة التجرع هي ان يطرح المتهم على ظهره ويوثق ذراعاه ورجلاه بالاغلال ، ثم يضع الجلاد في فمه قرناً يصب الماء بواسطته فاذا أغلق فمه ضغط الجلاد على أنفه ليرغمه على ان يفتح فاه طلباً لاستنشاق الهواء ، وانتهز تلك الفرصة لوضع القرن وصب الماء

غير أن المركيزة بالرغم مما عانته من الالم الهائل لم تزد شيئاً على ما قالت ، وقدم اليها الاب بيرو فألفاها « شديدة التأثر ، ملتهبة الوجه ، متقدة العينين ، منقبضة الفم » من أثر العذاب ، فأخذ يعظها برقة ويؤاسيها ويشجعها على استقبال الموت

وفي عصر ذلك اليوم أخذت المركيزة لتنفيذ الحكم عليها ، فألبست ثياباً خشنة كالتي يلبسها المحكوم عليهم بالموت ، وعري قدماها ، وحملت باحدى يديها مشعلا مضيئاً وصليباً في اليد الاخرى ، وأركبت عربة صغيرة وركب الى جانبها الاب بيرو

وكانت الجموع تموج خارج السجن وعلى جانبي الطريق ، وكانت الشرفات والنوافذ غاصة بالنظارة ، ومنهم مدام سفنييه الكاتبة المشهورة فسار الموكب الى كنيسة نوتردام والمركيزة تكاد تذوب ألماً وتأثراً



تعذيب المركيزة دي برانفلييه

لمواجهتها تلك الجموع الغفيرة في تلك الصورة المهينة المخزية ، بل لقد اشتد حنقها ، وأضاء وجهها بنار السخط وتقلصت ملامحها حتى خيل للاب بيرو أنه يرى في وجهها وجه نمرة ثائرة . قال الاب في كتابه : « وكانت هذه آخر مرة تغيرت فيها ملامحها ، ومنذ تلك اللحظة لم تبد كلمة تذمر

او شكوى ، بل لم تبد أية بادرة على الاحجام والضعف »

وقبل أن تتوارى أشعة الشمس الاخيرة أخذت المركيزة الى ميدان جريف ، حيث طار رأسها لاول ضربة من يد الجلاد بينما كان الاب بيرو جاثياً الى جانبها يلتمس لها الغفران والرحمة

لا ريب ان جرائم المركيزة دي برانفليه إحدى حادثات عصر لويس الرابع عشر ، بل هي مثل فذ في تاريخ الجريمة

ذو القناع الحديدي

سنة ١٦٦٠ ـ ١٧٠٠

لا نقص عليك في هـذا الفصل قضية او محاكمة ، وانما نقص سيرة عجيبة ، سيرة جريمة هائلة ارتكبها ملك عظيم هو لويس الرابع عشر ، وكان ضحيتها رجل لم يهتـد التاريخ بعد الى شخصه او حقيقته ، بل لم يستكشف باعث ارتـكابها

هي مأساة غريبة من نوع فذ ، أقرب الى الاساطير منها الى الوقائع الصحيحة غير أنها حادث تاريخي لا ريب فيه

نريد بهذه الجريمة ، هذه المأساة قصة « ذي القناع الحديدي » التي لم يخل منها تاريخ كتب عن عهد لويس الرابع عشر

بل ذو القناع الحديدي ! لانها قصة انسان ، وانسان رفيع المقام كما سترى فرضت عليه ارادة ملك مستبد ان يقضي حياته في ظلمات السجن ، بل قضت ان يكون سجنه مضاعفاً ، وان يحجب وجهه عن العـالم ، وان تظل ملامحه وشخصه في خفاء ونـكيرة ، فقضت أن يوضع على وجهـه قناع حديدي لا يرفع عنه قط

فن هو ذلك المنكود ؟ وما الذي استوجب تعذيبه بتلك الوحشية ؟ هل استبدل بالصمت والعزلة حيـاة قصر خلابة ، أو دسائس سياسي ، أو نطع محكوم عليه ؟ وهل خسر بمحنته الحب أو المجد أو العرش ؟ وما الذي كان يجيش به قلبـه من العواطف ؟ هل كان يضطرم سخطاً على جلاديه أم حنقاً على السماء أم كان يرسل زفرات الروح الجلد المستسلم ؟

لا شك أننا نهيم في أودية الشعر والخرافة اذا حاولنا أن نفذ على أجنحة الخيال الى أقبية بنيرول وديكسيل او سانت مرجريت أو الباستيل وهي السجون التي شهدت ظلماتها عذاب ذلك الشهيد ، وأن نـكتشف آثار الدموع التي أرسلتها عيناه تحت قناعه وأن نتصور آلاماً وآمالا لبثت

تساوره في عزلته الهائلة اربعين سنة كاملة . غير أن التفكير الهادىء المستند الى المنطق هو خير سبيل لان نظفر بفرض راجح وايضاح معقول .

أليس من الراجح المعقول ان نعتقد ان سراً يحاط مدى هذه الاعوام المديدة بأشد ضروب الخفاء والكتمان ، وان حجاباً بهذا السواد يسبل على اسم السجين وسنه وشخصه مما لا بد أن تكون أملت به ضرورة سياسية قاهرة ؟ ان الشهوات البشرية كالغضب والبغض والانتقام ليست من التحكم والرسوخ الى هـذا الحد . واذا فرضنا ان لويس الرابع عشر كان أقسى ملوك التاريخ أفلم يكن لديه الف صنف من العذاب يؤثرها على ذلك الصنف الغريب ؟ وما الذي دعاه لان يحتمل مراقبة السجين بتلك الصرامة المستمرة ، وأن يخلق لنفسه مصدراً خالداً للجزع والخوف ؟ في حين ان السر قد يثب يوماً من ظلامة السجن ، بل ما الذي حمله على أن يحترم حياة أسير تقترن حراسته بتلك الصعاب وسره بتلك الخطورة ؟ ألم يكن الموت خير وسيلة للتخلص من كل ذلك

إذاً فلا ريب ان الضرورة السياسية القاهرة وحدها هي التي دفعت بالملك الى ذلك التصرف الغريب الجائر ، وان ضميره الذي وسع اتخاذ الاجراءات الصارمة لاخفاء السر لم يشأ ان يذهب الى أبعد من ذلك ، ولم يسع اغتيال منكود لم يرتكب جرماً على الارجح

* * *

وقد رويت قصة هـذا السجين لاول مرة في كتاب لم يعرف مؤلفه اسمه « مذكرات فارس » . رويت بالرموز الفارسية على النحو الآتي :

« سنقص على القارىء حادثاً قلّ من يعرفه يتعلق بالامير جعفر (يريد لويس دي بوربون كونت دي فرمندوا ابن الملك لويس الرابع عشر ولويز دي لافاليير) الذي ذهب على حاجو (الدوق دورليان الوصي) لزيارته في قلعة أصفهان (الباستيل) حيث كان يرزح في سجنه منذ أعوام مديدة . ومن المرجح أنه لم يكن يقصد بهذه الزيارة سوى ان يتأكد من حياة أمير قيل أنه توفي منذ ثلاثين سنة وشيع جنازه أمام جيش بأسره

« كان لشاه عباس (لويس الرابع عشر) ابن شرعي هو صفي مرزا (يريد لويس ولي عهد فرنسا) وابن غير شرعي هو جعفر . وكان بينهما تباين شديد في الخلال والخلق ، وتنافس أشد ، فاحتد جعفر على أخيه ذات يوم وصفعه ، فعلم شاه عباس بخبر هذه الاهانة التي لحقت وارث عرشه فجمع أقرب أصدقائه وشاورهم في أمر معاقبته ، فأشار عليه أحدهم ان يرسل جعفر الى جيش الفلاندر ، وان يذيع خبر موته عقب عودته ببضعة أيام ، وان يرسله سراً الى قلعة ارمز (جزائر سنت مرجريت) في الوقت الذي يقام فيه جنازه امام الجيش ، ومن ثم يبقى في الاسر مدى حياته

« فأقر الملك هذا الرأي وأرسل الامير الى جزيرة ارمز وسلمه الى حاكمها بينما كان الجيش يندب فقده ، وقتل الوصيف الذي اشترك في تنفيذ المهمة ووقف على السر . وكان حاكم القلعة يعامل أسيره بمنتهى الاحترام ويخدمه بنفسه حتى لا يراه احد من الخدم . وقد خطر لهذا الامير ذات يوم ان يحفر اسمه في ظهر اناء ، فلاحظ الاسم أحد الخدم وحمل الاناء الى الحاكم أملا في ان يثيبه ، غير ان الحاكم أمر بقتله على الأثر حتى يدفن معه سر هذا مبلغه من الخطورة

« ولبث جعفر سنيناً عديدة في قلعة أرمز ثم نقل الى قلعة أصفهان وفي أرمز وفي أصفهان كان يوضع على وجه السجين قناع متى دعت الضرورة الى ان يعرض للانظار بسبب مرض او غيره . ويؤكد عدة من الثقاة انهم رأوا ذلك السجين المقنع ، ويروون انه كان يسيء معاملة الحاكم بينما كان الحاكم يعامله بمنتهى الاحترام »

غير ان كثيرين ينقضون هذه الرواية لان حكاية صفع الكونت دي فرمندوا لاخيه ولي العهد لم يسمع بها احد في ذلك العهد ، ولم يرو خبرها في البلاط قط ، مع انها لو صحت لذاعت في البلاط وغيره وعلم بها كل انسان ، ذلك الى انه ورد في خطاب أرسله باربزييه الى سان مارس حاكم الباستيل في ١٣ اغسطس سنة ١٦٩١ ما يأتي : « اذا حدث ما يدعو

لأن تستشيرني في امر السجين الذي عهد اليك بحراسته منذ عشرين سنة فأرجو ان تتخذ نفس التحوطات التي كنت تتخذها في الكتابة الى المركيز دي لوفوا » ولا يمكن ان يكون الكونت فرمندوا الذي أذيعت وفاته رسمياً في سنة ١٦٨٣ هو السجين المجهول الذي مضى على أسره في سنة ١٦٩١ عشرين سنة

كذلك روت الآنسة دي منبانسيبه في مذكراتها ان الملك لم يكن راضياً عن سلوك ابنه الكونت فرمندوا فلم يبقه في البلاط وأرسله الى معسكر كورتراي في بدء نوفمبر سنة ١٦٨٣ ، وفي ١٢ نوفمبر مرض الامير واصابته حمى شديدة اودت بحياته في ١٩ نوفمبر سنة ١٦٨٣

وفي سنة ١٧٥١ ظهر كتاب ڤولتير « عهد لويس الرابع عشر » وكان الرأي العام ينتظر ظهوره بفارغ الصبر ، ويؤمل ان يجد فيه شرحاً لسيرة ذلك السجين الخفي الذي لبث خبره حيناً من الدهر موضع الاشاعات الغريبة والروايات المدهشة

والواقع ان ڤولتير تناول تلك السيرة ، وتناولها بوضوح لم يسبقه اليه أحد ، ووصفها بأنها حادث يجهله كل المؤرخين . واليك ملخص روايته التي ذكرها في الفصل الخامس والعشرين من كتابه المذكور :

ان سجن هذا الاسير يرجع الى ما بعد موت مازاران ببضعة أشهر اي حوالي سنة ١٦٦١ وان الاسير كان فتى أجمل ما يكون طلعة ، وأنبل ما يكون محيا ، بديع التركيب ، يربو طوله على المعتاد ، ويميل لونه الى السمرة . ووصف ڤولتير قناعه فقال ان الجزء الذي يلي ذقن الاسير كان يفتح ويغلق بواسطة أزرار من الصلب بحيث يستطيع ان يتناول طعامه والقناع باق على وجهه . ثم يضع تاريخ وفاة الاسير في سنة ١٧٠٤ ويقول انه دفن ليلا في أبرشية كنيسة سان بول

ورواية ڤولتير تكاد تشبه رواية « مذكرات فارس » التي أتينا عليها خلا السبب الذي أدى الى سجن الاسير فهو يقول ان الاسير حينما أرسل الى جزيرة سانت مرجريت ثم الى الباستيل تحت حراسة سان مارس

الضابط الثقة كان يضع قناعه على وجهه أثناء الطريق ، وكان حارسه مأموراً بقتله اذا أسفر ، وان المركيز دي لوفوا ذهب الى زيارته في الجزيرة وتخاطبه باحترام جم . ثم نقل الى الباستيل في سنة ١٦٩٠ وأحسن رعايته هناك قدر الاستطاعة ، وكان الحاكم يبالغ في اكرامه وينفذ طلباته ورغائبه ، وقلما كان يجلس أمامه

ويضيف ڤولتير الى ذلك بعض تفاصيل أخرى أمده بها دي برنافيل خلف سان مارس في حكم الباستيل ، وطبيب شيخ موظف بالسجن كان يعالج المريض ، وكثيراً ما فحصه دون ان يرى وجهه قط . ويقول ايضاً أن دي شاميار كان آخر وزير وقف على ذلك السر الغريب . وقد حدث أن صهر شاميار المارشال لافيارتوسل اليه ساعة احتضاره (سنة ١٧٢١) أن يخبره بسر ذي القناع الحديدي فأبى واجابه بأن أقسم أن لا يبوح بذلك السر أبداً . ومما يقوله ڤولتير في تعليقه على ذلك « ان ما يضاعف الدهشة هو انه لم يختف في أوربا أي شخص من العظماء حينما زج بذلك الشخص المجهول الى جزيرة سانت مرجريت »

وأذاع جماعة من علماء هولاندا في الوقت الذي طلع فيه ڤولتير بروايته رأياً جديداً هو أن ذي القناع الحديدي كان سيداً اجنبياً فتى ، وصيفاً لحنة دوتريش ملكة فرنسا وهو والد لويس الرابع عشر الحقيقي ، ويستند اصحاب هذا الرأي الى مؤلف ظهر في كولونيا سنة ١٦٩٢ عنوانه « غرام حنة دوتريش زوج لويس الثالث عشر والسيد ك . د . ر والد لويس الرابع عشر الحقيقي ، وفيه شرح للطريقة التي دبرت لايجاد وارث للعرش » ويقول مؤلف هذا الكتاب ما يأتي : « ان هذه العلاقة تفضح الغموض الذي يحيط بحقيقة مولد لويس الرابع عشر ، فان الفتور الذي عرف عن لويس الثالث عشر ، ومولد هذا الابن الغريب بعد أن لبثت أمه عاقراً ثلاث وعشرين سنة دليل قاطع على النسل المستعار ، وحجة مدحضة لكل من يجرأ على نسبة الولد الى ابيه المزعوم . وقد جاهر زعماء

ثورة الفروند حينما تولى لويس الرابع عشر الملك بفساد نسبه وتناقل جميع الناس ذلك الخبر »

ثم يشرح ظروف تلك القصة الغرامية في موضع آخر فيقول : « لما شعر الكردينال دي ريشليه بحب الدوق دورليان (أخي لويس الثالث عشر) لابنة اخته باريسياني أراد ان يحمله على الزوج منها ، ولكن الدوق ثار لاقتراح الكردينال وصفعه، فاشار الاب يوسف (امين ريشليه) على الكردينال بأن يعمل على حرمان الدوق من العرش لان عقم لويس الرابع عشر كان يفسح أمام أخيه باب الامل ، فدفع الى حنه دوتريش بفتى هو « ك . د . ر » كانت الملكة قد لاحظت هيامه بها ، فلم تقاوم حنه دوتريش سوى مقاومة ضعيفة . وفي الغد قالت للكردينال : لقد ربحت قضيتك الخبيثة ؛ واستمرت هذه العلاقة الجديدة حيناً ، حتى بدت أمارات الحمل على الملكة ، وطار الخبر في جميع أنحاء المملكة . وهكذا وُلد لويس الرابع عشر ابن لويس الثالث عشر بطريق الاستعارة »

غير ان هذا الرأي الذي أذاعه العلماء الهولنديون لم يلق تأييداً كبيراً وما لبث أن دحضه شرح جديد طلع به لاجرانج شانسل معارضاً به رأي فولتير

وكان لاجرانج في عامه التسعين ، فأذاع عن ذي القناع الحديدي تفصيلات جديدة قال انه استقاها من مصادر وثيقة أثناء سجنه في الامكنة التي كان يقيم فيها قبله الاسير المقنع

وهذا ما قاله لاجرانج شانسل في روايته : استطعت اثناء سجني في جزيرة سنت مرجريت حيث لم يكن أمر ذي القناع الحديدي سراً في الوقت الذي أخذت فيه اليها أن اقف على تفصيلات كان في استطاعة مؤرخ اكثر تحقيقاً من فولتير أن يقف عليها لو أنه عني باستخراجها وبدرسها . أن ذلك الحادث الغريب الذي ينسب وقوعه الى سنة ١٦٦٢ بعد وفاة الكردينال مازاران ببضعة أشهر لم يقع الا في سنة ١٦٦٩ . وقد أكد لي دي لاموت جيران حاكم سنت مرجريت وقت أسري

أن ذي القناع الحديدي هو الدوق دي بوفور الذي قيل بأنه مات قتيلا في كانديا ولم يعثر انسان بجثته ، وقال لي أيضاً أن المسيو سان مارس الذي حكم الجزيرة قبله كان يعامل هذا السجين باحترام شديد ، ويخدمه بنفسه ، وينفذ كل رغباته ، وأن السجين حين مرضه كان يؤمر ألا يظهر أمام الطبيب الا مقنعاً بقناعه الحديدي والا أعدم على الفور ، وأنه كان يستطيع متى انفرد أن يرفع قسمه الإسفل بواسطة أزرار لماعة من الصلب ، وأكد لي عدة اشخاص أنهم — لما عين سان مارس حاكما للباستيل وتأهب لان ينقل السجين معه هنالك — سمعوا السجين ، وقد كان عندئذ مقنعاً بقناعه الحديدي يقول لسان مارس : هل يريد الملك موتي ؟ فاجابه سان مارس كلا أيها الامير فان حياتك في أمان وما عليك الا أن تترك لي قيادتك

« وعلمت فوق ذلك من شخص يدعى دوبويسون أنه بعد أن لبث سجيناً في الباستيل عدة أعوام نقل الى سنت مزجريت ووضع مع سجناء آخرين في غرفة تقع تماماً فوق غرفة ذلك السجين المجهول ، وأنهم استطاعوا بواسطة فراغ الموقدة أن يخاطبوه مراراً غير أنه لم يرض أن يبوح لهم باسمه قط ، وكان جوابه دائماً « أن ذلك التصريح يكلفه حياته وحياة كل من يفضي اليهم بسره »

والواقع أن لويس الرابع عشر أرسل الدوق دي بوفور أمير البحر في سنة ١٦٦٩ على رأس حملة بحرية لاغاثة كانديا التي كان يحاصرها الترك ، فقتل هنالك عقب ابتداء المعركة ببضع ساعات ولم توجد جثته قط بالرغم من كل بحث وتنقيب ، فزعم بعضهم بأن الدوق دي بوفور لم يمت وأنه أسير في يد الاتراك ، وزعم آخرون أن لويس الرابع عشر نقم من أميراله فشله في عدة حملات بحرية فأذاع نبأ وفاته كذباً وزجه الى السجن ، وانه هو ذو القناع الحديدي المشهور ، وهذا هو الرأي الذي أذاعه لاجرانج شانسل — وهو رأي ليس براجح من الوجهة التاريخية لان عدم الاهتداء الى جثة الدوق دي بوفور بين قتلى معركة كانديا يرجع الى أن الترك قطعوا رأسه بعد قتله وحملوها الى القسطنطينية كما كانوا يفعلون بالقواد وكبار

الضباط من أعدائهم ، ولانه مهما كانت أخطاء الدوق دي بوفور الحربية فانه لم يك ثمة ضرورة قاهرة تلجىء لويس الرابع عشر لان يشكبه سراً ، وان يفرض عليه السجن على ذلك النمط الرائع ، ولان الانتقام من الدوق دي بوفور لم يكن فيه خطر على الدولة أو العرش فيقتضي اتخاذ تلك الاجراءات الغريبة الفذة

* * *

وهنالك طائفة أخرى من الروايات والفروض لا نرى محلا للافاضة فيها لانها أقرب الي الخيال منها الى الحقيقة ، ولانه يوجد من الادلة التاريخية القاطعة ما يدحضها وينقضها

ننتقل بعد ذلك الى أصح الآراء وأقربها الى المعقول وا كثرها فوزاً بتأييد الادلة والوقائع التاريخية

أتينا على ما ذكره ڤولتير في كتابه (عهد لويس الرابع عشر) خاصاً بذي القناع الحديدي ورأينا أن ڤولتير بالرغم مما أورده من التفصيلات الدقيقة عن هـذا الاسير يتجنب الاشارة الي حقيقة شخصه : وقد لبث ڤولتير بعد أن طلع بهذه الرواية حيناً يتجنب الجدل والمناقشة في ذلك الموضوع ، فلما فرغ معارضوه من الادلاء بآرائهم وحججهم نهض لدحضها ، فكتب مقالا في « القاموس الفلسفي » يسخر فيه من آرائهم وفروضهم ، ويقيم الحجة على بطلانها وسخفها ويقول في ختامه ما يلي : « بقي علينا بعد أن دحضنا كل هذه الاوهام أن نعرف من هو ذو القناع الخالد ، وفي أي سن توفي . من الواضح أنه من الحظر عليه ألا يظهر في ساحة الباستيل ، وألا يكلم طبيبه الا مقنعاً يرجع الى الخوف من أن يتبين أحد في ملامحه مشابهة مدهشة جداً . كان في وسعه أن يتكلم ولم يكن له أن يسفر قط . أما سنه فقد ذكر هو لصيدلي الباستيل قبل وفاته ببضعة أيام أنه يعتقد أنه بلغ الستين من عمره ، وقد نقل اليّ هـذه الرواية السيد مارسوبان جراح الماريشال دي ريشليه والدوق دورليان وصهر ذلك

الصيدلي ، وقد يعرف كاتب هذا المقال أكثر مما يعرف سواه غير أنه لن يفضي بشيء »



ذو القناع الحديدي

ثم امسك ڤولتير منذ أن طلع بهذا التصريح الجديد عن الخوض في موضوع ذي القناع الحديدي . وقد أفضى اليه بهذا السر الذي اشار اليه من طرف خفي المارشال دي ريشليه ، والظاهر أن وقوف المارشال عند حد الاشارة والتلميح بالرغم من خفته وصراحته يرجع الى أنه حُذّر من أولي الامر وهُدّد بسوء العاقبة

فمن هو ذلك « الامير » الذي غدا السجين المقنع ؟ هل هو أخ غير شرعي او توأم ؟ اما الراي الاول فيراه كابتان كروفورد في كتابه « تاريخ الباستيل » وذكره المركيز دي لوشيه أيضاً في سنة ١٧٨٣ حيث نسب أبوة ذلك الأخ غير الشرعي الى الدوق دي بوكنجهام الذي قدم الى فرنسا سنة ١٦٢٥ ليعود الى انجلترا بالاميرة هنريت اخت لويس الثالث عشر التي زوجت من ولي عهد انجلترا ، فنشأت بينه وبين الملكة حنة دوتريش زوجة لويس الثالث عشر وام لويس الرابع عشر علائق غرامية كانت ثمرتها ذلك الولد غير الشرعي . واستشهد على روايته بأقوال الآنسة دي سان كابتان خليلة الوزير باربزييه التي توفت في منتصف القرن الثامن عشر والتي صرحت مراراً بأن لويس الرابع عشر حكم على أخيه بالسجن المؤبد وأن الشبه القريب بين الاخوين هو الذي دعا الى اختراع القناع الحديدي

واما الرأي الثاني فقد ذكره الاب سولافي في مذكرات المارشال دي ريشليه ، وهذا ملخص ما ورد بشأنه على لسان المارشال :

« حدث في وقت ما في عهد الملك المتوفي (لويس الرابع عشر) أن تساءلت كل المجتمعات على اختلافها عن شخصية ذلك السجين الشهير الذي يعرف بالقناع الحديدي ، غير أن ذلك الفضول قد خفت حدته حينما نقل السجين الى الباستيل وأذيع أن الامر قد صدر بقتله اذا عرف أحداً بشخصه ، بل أذاع سان مارس أن من يجرأ على كشف حقيقته يشنق ايضاً ، فبدد هذا التهديد عاصفة الفضول ، وتكلم الناس بعد ذلك همساً في أمر ذلك السجين المجهول

« وقد كان الكاتب المجهول « للمذكرات السرية لبلاط فارس » التي نشرت في الخارج بعد وفاة لويس الرابع عشر أول من تجرأ على الخوض في موضوع السجين ، ومنذ ذلك الحين ازداد الحديث في شأنه ، واشتدت جرأة المتكلمين والكتاب ، وكثر الحدس والافتراض عن أمر السجين في كل كتاب او مذكرة تكتب عن عهد لويس الرابع عشر

« ومع ذلك فقد طلب الي وأنا على أهبة الموت ، وبعد أن مضى

سبعون عاماً على وفاة لويس الرابع عشر أن أقول من كان ذلك السجين

« وهذا هو نفس السؤال الذي ألقيته في سنة ١٧١٩ على الاميرة المعبودة التي كانت تحبني ، ويحبها النائب (الدوق دورليان وصي لويس الخامس عشر) . ولما أن كان يعرف في ذلك الحين أن النائب يقف على سر ذي القناع الحديدي فقد حاولت أن أنتزعه منه بواسطة الاميرة التي كان مشغوفاً بهواها بالرغم من انها كانت لا تبادله حبه ولا تقابله الا بالاحترام . وكان النائب يحاول ارضاءها بكل الوسائل ويبتهج أيما ابتهاج اذا لاحت له في هواها بارقة أمل . فطلبت اليها أن تفهم النائب أنها تكون راضية سعيدة اذا سمح لها أن تقرأ المذكرة التي أنشأها عن القناع الحديدي

« وكان النائب كتوماً لاسرار الدولة شديد الضن بها ، ولم يك ثمة أمل كبير في أن تنجح محاولة الاميرة غير أن هواه كان مبرحاً ، ومبرحاً جداً . . . .

واذاً فقد شاء النائب أن يكافئها باطلاعها على تلك المذكرة الشهيرة . وأرسلت الى الاميرة بهذه المذكرة في اليوم التالي مرفقة برسالة رقمية ، لانها كانت تكتب اليّ رسائلها الغرامية بالارقام أيضاً »

وهذه هي خلاصة هذه المذكرة الشهيرة :

(قصة مولد وتربية الامير المنكود الذي انتزعه من المجتمع الكردينالان دي ريشليه ودي مازاران ، وسجنه لويس الرابع عشر) كتبها حاكم ذلك الامير في فراش موته

« ولد الامير المنكود الذي ربيته وحرسته حتى مرض موتي في ٥ سبتمبر سنة ١٦٦٨ في منتصف الساعة التاسعة مساء . وولد أخاه الذي يحكم الآن في ظهر نفس اليوم . وكان الملك جالساً الى العشاء مهنا حينما أخطرته القابلة بأن الملكة ما زالت تحمل ولداً ثانياً . فبقي الملك في غرفته وابقى معه مستشار الدولة والكاهن الاكبر ليشهدا ما يحدث ، وليتشاوروا الجميع فيما يجب فعله اذا ولد طفل ثان .

« وحدث للدهش ووضعت الملكة ولداً ثانياً أجمل من أخيه ، فكتب

المستشار محضراً بذلك الحادث الغريب ووقعه الحضور ومنهم الطبيب والقابلة ، ووقعت أنا أيضاً ، واقسمنا جميعاً بكتمان ذلك السر ، وحفظ ذلك المحضر ولم لسمع به بعد قط ، وقالت لي القابلة التي عهد اليها بالعناية بالمولود الجديد انها هددت بالقتل اذا باحت بشيء ، بل حظر علينا نحن الذين شهدنا ذلك الحادث أن نشير اليه فيما بيننا ، وفي مجالسنا الخاصة لان الملك كان يخشى بحق أن يكون وجود وليين للعهد سبباً في اثارة الحرب الاهلية وخراب الدولة ، غير أنه كان يعتبر وجود الامير الجديد لازماً لسلام الدولة اذا مات اخوه وصارت ولاية العهد اليه . ولذلك أمرنا أن نحرر محضراً بصفات الطفل الجسمية وختمه بخاتمه ، وعهد بحراسة الطفل والعناية به الى نيافة الكردينال

« ولما بلغ الطفل أشده عهد اليّ نيافة الكردينال مازاران الذي تولى أمره بعد الكردينال ريشليه أن أهذبه وأربيه تربية أولاد الملوك ولكن في منتهى الكتمان والخفاء . فربي الامير في منزلي في بورجونيا مرعياً بكل ما يجب ان يغدق على ابن ملك وأخ ملك

« وكنت كثيراً ما أحادث الملكة في شأن الطفل الملكي ، وكثيراً ما أعربت لي جلالتها أثناء الثورة (ثورة الفروند) خوفها من أن افتضاح سر ميلاد الامير يقوي ساعد الثوار ، ويسلحهم بسلاح قوي لان بعض الاطباء يرون أن ثاني التوأمين هو الذي تكوّن منهما أولا في رحم والدته ، وعلى هذا فقد يزعمون أنه هو الملك الحقيقي . غير ان هذا الخوف لم يحمل الملكة قط على اعدام المستندات المؤيدة لميلاد الامير وشخصيته لأنها كانت تعتزم في حالة وفاة أخيه الملك (لويس الرابع عشر وكان طفلا تحت الوصاية) ان تعلن ان لها ولدان ثم تنادي به ملكا مكان أخيه

« وقد احسنت تربية الامير المنكود ، واغدقت عليه صنوف الرعاية والتهذيب ، غير اني لشدة عطفي عليه اسأت اليه من حيث لا اقصد لانه لما بلغ التاسعة عشرة ألح عليّ كثيراً في ان اعرفه بشخصه وذويه ولكنني قاومته وامسكت عن الايضاح فاعتقد عندئذ انه ولد غير شرعي لي ، وانه

ثمرة هوى وسفاح ، وكثيراً ما حاولت أن انفي عن ذهنه تلك الفكرة غير انه كان يصر على رأيه ، وربما كان اصراره هذا تظاهراً منه وحيلة لان يحملني على التكلم والافضاء اليه بالحقيقة . واستمر ذلك التجاذب حيناً بيني وبينه الى ان حدث حادث سيء استطاع أن يقف منه على ذلك السر الخفي ، وذلك أنه كان يلاحظ من وقت لآخر قدوم رسل الملك الى داري ، وكنت قد وضعت في خزانتي بعض رسائل جاءتني من الملكة ومن الكردينالين ، فاستطاع أن يقرأ بعضها ، وأن يقف على طرف من الحقيقة ، وأن يدرك باقيها بثاقب فكره . ثم اعترف لي بعد ذلك انه استولى على أوضح وأقوى خطاب يثبت حقيقة ميلاده

« ولاحظت منذ ذلك الحين أن حبه واحترامه العميق لي قد تبدلا بجفاء وخشونة ، ولم أدرك سبب ذلك بادىء بدء لانه أبى أن يعترف لي كيف استطاع أن يفتح خزانتي . ثم طلب الي بعد ذلك أن أوافيه بصورة للملك المتوفي وأخرى للملك الحاكم فماطلت في اجابة طلبه . وكان في منزلي وصيفة حسناء راقت في عين الامير فمال اليها وأولاها عطفه . وبالرغم من أنني قد حظرت على جميع الخدم ألا يقدم أحدهم شيئاً الى الامير دون اذني فقد حملت اليه هذه الوصيفة خلسة صورة للملك ، فلما رآها اشتد غضبه وحنقه ، وصاح في وجهي هذا أخي ! ثم أشار الى رسالة من رسائل الكردينال مازاران وصاح لقد عرفت من أنا !

« فخشيت عندئذ أن يفر الامير وأن يقع ما يكدر فارسلت رسولا الى الملك يخبره بما حدث من فتح الخزانة ، وبما يراه ، فألقى الملك أوامره الى الكردينال وهي تقضي بسجننا نحن الاثنين حتى تصدر أوامر جديدة ، وبتفهيم الامير أن زعمه هو سبب نكبتنا . وقد لبثت أشاطر الامير سجنه حتى اذن الله بأن تقضى أيامي . وما كان بوسعي أن أرفض الاعتراف الى الامير بالحقيقة ، وبالوسائل التي يستطيع بها أن يخرج من سجنه اتمس اذا توفى الملك دون وارث لان اليمين المفروضة لا تلزم المرء أن يكتم أموراً هائلة لا بد من كشفها الى الخلف »

هذا هو ملخص المذكرة التاريخية التي اطلع نائب الملك لويس الخامس عشر الاميرة عليها . ولنا في الحال أن نتساءل لم ظلت هذه المذكرة غفلا من توقيع صاحبها بالرغم من أنها بقيت في الخفاء نحو قرن ؟ ومن هو هذا الحاكم الذي عهد اليه بتربية الامير في بورجونيا ؟ هل كان حاكم هذه المقاطعة أم سيداً كبيراً من سادة البلاط ؟ وهل اختفى من بورجونيا سيد كبير وفتى تحت رعايته لا يتجاوز العشرين حينما قضى الملك عليهما بالسجن ؟

هذه أسئلة تتعذر الاجابة عليها . غير أنه ايضاً يصعب تكذيب هذه المذكرة لان الاب سولافي الذي كتبها باملاء الماريشال دي ريشلييه ، ألح عليه في أن يفيض في شرحه بأكثر من ذلك ، فأبى الماريشال غير أنه أكد للاب أن السجين لم يكن أخاً غير شرعي للملك ، ولم يكن الدوق دي بوفور ، أو الكونت فرمندوا أو غيرهما من الاشخاص الذين تخيل الكتاب أنهم ذو القناع الحديدي وان كان كثيراً مما كتبه أولئك الكتاب عن ظروف السجين وسجنه حقيقي لا ريب فيه

ونحن نقرر بعد ذلك على القارىء ما دار من الجدل الكثير حول معرفة ما اذا كان ذو القناع الحديدي أخاً غير شرعي للملك أو توأماً ، غير أننا نختم بحثنا بهذه الملاحظة :

اذا كان ثمة ريب في شخصية ذي القناع الحديدي ، واذا كان قد تقرر الزامه بالتحجب الابدي فلا ريب أن ذلك يرجع الى أنه اذا أسفر فقد يعرف في فرنسا من أقصاها الى أقصاها ، أو بعبارة أخرى كانت هنالك مدى نصف قرن رأس كبيرة تعرف في جميع أنحاء فرنسا ولو كانت في سجن منعزل في احدى الجزر النائية

فمن كانت هذه الشخصية الكبيرة المعروفة لكل فرنسي ، وكانت تشبه الاسير المقنع غير لويس الرابع عشر أخاه التوأم ؟

— هذا فرض معقول جداً فعلى من لا يأخذ به ان يقدم الدليل على كذبه ، بل ان يقدم لنا شرحاً له ما له من التأييد والرجحان

فولتير في صورة المحامي

قضية كالا سنة ١٧٦٢ — ١٧٦٥

— ١ —

كتب فولتير الفيلسوف الفرنسي الاكبر في آخر أيامه رسالة ومذكرات عنوانها « الدفاع عن المظلومين » خلد فيها دفاعه في قضية شهيرة ألفى في ظروفها ميداناً شاسعاً لنشاطه الجم، وبيانه الملتهب، وقلبه السيال أعواماً ثلاثة.

ولم تكن غاية المفكر الكبير أن يصل الى نصرة مظلوم فقط، وانما كانت له غاية أبعد كما سترى وهي ان يستغل ظروف قضية كانت في الواقع ذات صبغة دينية في تأييد دعوة أنفق في اذاعتها من جنانه وفصاحته ونشاطه جهوداً فادحة، وهي محاربة التعصب الديني، وارهاق الضمائر، وحرية الافكار.

وقد فاز فولتير في جهاده فوزاً مزدوجاً، فقد محى وصمة العار والجريمة عن أبريائه على قوله، زهق أحدهم ضحية التعصب الديني والخطأ القضائي، وقد أخمد كثيراً من جذوات البغضاء الدينيــة التي كانت تعمي القلوب والبصائر عندئذ، وكثيراً ما تفضي الى الجرائم وسفك الدماء

***

واليك ملخص وقائع هذه القضية التي خلدها قلم فولتير

كان جان كالا، وزوجه آن روز كابيبل، يسكنان مدينة تولوز منذ ثلاثين عاماً، وكان الزوج يتاجر في الاقمشة الهندية وقد أثرى وجمع ثروة حسنة. وكان لهما اربعة أبناء وبنتين

وكانت الاسرة تقيم في منزل بشارع فيلانييه، وتسكن في الطبقة العليا منه، وكان في الطبقة السفلى رواق يفضي الى الشارع، وفيه باب مخزن تخزن فيه البضائع، وهذا المخزن يفضي من باب ذي مصراعين الى

حانوت البيع المشرف على الشارع نفسه

وكان الاب كالا في الوقت الذي نتحدث فيه (سنة ١٧٦١) يناهز الثالثة والستين من عمره ، وهو كما يصفه شهود القضية شيخ مديد القامة ، متين البنية ، جاف الملامح . ولكن ڤولتير يصفه في مذكراته ـ خدمة لغايته ـ بأنه شيخ متهدم يناهز الثامنة والستين

أما الابناء الاربعة فهم مارك انتوان (المجني عليه) وسنه تسع وعشرون سنة ، وبيير وسنه ثمان وعشرون ، ولويس وسنه خمس وعشرون ، ودونا وسنه اثنان وعشرون . وأما الابنتان فقد كانت احداهما في التاسعة عشرة والاخرى في الثامنة عشرة

وكانت اسرة كالا بروتستانتية المذهب ، وكان البروتستانت منذ أن نقض لويس الرابع عشر قرار نانت [1] في سنة ١٦٨٦ موضع اضطهاد شائن خصوصاً في جنوب فرنسا حيث كانت لهم بقية من العصبية ، وكان زعماء الكثلكة وأعوانها من جنود الملك يطاردون البروتستانت ويستحلون دماءهم وأموالهم أينما استطاعوا الى ذلك سبيلا تطبيقاً للامر الملكي الذي ينص على « اعدام كل من يضبط مقيماً لشعائر دينية غير شعائر الكثلكة » وفي وسعك أن تقرأ فصولا رائعة من تلك المطاردة المجرمة في بعض القصص التاريخية التي كتبها أوجين سو واسكندر دعاس الكبير [2]

وكان قد وقع في تلك الاسرة حادث يعتبر في مثل هـذه الظروف مصاباً مؤلماً ، ذلك أن لويس أحد الابناء الاربعة ارتد عن دينه متأثراً بوعظ الخادمة العجوز جانيت فجيه واعتنق الكثلكة ، فنبذته أسرته ، وهجرها منذ بضعة اعوام . وقد يدهشك وجود خادمة كاثوليكية في قلب أسرة بروتستانتية ، ولكن الواقع أنها كانت ضرورة في ذلك الحين لان

---

(١) هو القرار الشهير الذي أصدره هنري الرابع في سنة ١٥٩٨ وبه نال الهوجنوت (البروتستانت) حرية الضمير وحق التعبد في الكنائس والمساواة بالكاثوليك في وظائف الدولة ومقاعد البرلمانات

(٢) مثل « مذابح الجنوب » لديماس و « متعصبو السيفين » لسو

الامر الملكي ينص على وجوب استخدام البروتستانت لخدم من الكاثوليك اذا رغبوا في الاستعانة بالخدم . وكان ولد آخر هو دونا يشتغل في نيم بعيداً عن اسرته

يقول ڤولتير ان استخدام الاب كالا لخادمة كاثوليكية دليل على تسامحه واعتداله ، ولكن رأيت أن كالا لم يكن حراً في اختيار خادمته . ويقول أن هناك دليل آخر على هذا التسامح هو ان كالا كان يمد ولده لويس الذي ارتد عن دينه بالمال ، ولكن الواقع أنه لم يسعف ولده بالنفقة الا بعد مساع وشكايات عديدة

وقد حدث بعد ذلك أن مارك انتوان الابن البكر ، أبدى بدوره ميلا الى الكثلكة ورغبة في اعتناقها ، فثارت على أثر ذلك مناظر عاصفة بينه وبين أبويه ، ثم ما لبث الفتى أن وجد ذات مساء مخنوقاً وملقى في حانوت والده جثة هامدة

***

كان ذلك في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ . في نحو الساعة التاسعة ونصف من مساء ذلك اليوم سمع سكان شارع فيلاتييه أنيناً وصراخاً واستغاثة صادرة من منزل أسرة كالا ، عقبتها حركة وهرج ووقع أقدام ذاهبة آتية مما ينم عن وقوع حادث خطير ، ولم تمض على ذلك بضع دقائق حتى فتحت الخادمة العجوز جانيت الباب المشرف على الشارع وصاحت « آه ياربّاه ! لقد قتلوه » فهرع الجيران ليروا ما الخبر واحتشدوا أمام الباب ليستطلعوا عما حدث ، فبرز اليهم الاب كالا نفسه ونبأهم أن ولده الكبير مارك انتوان قد وُجد منذ بضع دقائق قتيلا في المخزن الواقع في الطبقة السفلى وراء الحانوت ، وانه يعتقد أن مرتكبي الجريمة نفر من الاشقياء . وقال أعضاء الاسرة ان بير كالا هو الذي عثر بجثة أخيه حينما نزل الى أسفل الدار ليشيع الى الباب صديقاً للاسرة هو الفتى لافاييس . وان بير ولافاييس حينما مرّا بباب المخزن المفتوح وفي يد بير مشعل منير لحا جثة مارك انتوان ممدة فوق الارض على ظهرها في الظلام الدامس ،

فرأسها عار ، وليس عليها من الثياب سوى القميص والسراويل والحذاء ، اما باقي الثياب فقد نزعت ولفت بعناية ووضعت فوق مائدة هنالك ، ومن الغريب ان الميت كان يلبس حول عنقه رباطاً اسود لم يعتد على لبسه

فنادينا الاب كالا على الاثر ، فهرول اليهما تتبعه زوجه وخادمته ، وحاول الجميع عبثاً ان يعيدوا مارك انتوان الى صوابه بالمنبهات حيث اعتقدوا انه جريح ومغمى عليه فقط ، واستدعى القتوان في الحال مساعد طبيب هو السيد جروس ، فاخترق الجمع المحتشد ، ونفذ الى المخزن ، حيث شاهد جثة مارك انتوان كما وصفناها . ولما رفع الرباط الاسود من العنق شاهد في العنق اثرين مستديرين أحمرين مما يلي الاذن ، هما بلا ريب أثرا حبل سميك خنق به مارك انتوان

وعندئذ ساد الهرج ، وكثر الحدس واشتد الجدل وأخذ الحضور يهمسون بان القتلة لا يمكن ان يكونوا قد نفذوا الى المخزن من الخارج لان احداً من الجيران لم يشهد غريباً دخل الدار او خرج منها ، ولانه لم توجد آثار كسر ولم ترتكب سرقة ما

ولنلاحظ ان ابنتا كالا لم تكونا بالمنزل هذا المساء لانهما ذهبتا منذ الصباح لزيارة أسرة صديقة في ضواحي تولوز وانفقتا الليل عندها

* * *

استدعى مأمور الشرطة دافيد دي بودريجيه ، ويقول فولتير في مذكراته خطأ ان الذي استدعاه هو اسرة كالا ، فالذي استدعاه هو أحد الجيران كما ثبت في التحقيق بعد . وكان لمأمور الشرطة عندئذ اختصاص قاضي التحقيق ، فبدأ مباحثه ، واستجوب اعضاء الاسرة ونفراً من الجيران ، وقد لاح له بادىء بدء ان اجوبة اعضاء الاسرة يحوطها الريب وأنها محفوظة متماثلة ، وانهم يحاولون ان يخفوا عنه بعض الامور ، فعهد في الحال الى اطباء ثلاثة بفحص الجثة ، واقتاد افراد الاسرة كلهم والفتى لافاييس الى دار البلدية ، وبدأ التحقيق معهم على الاثر

فكانت اجوبة الجميع واحدة ايضاً ، وملخصها انهم اجتمعوا للعشاء

في نحو الساعة السابعة مع الفتى لافايس الذي دعوه هـذا المساء مصادفة لتناول الطعام معهم ، فلما انتهى العشاء نهض مارك انتوان ليذهب الى القهوة حسب عادته كل مساء ، ولبث الباقون يتسامرون بحتى منتصف الساعة العاشرة ، ثم استأذن لافايس في الانصراف ونزل معه بيير كالا يشيعه الى الشارع وفي يده مشعل ينير به الطريق ، فلما وصلا الى باب المخزن المشرف على الرواق شاهدا جثة مارك انتوان ممدة على ظهرها كما وصفت

وشهد الجيران بانهم سمعوا صراخاً واصواتاً تصيح : « آه يا رباه ! آه يا أبتاه ! » ، وأنيناً ، ووقع اقدام ذاهبة آتية مسرعة ، وانهم رأوا الخادمة العجوز تبرز الى عتبة الدار صائحة : « آه يا رباه ! لقد قتلوه ! » على ان الخادمة نفسها أنكرت ما نسب اليها

وإذ ثبت من التحقيق ان مارك إنتوان كان يرغب في امتهان المحاماة وهو ما لم يكن مباحاً الا للكاثوليك ، وانه كان يعتزم ان يحذو حذو أخيه لويس ، وانه كان يتردد على الكنائس ، ونوادي « رهبان التوبة » مما يشعر بقرب ردته ، كان للمحقق ان يفترض انه قد حدث منظر عاصف بين الاب كالا وابنـه ، وأن الاب في ثورة غضبه أقدم على خنق ولده خوفاً من ان يرغم على ان يدفع اليه بعد ردته نفقة جديدة

وهذا ما افترضه مأمور الشرطة دافيد دي بودريجيه

وفي مساء ١٤ اكتوبر قدم الاطباء الثلاثة تقريرهم وخلاصته : « انه من الممكن ان يكون مارك انتوان قد شنق نفسه وأن يكون قد شنقه آخرون »

وفي ١٥ اكتوبر استؤنف التحقيق ، وهنا غير المتهمون اقوالهم تغييراً تاماً وقرروا « انهم كذبوا في الواقع حرصاً على شرف الاسرة وضناً بجثة مارك انتوان ان تشرح حسبما تعامل جثث المنتحرين ، وان الحقيقة هي أن المنكود تولاه اليأس من جراء فشله المستمر في الحياة فشنق نفسه بنفسه وانهم وجدوه مشنوقاً » غير ان ذلك الدفاع الجديد لم ينفع المتهمين بشيء

إذ ثبت انه قد اوحي به اليهم من محاميهم من خطابات كانت مرسلة لهم وضبط المحقق بعضها

وفوق ذلك فقد أثبت مأمور الشرطة فساد هـذا الدفاع من تحقيق بعض النقط المادية المتعلقة به . فقد ذكر المتهمون انهم وجدوا مارك انطوان مشنوقاً بحبل ثبت بهراوة من الخشب نصبت على مصراعي الباب الذي يوصل المخزن بالحانوت ، فتولى المحقق فحص المكان بدقة وفحص الهراوة والباب ، وقاس ارتفاع المصراعين وطول الجثة فتبين له ما يأتي :

(١) ان الهراوة كانت مستديرة ناعمة بحيث متى وضعت فوق المصراعين واشتد جذبهـا الى الأسفل انفتح المصراعان الى النهاية وهوت الهراوة لقصرها

(٢) ان ارتفاع الباب يربو على طول الجثة نحو نصف متر فلا يمكن للمنتحر ان يرفع نفسه الى محاذاة الهراوة ليربط عنقه بالحبل الا باستعمال كرسي او غيره وقد أقر المتهمون بان القتيل لم يستعمل كرسياً وأنه لم يكن في مكان الحادث كرسي او غيره مما يمكن الصعود عليه

(٣) انه يوجد فوق حافة المصراعين غبار كثيف لم تبد عليه آثار ما مما يدل على انه لم يمس لا بهراوة ولا غيرها

يضاف الى ذلك انه لا يعقل ان انساناً يريد الانتحار يعني في الظلام الدامس بأن ينزع ثيابه وان يلفها ويضعها فوق المائدة ، وأن يلبس ربطة عنق لم يعتد على لبسها ، وان يدبر في الظلام كل ما يلزم لتنفيذ مشروعه

ثم يضاف الى كل ذلك تناقض المتهمين في اقوالهم ، والصيحات والانين والاستغاثة والهرج التي سمعها الجيران وشهدوا بوقوعها

* * *

وفوق ذلك فقد كان جو العدالة وقتئذ ملبداً بالسحب ، قابلا للتأثر بمختلف التأثيرات ، وكان التعصب الديني يعصف بكل عفاية مستنيرة ، ويخضع الرأي العام لصولته الغشومة مهما كانت اسباب التأثير من البطلان والسخف ، مثال ذلك ان جماعة « رهبان التوبة » في تولوز أقاموا موكباً

عظيماً للاشادة بذكر مارك انتوان القتيل ، حملوا فيه تابوتاً كبيراً أبيض وضعوا فوقه جثة تحمل شعار الشهداء ، وكتبوا عليه : « ردة الكفر » وطافوا به شوارع المدينـة ومن ورائهم جمع غفير يصيح منادياً بالثأر ومعاقبة المتهمين . وفي وسعك ان تقدر تأثير مثل هذه المظاهرة في رأي عام متعصب يتقد بالحماسة الدينيـة ، ومن ثم تأثيرها في جو القضاء الذي يطلب اليه اجراء العدالة في اشخاص حرمهم الرأي العـام من عطفه وخصهم بسخطه ونقمته

لهذا تناول القضاء الامر بروح مضطربة ، وفي ١٨ نوفمبر سنة ١٧٦١ قضت محكمة المأمورين باحالة الاب كالا وزوجه وابنه على التحقيق العادي وغير العادي بمواجهة الفتى لافاييس والخادمة جانيت ، فاستأنف المتهمون هذا الحكم ، ونشر الاستاذ دي سيدر محامي المتهمين اثناء ذلك دفاعاً عن موكليه قال عنه كاتب انه يفوق دفاع ڤولتير الذي أعجبت به اوربا فيما بعد

غير ان دي سيدر لم يكن له شيء من تأثير ڤولتير ونفوذه ، فلما انتهى التحقيق عين برلمان تولوز المستشار دي كاسانكليرا مقرراً للقضية ، وهو قاض اعترف ڤولتير نفسه بكفايته ونزاهته ، فارتد الى دير في شارتريه ليدرس القضية وليكتب تقريره هناك في الهدوء بعيداً عن كل تأثير

وفي ٢٨ فبراير سنة ١٧٦٢ تقدم الى برلمان تولوز وقرر الادانة ، وفي ٩ مارس نظر البرلمان في طلبات النائب العام ، وقضى بادانة الاب كالا وباعدامه فوق العجلة ، ولم يفصل في امر باقي المتهمين أملا في ان يعترف الاب كالا قبل اعدامه

غير ان الاب كالا احتمل العذاب بشجاعة أثارت اعجاب ألد خصومه وزهقت روحه وهو يعلن براءته

ولذلك أصـدر البرلمان في ١٨ مارس حكمه ببراءة باقي المتهمين رغم تهيج الرأي العام ، بيد انه قضى بنفي بيير كالا وهو ما ينتقده ڤولتير من النقد حيث يقول : « لمَ يقضى بنفيه اذا كان بريئاً ؟ ولمَ يكتفى بالنفي اذا كان مجرماً ؟ »

وقد وقفت الامور عند هذا الحد ولم يتعد هياج الرأي العام مدينة تولوز التي كانت مسرحاً للحادث

— ٢ —

علم ڤولتير بهذا الحادث فلم يعن به في المبدأ عناية خاصة ، ولكن تاجراً بروتستانتياً من تولوز يدعى دومنيك اوديبر عرج في نهاية شهر مارس سنة ١٧٦٢ وهو في طريقه الى جنيف على قصر فرني حيث كان يقيم الفيلسوف واجتمع به ، وقص عليه تفصيلات القضية وما لاقته أسرة كالا خلال المحاكمة من الاضطهاد ، وما أبداه الاب من الشجاعة والجلد ، وأعرب له عن ثابت اعتقاده في براءته وفي ان الحكم عليه لم يكن الا اثراً من آثار نفوذ « رهبان التوبة » الخفي وتعصب برلمان تولوز

ويجب لكي تقدر تأثر ڤولتير بهذا الحديث أن تعلم أنه أنفق حياته في محاربة الاديان التي كان ينعتها « بالنذالة » ، وفي هدم مجتمع عصره ، والامعان في مهاجمة نظمه ورسومه والحملة عليها باسم العقل والحرية والتسامح

نشأ ڤولتير يمقت كل شيء ويزدري كل شيء ، وبدأ حياته الفكرية وهو فتى في العشرين من عمره بنشر رسالة سخر فيها من الكنيسة ومن لويس الرابع عشر فقضى من أجلها بضعة أسابيع في الباستيل ، ثم ألقى بنفسه الى غمار حياة عاصفة خليعة ذاق خلالها مرارة الاضطهاد والسجن ، غير أنه نعم كذلك بلذة الظفر والنفوذ الخارق اذ كان يرسل صواعق نقمته هنا وهناك على جناح قلمه الصارم المروع

وقد طاف ڤولتير أنحاء القارة الاوربية فانفق أعواماً طويلة في انجلترا وفي بروسيا حيث أغدق عليه فردريك الكبير ثقته وعطفه ، وفي هولندا وسويسرا . ثم استقر أخيراً في قصره في فرني على مقربة من جنيف وهو يناهز الستين ، وعكف على مكاتبة الملوك والقصور ، ونصح الامراء والوزراء

ولم ينقطع ڤولتير أثناء حياته كلها لحظة عن المضي في حربه العوان على جميع

النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وكانت وثباته وحملاته المستمرة تروع الملوك والقصور والدول ، وتخضع لصولتها الافراد والجماعات .

كان ڤولتير قوة هائلة حينما وقعت حادثة كالا

***

راع الفيلسوف ما سمعه من تفاصيل ذلك الحادث وهاله وهو الذي أنفق حياته في محاربة الدين والتعصب ان يكون للدين والتعصب في كل



ڤولتير

يوم ضحية ، وان تزهق هذه الضحايا باسم الشرائع والعدالة ، وان ينقلب القضاة الى جلادين للكثلكة

وسواء أكان ڤولتير قد اقتنع ببراءة الاب كالا مما سمعه من دومنيك دالير او لم يقتنع بالنظر الى الجرم مجرداً عن الاعتبارات الدينية ، فانه رأى في ذلك الحادث فرصة لا يجوز اغفالها للقيام بحملة عنيفة على الدين والتعصب تحقيقاً للغاية التي عاش من اجلها وعمل

ولذلك بادر بالعمل فكتب من فوره الى الكردينال دي برنيس

يستفسر منه عن الحقيقة ويعرب له عن تأثره للحادث وارتيابه في نزاهة البرلمان. فأجابه الكردينال بانه لا يعتقد ان القضاة قد شطوا في حكمهم بل لا بد ان تكون قد أملته عليهم ادلة وبراهين مادية. ثم كتب الى اصدقاء له عدة يتحرى ويستفسر ، فوردته الردود من كل ناحية مثبطة غير مشجعة ، غير انه مضى في مجهوده ليظفر بالادلة على براءة الاب كالا ، وليقدم هذه الادلة الى العالم لينزل بالكثلكة ضربة جديدة

كتب فولتير الى دميلافيل : « لقد ثبت ان قضاة تولوز اعدموا اوفر الناس براءة ، ولم يشن الطبيعة البشرية منذ « القديس بارثلمي [١] » قدر ما شانها ذلك التصرف ، فصح ، وليصح الناس ! » وكتب الى دارجنتال : « ليس لي امل الا في الصيحة العامة ، واني اعتقد انه يجب على الاستاذين بومون ومالا ان يثيرا الى صفنا هيأة المحامين كلها ، وان تقرع كل الافواه اذن المستشار بلا ملل ولا انقطاع ، فلتصح دائماً في وجهه: كالا . كالا ! » ثم عاد فكتب الى دميلافيل في ٨ يوليه سنة ١٧٦٢ : « صح اني ارجوك ، واحمل الناس على الصياح فالصيحة العامة دون سواها كفيلة بانصافنا »

وهكذا بدأ فولتير بالتحريض والدعوة لانه لم يحصل على مستند ولا برهان بعد حتى يستطيع ان يتقدم الى القضاء ، ومن الواجب ان يتدرع بالادلة والوثائق قبل اتخاذ أية خطوة رسمية

بيد انه عنى بهذه الناحية ايضاً فألف في جنيف لجنة استشارية من موتون الوزير البروتستانتي وهو اخلص انصار كالا ، والمحامي دي فيجوبر وهو بروتستانتي مهاجر ، ومن طبيبه دي ترونشان ، ومن الصيرف كاتالا. وعهد الى هذه اللجنة المتحمسة بجمع الوثائق والادلة . فنشطت اللجنة الى تنفيذ مهمتها واخذت في سماع الشهادات النافية ، واستجماع الوثائق

---

(١) وهي المذبحة الشهيرة التي دبرتها كاترين دي مديتشي وآل جيز لاستئصال الهوجنوت في يوم ٢٤ اغسطس سنة ١٥٧٢ ، وهو يوم القديس برتلمي ، ولهذا سميت باسمه

واوراق التحقيقات والمحاكمة من تولوز . واستدعى ڤولتير دونا كالا الذي لجأ الى سويسرا الى جانبه ليذيع باسمه نشراته ومذكراته عن القضية ، وكانت هذه النشرات تطبع في سويسرا ، ويعهد ڤولتير باذاعتها ونشرها الى اصدقائه كتاب الموسوعات (الانسيكلوبيديون)

وكتب ڤولتير في نفس الوقت الى بعض اصدقائه من النبلاء مثل الدوقة دانڤيل والدوق دي ريشيليو والكونتة ديجمون يطلب سعيهم في مساعدته لدى البلاط

ولم يخف الفيلسوف غرضه الحقيقي من سعيه المتواصل منذ ان رأى جهوده تسير في طريق النجاح فكشف الى اخصائه واصدقائه عن غايته الحقيقية . ومما كتب الى دارجنتال : « يطربني ان اكسب هذه القضية فأخذل بكسبها رهبان التوبة » ، والى دالامبر : « ان المذكرات التي نكتبها عن كالا لا تكتب الا لاعداد الاذهان ، ولاجل ان نسر بالتهكم على البرلمان ورهبان التوبة والتشهير بهما » . وكتب اليه ايضاً يوصيه بارملة كالا التي ذهبت للاقامة في باريس : « أحمها ما استطعت ايها الاخ فقد كان زوجها ضحية لرهبان التوبة ، ويهم المجتمع البشري ان يُسحق المتعصبون. ايها الاخوان ! فلنصارع النذالة (الدين) حتى النفس الاخير ! »

* * *

مثل هذه الدعوة الشعواء والجهود الفادحة لا تنفق عبثاً ، وكاتب في مقدرة ڤولتير وجبروته لا تعجزه اثارة الرأي العام واستهواؤه

وقد كانت لتلك الدعوة وتلك الجهود أثرها ، فان الرأي العام في فرنسا أخذ يهتم ويتحمس لنداء ڤولتير الى حد ازعاج السلطات ، بل أخذت أوربا بأسرها تتأثر بالموقف الذي وقفه الفيلسوف الى جانب كالا ، وأرسل فردريك الكبير ، وكاترين قيصرة روسيا ، وغيرهما من الكبراء في انجلترا وهولنده الى ڤولتير مبالغ طائلة لانفاقها في سبيل «اعادة اعتبار [1] »

---

(١) نستعملها ترجمة لكلمة « réhabilitation » وهي الترجمة التي يستعملها القانون التجاري المصري في الكلام عن « اعادة اعتبار » المفلس متى عاد الى الاداء

كالا ، لان الدعوة الى الرأي العام وتغذيته بالمذكرات والنشرات المستمرة ، والحصول على أوراق القضية من تولوز ودفع مصاريف الشهود واتخاذ الاجراءات القانونية لتقديم القضية الى مجلس الملك كلها تحتاج الى نفقات لا يستهان بها

جمع فولتير مختلف حججه وقرائنه في مذكرة كتبها باسم دونا كالا ، وأودعها اخصب جدله وبيانه . بدأها بسرد تاريخ اسرة كالا باسلوب روائي مؤثر ، ووصف خلالها الحسنة وتسامحها الذي يؤيده استخدامها لخادمة كاثوليكية ، ودفع الاب النفقة الى ابنه المرتد ، ثم عطف على سرد تفاصيل المأساة قائلا ان مارك انتوان لم يفكر قط في الارتداد عن دينه ، وانه كان يفكر في الانتحار منذ أمد طويل

غير أن فولتير لم يقل في مذكرته شيئاً عن الادلة المادية التي أثبتها مأمور الشرطة دافيد بودريجيه ، وكل ما ذكره عن الظروف المادية هو أن الاب كالا كان شيخاً متهدماً في الثامنة والستين من عمره ، وان مارك انتوان كان أقوى فتى في المدينة وبذا يكون من المستحيل مادياً أن يرتكب الاب كالا الجريمة التي نسبت اليه

وأهم فصل في المذكرة هو الذي كتبه فولتير عن « رهبان التوبة » وفضح فيه دسائسهم وأعمالهم الخفية ، واختتمه بالتدليل على أن نصف القضاة أعضاء في تلك الجمعية السرية

* * *

لم تكن مذكرة فولتير في الواقع قطعة من الدفاع القضائي المقنع ، ولم تحو من الادلة او القرائن ما يلقي ضياء جديداً على تفاصيل المأساة او يدحض ما نهض على وقوع الجريمة من الادلة المادية التي بنى عليها برلمان تولوز حكمه ، ولكن الرأي العام الذي لا يعرف تفاصيل الامور بدقة ولا يعنى بكشف مخبآتها وخفاياها ، لم يعرف من قضية كالا الا ما عرضه الفيلسوف عليه ، ولم يعن بمناقشة منطقه الذي ألبسه ثوباً باهراً من الفصاحة الخلابة والبيان الساحر

وقد كان هـذا الجدل العنيف المضطرم أفعل في الرأي العام وفي الدوائر الحكومية ذاتها من أية حجة قضائية او مادية

اجتاح ڤولتير بقلمه الصارم كل منطق وكل حجة ، واستطاع ببيانه الخلاب أن يسبغ على المسألة صبغة وطنية ، وأن يجعل منها مشكلة كبيرة حتى اعتقد سواد المفكرين عندئذ سواء انصاره وخصومه ان شرف فرنسا أصبح يقضي باعادة النظر في حكم تولوز فاما ان ينقض واما ان يؤيد

ثم خطا ڤولتير خطوة أخرى فعهد الى محامين عرفا بالبراعة وحرية الرأي هما ماريت وايلي دي بومون أن يضعا مذكرة لمجلس الملك ، وهو الهيئة المختصة دون سواها بنقض أحكام البرلمان ، فكتب كل منهما مذكرة نقحها الفيلسوف وأحكم أسلوبها وبيانها . وكتب في نفس الوقت الى نفر من أصدقائه الكبراء ذوي النفوذ في البلاط مثل الدوق دي فلار ، والدوقة دانفيل ، والمارشال دي ريشيليو أن يسعوا لدى المستشار دي سان فلورنتان ليعمل على نقض الحكم

ولم يقف ڤولتير عند ذلك بل سعى في التأثير على القضاة الذين انتدبوا لفحص القضية فكتب الى دارجنتال : « ان القضاء كالسماء ، فيجب أن يرجى القضاة طويلا وبشدة صباحاً ومساءً ، من أصدقائهم وأقاربهم وقسسهم وخليلاتهم » ويروي جريم أن لويس الخامس عشر نفسه اهتم بقضية كالا وانه لما لاحظ أحدهم أمامه « بأنه يجوز أن يكون برلمان تولوز قد أخطأ وان لكل جواد كبوة » أجابه الملك بتلك العبارة الظريفة : « انه خطأ برلمان بأسره لا خطأ قاض واحد . اني أسلم بأن جواداً يكبو ، ولكني لا أسلم بكبوة مربط بأسره »

* * *

كللت جهود الفيلسوف بالظفر فقضت لجنة النقض بقبول الالتماس شكلا ، ثم قضى مجلس الملك بنقض الحكم . وفي ٩ مارس سنة ١٧٦٥ أعلن برلمان باريس « اعادة اعتبار » الاب كالا

ويروى أن ڤولتير بكى من الفرح لما أبلغ ذلك النبأ ، وانه صاح قائلا :

« لقد قضى الرأي العام بذلك الحكم قبل أن يقضي به المجلس بعدة طويلة »
وفي هذه العبارة ما ينم عن القيمة الحقيقية لذلك الحكم من الوجهة القضائية
.. بل كان فوز فولتير كاملا شاملا فان الملك قرر ان يمنح لاسرة كالا من
خزانته الخاصة معاشاً ضخماً قدره ثلاثون الف جنيه

بيد ان برلمان تولوز الذي قضى بادانة كالا لم يرضخ لذلك الحكم
واعتبره باطلا لا اثر له وحظر ان يعلق في لوحة احكامه او في دائرته ،
ورفض ان يقرر شطب حكم الادانة واثبات حكم « اعادة الاعتبار »

وقد كان هذا من حقه لانه لم يكن تبعاً للنظام القضائي خاضعاً لبرلمان
باريس ، بل كان قاضياً اعلى بالنسبة لشئون اقليمه

* * *

لعل اهتمام مجلس الملك وبرلمان باريس بنقض هذا الحكم كان يقصد
به ان يوضع حد للحملة الملتهبة الشعواء التي اثارها الفيلسوف حول القضية
باكثر مما اريد به اصلاح خطأ لم تنهض في الواقع على حدوثه ادلة حاسمة .
بل يؤخذ من الجدل الكثير الذي دار حول هذه المأساة في عصر فولتير
وبعده ان جانب الادانة اقوى وارجح بالنسبة لكالا فقد كتب كاتب كبير
وافر النزاهة هو يوسف دي مايستر في كتابه « أمسية سان بيترزبورج »
ما يأتي : « لم يقم دليل قط على براءة كالا ، بل هنالك الف سبب للشك
في براءته والاعتقاد بعكسها » . ومنذ عهد قريب نشر الاب سالفان وهو
حفيد لأحد قضاة برلمان تولوز كتاباً ايد فيه هذا الرأي بالاستناد الى كثير
من الوثائق والادلة .

واخيراً قام العلامة الكبير المسيو هوك استاذ كلية الحقوق في تولوز
والمستشار الآن بمحكمة الاستئناف في باريس ببحث في قضية كالا وصل
فيه الى ما يأتي : « ليس ثمة ما يدعو الى القول بان برلمان تولوز لم يصب
في حكمه »

ونحن نميل الى الاخذ بهذا الرأي ، ولعل القارىء يميل معنا الى
الاخذ به متى تأمل ظروف القضية حسبما سردناها .

وقد قلنا في فاتحة هـذا الفصل إن ڤولتير لم يقصد بحملته الشديدة وجهوده الفادحة في هذه القضية ان يصل الى نصرة مظلوم فقط ، ولهذا كانت الاعتبارات القضائية والظروف المادية في نظره اموراً ثانوية بالنسبة للغاية التي عمل من اجلها ، وهي إذكاء تلك الحرب العوان التي اضرمها قلمه وجنانه ضد الدين والتعصب منذ بدأ حياته الفكرية

على أننا لستشف أيضاً من عمل الفيلسوف في تلك القضية لمحة من نفسيته وعواطفه ، فقد أراد قلبه الكبير أن يشمل بحمايته أنفساً مظلومة مضطهدة وان يدرأ عنها ذلك الظلم وذلك الاضطهاد بكل ما أوتيه من بر وعطف واخلاص فبدى أعوام ثلاثة أنفق فيها من ذكائه المتوقد ، ومنطقه الفياض ، وفصاحته الباهرة خير ما يستطيع أن ينتجه الفكر الكبير والقلم الصارم

عقد الملكة

سنة ١٧٨٦

— ١ —

كانت مصائرُ الشعوب لا تزال بين القصور موضوع المساومات الشخصية ، والحكمُ عليها موضوعاً لاحلام بنات القصور يوم أن سألت ماري تيريزا امبراطورة النمسا والمجر ابنتها ماري أنتوانيت أي شعب تطمح الى حكمه ؟ فأجابتها أريد أن أحكم الشعب الفرنسي الذي حكمه هنري الرابع ولويس الرابع عشر

وكانت ماري انتوانيت في ذلك الحين فتاة لا تجاوز الرابعة عشرة ، فشاء القدر أن تتفق أمنيتها وسياسة لويس السادس عشر ووزيره شوازيل . وقد كانا يطمحان الى نيل محالفة النمسا لفرنسا على بروسيا ، فلم ير الملك الشيخ وسيلة لتحقيق ذلك خيراً من تزويج حفيده وولي عهده من الاميرة ماري أنتوانيت . واستشير السفير الفرنسي في النمسا المركيز ديرفور في شأن هـذا القران فبعث عن الاميرة الفتاة أحسن المعلومات حيث قال عنها في تقريره : « انها أميرة كاملة سواء من وجهة الجمال الخلقي والمعنوي ، أو جمـال المحيا والقد . وهي ذات ذكاء خارق ، وخلال رفيعة ، طروبة مبتهجة ، تحب أن ترضي الناس ، وتترفق في محادثة كل انسان ، ولهـا أبدع المزايا التي يمكن أن تؤكد سعادة الزوج » . وأضاف دوكريه مصور الملك لويس الخامس عشر الذي أرسل خصيصاً الى فينا لتصوير الاميرة الى تلك الصورة الخلقية صورة مادية لا تقل جمالا وابداعاً

فلم تمض أسابيع حتى أعلنت الخطبة بصفة رسمية ، ثم تأهبت الاميرة الفتاة لمغادرة مسقط رأسها والسفر الى وطنها الجديد فرنسا ، التي كان الحكم على شعبها موضع أحلام طفولتها . وفي ٧ مايو سنة ١٧٧٣ وصلت عربتها الملكية الى ضفاف الرين وهي الحد بين فرنسا والمانيا . وهنالك

خلعت عن شخصها كل ما يربطها بوطنها السابق حسبما تقضي به تقاليد البلاط وارتدت الثياب الفرنسية التي أعدت لها ايذاناً باعتناقها جنسية وطنها الجديد .

وفي صباح اليوم التالي سار الموكب الملكي الى كنيسة ستراسبورج الفخمة بين هتاف الشعب ، وعزف الموسيقى ، وبين الازاهير والشذى ، فاستقبل مساعد الكردينال لويس دي روهان في ردائه البنفسجي الطويل ولية العهد الفتاة على عتبة الكنيسة ، واغدق عليها تهانئه وبركاته ، وهي تضطرب تأثراً وسعادة ، وخاطبها قائلا : « سوف تكونين بيننا يا سيدتي الصورة الحية لتلك الامبراطورة العزيزة التي تستثير اعجاب أوربا منذ بعيد ، والتي ستبقى موضع اعجاب الاجيال المستقبلة . أن روح ماري تيريز هي التي ستقترن بروح البوربون »

فمن كان يتوقع عندئذ ان جذوة بغضاء خالدة ستضطرم ذات يوم بين ذلك الحبر الانيق ، وتلك الاميرة الحسناء بسبب قضية العقد المشهورة ، تلك الفضيحة التي كان الاثنان ضحية لها وفريسة ؟

تلك هي الحادثة التي نريد أن نلم بتفاصيلها في ذلك الفصل ، غير أننا نريد قبل ذلك أن نأتي على لمحة من تاريخ ماري أنتوانيت ، أو على تاريخ البلاط الفرنسي منذ أن حلت به تلك الاميرة ، وأن نصف الظروف والاحوال التي وقعت فيها تلك الحادثة التي استخرجت من قلم اسكندر دماس قصته البديعة « عقد الملكة » (١)

❋ ❋ ❋

سافرت ماري انتوانيت بين الهتاف المستمر ، والحفلات الشائقة من ستراسبورج الى كمبياني حيث استقبلها عظماء البلاط ، ومن ثم سارت رفقتهم الى فرساي . وفي ١٦ مايو سنة ١٧٦٣ احتفل بعقد الزواج بحضور كبار البلاط وكبيراته ، واستمرت الحفلات والمراقص الباهرة أياماً عديدة ،

(١) Le Collier de la Reine

ثم دخلت ولية العهد الى عاصمة ملكها المستقبل في ٨ يونيه بين الخم مظاهر الهتاف والترحيب

ومما كتبته الاميرة الفتاة الى أمها بتلك المناسبة : « لا أستطيع يا أمي العزيزة أن أصف لك مظاهر السرور والعطف التي أغدقت علينا . وقد صافحنا الشعب قبل عودتنا بالايدي وهو من بواعث السرور الجم ، بل ما أسعدنا اذ نستطيع أن نغنم حب الشعب بذلك الثمن البخس ! ومع ذلك فليس ثمة أنفس من هذا الحب . لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط »

والواقع أن تلك الاميرة الخلابة ، قد استطاعت لاول وهلة بجمالها الرائع ، وظرفها الفياض أن تغنم حب ذلك الشعب الفرنسي — الذي اعتاد منذ قرون مديدة أن يمجد الجمال والظرف ، وأن يتأثر بالسحر ورقة الشمائل

واستطاعت ماري انتوانيت أيضاً في أيام قليلة أن تفتن رجال البلاط ونسائه ، وأن تبذر اينما حلت وسارت بذور العطف عليها ، والاعجاب بها

غير أن ذلك الفوز الباهر في البلاط ، وخارجه ، لم يلبث أن أثار غيرة في صدور الحساد أمثال مدام دوباري خليلة الملك ، فأخذوا يدسون الدسائس من حولها ، وساعدتهم هي بتصرفاتها الطائشة

كانت ماري أنتوانيت فتاة مشعبة الاهواء ، كثيرة النزعات ، شديدة الاستخفاف برسوم البلاط وعاداته ، فلم تكن تصغي الا الى أهوائها المجردة ، ولا تعرف قانوناً غير تحقيق هذه الاهواء . وقد وفدت على بلاط يموج بالرذيلة ، والخلال الفاسدة ، وهي طفلة لا تحسن خوض هذه الغمار الخطرة ، فكانت هذه الخفة من جانبها سبباً في اثارة عاصفة من الاقاويل والمفتريات حول سيرها وتصرفاتها ، وهي عاصفة لم تلبث أن جازت القصر الى الخارج ، وهبت بين طوائف الشعب تحمل ضروباً شتى من الاتهام والقذف

وعبثاً حاولت مدام دي نواي التي عهد اليها أن تعلم الاميرة الفتاة رسوم البلاط ، والكونتمارسي أرجنتو الذيعهدت اليه الامبراطورة أن

يسهر على ابنتها ، وأن يزودها بنصحه ، ويبلغ عن نقائصها وأخطائها ، أن يقوما من اعوجاج الاميرة ، او يحملانها على تجنب تصرفاتها الصبيانية الطائشة

اثارت هـذه الخطة الهوجاء جزع الامبراطورة على مصير ابنتها ، فكتبت اليها مراراً تؤنبها على طيشها ، ومما كتبته اليها ذات مرة : « يقولون انك بدأت تضحكين الناس منك ، وأنك تقهقهين في وجوه الناس . أن هذا خطأ شنيع قد يثير الشك في طية قلبك ، وأن مثل هذه النقيصة يا بنية في أميرة ليست من الامور الهينة »

غير أن الفتاة الوثابة الاهواء والعواطف لم تصغ الى نصح ولا تقريع بل ظلت مطلقة العنان لنزعاتها ومسراتها ، تصرف أوقاتهـا في ارتياد المراقص والمراسح وحفلات الصيد ، ويتبعها أينما سارت رهط من الفتيان الظرفاء الذين فتنتهم بسحرها ، والذين أذكت ملازمتهم لهـا ، وتفانيهم في ارضائها ، جذوة الاراجيف والاقاويل من حولها حتى أخذت بعض الشفاه تغمغم أن ولي العهد لم يكن الا زوجاً بالاسم

وربما كان استخفاف ماري انتوانيت بشأن هذه العاصفة واغضائها عن نصح الناصحين ولوم اللائمين راجعاً الى طهارة قلبها وثقتها بمتانة فضيلتها . وربما كان نتيجة الجرأة والتهور والتحدي

* * *

في أواخر ابريل سنة ١٨٧٤ اشتد المرض على الملك الشيخ لويس الخامس عشر ، وطار الخبر بأن حياته قد غدت في خطر وان ايامه أصبحت معدودة ، فسادت السكينة على القصر وأوقفت جميع الحفلات والمسرات

واستمر الملك يصارع الموت أياماً ، والبلاط ينتظر النتيجة صامتا رهيباً . ثم أسلم الروح ذلك الملك الانيق الفاجر الذي روع فرنسا وأوربا بشائن فجوره وخباثته ، وبذل حريات الشعب الفرنسي وكرامته لنسوة سافلات ساقطات مثل بومبادور ودوباري، والذي ما زالت حياته مضرب الامثال للاغراق في الخلاعة والتهتك وانتهاك الحرمات.

فهرعت الجموع الى القصر الملكي ، وارتفعت الصيحة القديمة : « مات

الملك ! فليحيَ الملك ! » وأقبل الشعب المضنى يحيي العهد الجديد ، وقد تنفس الصعداء بعد ما ذاق من العهد البائد أمرّ صنوف الارهاق والذلة

واقبلت ماري انتوانيت تعانق زوجها الملك ، وتقول له والدمع يجول في عينيها تلك العبارة الفياضة بالكآبة والتنبؤ : « سنحكم صغيرين جداً »

وقد كانت صغيرة جداً ! فهي لم تبلغ العشرين بعد ولم تعرف من الحياة الا الابتسام والفرح

كان ذهنها بطبيعته قوياً قاهراً ، ولكن كانت تنقصها المعارف العامة الراسخة ، وينقصها العزم المستنير الثابت الذي تستلزمه مهام الحكم

وكانت ذات شغف بالرآسة دون خبرة بمزاولتها ، وذات ذكاء ينقصه كل فهم لظواهر السياسة والاجتماع

وكانت نزعاتها قوية ولكن سطحية جداً ، وأوامرها التي تلقيها دون أن تزن او تقدر عواقبها اشبه بأهواء قاهرة لحسناء وافرة التيه

بل كانت القوة عندها قبل كل شيء ترضية للكبرياء والعزة ، فكان يسرها ان تكون قوية لتمتن على اصدقائها وتنكل بأعدائها . ولم تكن سياستها تنفذ الى أبعد من نزعات فؤادها ، فكل مقاومة لاهوائها تثيرها وتسخطها ، وتدفعها الى التشدد في تحقيق فكرتها وادراك غايتها ، وتفقدها كل شعور بالعدالة وحسن التقدير

هكذا كانت الاميرة الفتاة التي استدعيت لتحكم الشعب الفرنسي في عصر كانت سحبه المتلبدة ، وصواعقه الكامنة ، اكثر ما تدعو الى استعمال الدهاء والحكمة ، والتمسك بأهداب الاعتدال والروية

ولم يكن زوجها الملك لويس السادس عشر رجل الموقف ، فانه بدلا من ان يحاول تقويم اعوجاجها ، وكبح اهوائها ونزعاتها ، كان يترك حبلها على الغارب ، ولا يعترض رغباتها مهما كانت من الحماقة وسوء الاختيار

لم يكن لويس السادس عشر خلواً من الصفات المتينة ، بل كان حسن التربية واسع المعرفة ، جم الذكاء ، خبيراً بالمواقف السياسية والاجتماعية

غير ان ضعف عزيمته ، وشديد تردده ، وطاعته العمياء لزوجه ، كانت تذهب بكل قيمة لخلاله ومزاياه

وقد كان على جانب عظيم من الرفق والامانة والنشاط ولكنه كان يؤثر السكينة والوفاق الزوجي على أية فكرة صائبة يراها ، أو أي اجراء حكيم يحسن اتخاذه . وبينما كان ينفق أوقاته في العزلة ، أو في صناعاته التي كان مولعاً بها ، كالبناء والحدادة ، كانت زوجه تتولى الحكم دونه ، وتغدق ضروباً شائنة من الايثار والعطف ، وتبذر المال دون حساب في نفقات جنونية وفوق موائد الميسر ، وترفع وزراء وتخفض آخرين ، وتعزل وتولي ، وتنهي وتأمر ، وتفتن في صنوف اللهو الذي غدا أول مهام البلاط

وشعر الناس كلهم داخل البلاط وخارجه بضعف لويس السادس عشر واستسلامه لزوجه ، وكتب الكونت مارسي ارجنتو الى ماري تيريز يحيطها علماً بذلك فأجابته بما يأتي : « اني أصارحك بأني لا أرغب في ان يكون لابنتي نفوذ حاسم في الشئون فهي ما زالت فتاة ، وما زالت طائشة لا خبرة لها بمسائل الحياة ، وهذا ما يجعلني أرتاب في نجاحها في حكم مملكة مختلة الشئون كفرنسا الحالية ولئن صارت حال هذه المملكة من سيء الى أسوأ فاني أود أن يسئل عن ذلك وزير ، وأن لا تسئل ابنتي ، وأن يقع الذنب على آخرين »

وهذه كلمات تنم عن بصيرة خارقة ، وتنم عن توقع لسوء المصير ، وتخوف من عواقبه . ومع ذلك فان نجم ماري انتوانيت في الحكم وتصريف الشئون ظل متألقاً ساطعاً ، واستمرت شهرتها في صعود ، وحب الشعب لها في ازدياد

وكتب الكونت مارسي في سنة ١٧٧٥ الى الامبراطورة : « لقد نالت الملكة مركزاً لم تنله من قبل ملكة لفرنسا » فأجابته : « ان ارتفاع ابنتي بهذه السرعة يفوق ما كنت أتوقع »

بيد أن ماري أنتوانيت اذا كانت قد استطاعت من طريق زوجها الضعيف العاجز أن تقبض على شئون ذلك الشعب الفرنسي الكبير ومصائره ،

فانها لم تحاول أن تنفق جهداً في المحافظة على تلك الامانة الكبيرة ، ولم تحاول ان تسبر غور مشاعر ذلك الشعب الذي لم يضن عليها بحبه وتأييده ، والذي استقبل حكمها باسما يتنفس الصعداء

لم تشعر ماري انتوانيت ذرة بمسئوليات مركزها الجديد ولم تر فيه الا طريقاً سلطانية لتحقيق نزعاتها وأهوائها مهما كانت من الشذوذ والغرابة ، ومهما كانت المصالح التي تضحى في سبيل تحقيقها

لم تصر الفتاة الى ملكة ، ولم تحطها خطورة منصبها الجديد ، ولا روعة تبعاته ، بل ظلت تتوسع في سلوك ذلك المنهج الخطر الذي أثار عليها عاصفة من النقد واللوم والتقول يوم أن كانت ولية للعهد ، فأمعنت في تدبير صنوف اللهو ، وبالغت في اصطفاء الاصدقاء والصديقات ، وفي تبذير الاموال واغداق المنح والارزاق ولم تكتف بأن تؤثر نفسها بذلك البذخ الطائل بل نثرت على صنائعها والمقربين اليها منه ألواناً باهرة

ونحن نحيل القارىء الى الفصول البديعة التي سطرها قلم اسكندر دماس الكبير ليقرأ فيها وصف الحفلات الشائقة ، والليالي الباهرة التي كانت تقام أحياناً في فرساي وأخرى في قصر تريانون الذي وهبه الملك الى زوجه ليكون لها مستقراً خاصاً تخلع فيه عنها رداء الحكم والمسئولية ، وليقرأ أخيراً وصف ضروب الاصطفاء والبذل التي كانت تنثرها الملكة على محبيها وخلانها ، وصنوف الخفة والشذوذ التي كانت تمعن في ارتكابها دون تحفظ ودون حرج

— ٢ —

نؤمل أن نكون قد استطعنا في الصحائف المتقدمة أن نقدم للقارىء صورة نفسية واضحة للملك لويس السادس عشر وزوجه الملكة ماري انتوانيت وللبلاط الفرنسي حينما وقعت حادثة العقد المشهورة في سنة ١٧٨٥

وبطل هذه الحادثة أو بالحري ضحيتها هو الكردينال لويس دي روهان الذي كان كما رأينا أول من بارك الاميرة النمسوية حينما قدمت في

موكبها الحافل الى كنيسة شتراسبورج في شهر مايو سنة ١٧٧٣

وُلد دي روهان في باريس سنة ١٧٣٤ ، وهو سليل لاسرة قديمة نبيلة كانت سيدة لاقليم بريتانيا . وتلقى تربية حسنة فنشأ ذكياً نابهاً ، جم التأدب والرقة . وكان فوق ذلك جيل القد والمحيا ، وافر الظرف والتأنق . غير أن هذه الخلال البديعة كانت تشوبها رذائل عصره ، فكان في نفس الوقت شديد الاسراف ، كثير الخفة والطيش ، سهل الانقياد والخديعة . ولا غرو فهذه صفات أولئك الذين يخلقون في سعة وبسطة ولا يعرفون من الحياة الا الابتسامة والالوان الوردية

ثم دخل روهان الحياة من الباب الذهبي ، وحملته ثروته ، ومكانة أسرته ، وجمال طلعته ، ورقة شمائله الى مركز لم يكن لكفايته الشخصية فيه نصيب يذكر ، فوصل في سن السادسة والعشرين الى أن يكون كردينالا مساعداً في كنيسة شتراسبورج . وفي سن السابعة والعشرين نال وسام الاكاديمية . وفي سنة ١٧٧٢ — في سن الرابعة والثلاثين — عين سفيراً لفرنسا في فينا ، وهنالك ابدى من ضروب الاسراف والبذخ ما أسخط عليه ماري تيريز والدة ولية عهد فرنسا فقد رأت الامبراطورة أن سير السفير الجديد لا يتفق مع التحفظ والكرامة اللذين تفرض عليه صفته الدينية أن يتمسك بهما

كان روهان في ذلك الحين يقيم في قصر فخم على ضفاف الدانوب ، وينفق أوقاته في الاستقبالات الباهرة والحفلات والمراقص والولائم الشائقة فغص قصره بأرستوقراطية فينا ، وهرع اليه بالاخص سيدات فينا المتلمسات الى السرور واللهو ، حتى قالت عنه الامبراطورة انه « يفسد اشرافها » ونقمت منه طيشه وتهوره ، وأخذت تتحين الفرص لابعاده عن عاصمتها

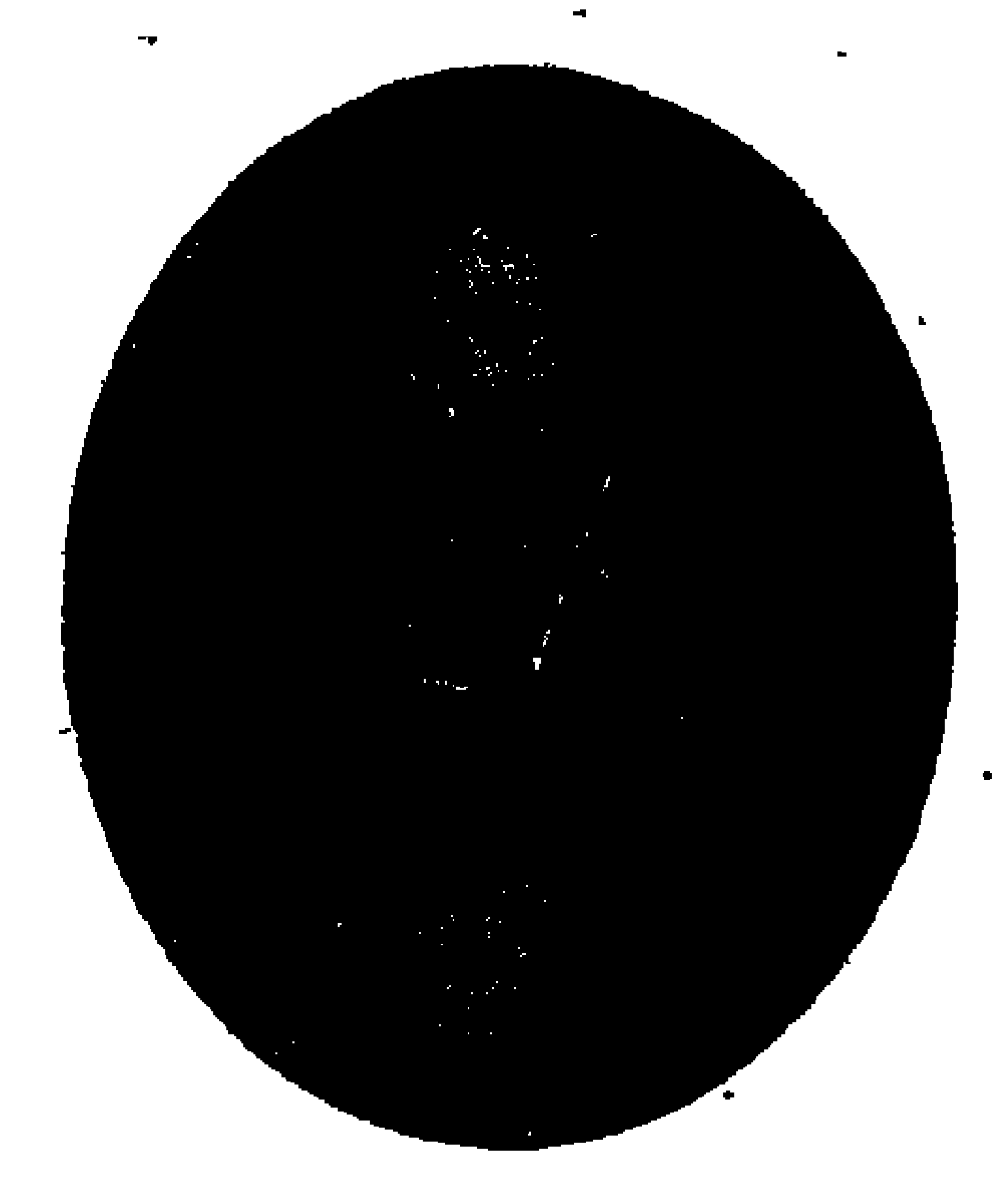
فلم تلبث أن سنحت هذه الفرصة ، وذلك أن روهان أرسل الى الدوق ديجويون وزير خارجية لويس الخامس عشر تقريراً عن مسألة تقسيم بولونيا وصف فيه الامبراطورة بعبارات جارحة وقفت عليها ولية العهد بطريقة المصادفة فأسرتها للسفير . ولم تمض بضعة أسابيع على وفاة لويس الخامس عشر

وجلوس خلفه حتى استدعي روهان من منصبه فجأة وخلفه خصمه ومنافسه بريتي

ولما عاد روهان الى باريس استقبله الملك الضعيف لويس السادس عشر بجفاوة وبشر ، فأدرك لفوره مصدر سقوطه . وكانت هذه فاتحة الحوادث التي انتهت بفضيحة عقد الملكة .

* * *

لم يكن لروهان منذ تلك اللحظة سوى فكرة واحدة او أمنية واحدة



الكردينال دي روهان

هي أن يستعيد الحظوة لدى الملكة . فبدأ بأن التمس مقابلتها مراراً عدة غير أنها كانت تنتحل كل مرة عذراً لتتجنب المقابلة ، فآلمه هذا السخط الذي اعتقد أنه وحده يضع العقبات في سبيل ارتفاعه الى مجد ريشليه ومازاران

وفي سنة ١٧٧٧ عينه الملك كبيراً للكهنة وهو ما يعادل منصب وزير

الدين . وفي السنة التالية نال رتبة الكردينال . وفي سنة ١٧٧٩ رقي مطراناً لكنيسة شتراسبورج مكان عمه المتوفي

وفي كل هذه المناصب والظروف كان روهان مضرب الامثال في الاسراف والبذخ الرائعين ، فقد كان له قصر في شتراسبورج ، ودار كبيرة في باريس ، وقصر في سافرن فيه اربعة عشر رئيساً للخدم ، وخمسة وعشرون وصيفاً ، ومائة وثمانين جواداً ، وسبعمائة سرير للزائرين ، وآنية لا تحصى من الذهب والفضة . وكانت موائده دائمة الحركة ولا يقل ضيوفه عن الخمسين في كل يوم

وكان قصره مجتمع الغيد الحسان ، والفتية الظرفاء ، فكان يجلس بينهم ، ويرأس مجتمعاتهم وكأنه لم يولد الا ليستقبل ويمثل

وكانت الحرية المطلقة تسود هذا القصر ، او كانت تسوده « الحرية والسعة والبذخ » وكان الكردينال يقول دائماً : لا يجب أن نبالغ في صرامة الدين حتى لا نجعل منه « صحراء » مقفرة

وكانت حفلات الصيد في سافرن ذائعة الصيت بين مجتمعات الاشراف في ذلك العصر ، يشترك فيها مئات السادة والسيدات ، وجيش كبير من الفلاحين والجياد ، ثم تنتهي في المساء بحفلات تمثيل وطرب ورقص لا يجد الكردينال غضاضة من ان يرفع فيها عنه أعباء الكلفة والتحفظ ، فيطرب ويرقص

وعلى الجملة فقد كان الكاهن الاكبر يعيش عيشة الخيال والقصة . وفي وسعك أن تقدر مبلغ بذخه واسرافه متى علمت أن دخله من هذه المناصب المتوالية كان يربو على المليون جنيه ، وأنه فضلا عن انفاقها كان يستدين المبالغ الطائلة ليسد نفقاته الفادحة

* * *

كانت حفلات سافرن الشائقة وما يحوطها من البذخ الطائل سبباً في دخول شخص ثالث الى مسرح تلك السيرة

أذكى لطف الكردينال ورقته ، وسذاجة فطرته خيال امرأة

حشاه هي مدام دي لاموت التي رأت بعد درس عميق لنفسية الكردينال ومشاعره ، أن ليس عليها الا ان تظهر لتقهر ، وأن تلقي بذرها الى تلك الارض الخصيبة ، فتثمر الثمر اليانع الذي تطمح الى اقتطافه

واسم هذه المرأة العذري هو جان دي فالوا ، ومع أنها سليلة بعيدة لاسرة فالوا الملكية فقد نشأت بين براثن الفاقة والبأساء الطاحنة ، وكانت وهي طفلة تحصل على قوتها من التسول وكثيراً ما رؤيت عارية القدمين ، رثة ، خلقة الثياب ، تركض في طريق فرساي وراء عربات النبلاء وتسأل الصدقة بانكسار يمزق القلب قائلة : اشفقوا على يتيمة من آل فالوا !

وقد استثارت هذه العبارة ذات يوم اهتمام المركيزة دي بولانفليه وقد كانت ذاهبة مع زوجها حاكم باريس الى ضيعتها في باسي ، فوقفت عربتها واستفهمت من الطفلة عن مقامها ، وبعد ان تحرت عنها من قسيس بولونيا بعثت بها الى دير لونشان لتتربى فيه ، فلبثت هنالك عدة أعوام ، قطعت فيها مرحلة طفولتها حتى صارت فتاة تملأ الانظار

وكانت هذه الفتاة المتوقدة الخيال والذهن ، الثائرة القلب والعواطف ، أكثر ما يكون زهداً في الحياة الدينية فأخذت منذ أن ترعرعت ، وبدأت تدرك معنى الحياة تتحين فرصة للفرار من ذلك الاسر ، وفي ذات صباح استطاعت أن تحقق هذه الامنية الغالية ، ففرت من الدير ، ونزلت على سيدة في سيرمون قبلت ان تأويها بضعة أيام . وهنالك أخذت تغرر بشباب تلك الناحية وتلعب بعقولهم حتى استطاعت أن تتزوج من شخص يدعى الكونت دي لاموت ، وهو فتى أفاق لم يكن كونتاً ، أو ذا أصل في النبل بل كان فتى متوسط الحال لا ثروة له ، وكان موظفاً في ادارة الشرطة أسوة بشباب النبلاء المعدمين

ومع ذلك فقد رضيت به جان دي فالوا ، وسرعان ما نالت فوق ذهنه الضعيف نفوذاً لا حد له

وقد كان كلاهما معدماً ، وكلاهما مسرفاً فما لبثا ان وقعا بين براثن الحاجة ، وأثقلتهما الديون والقروض

غير أن مدام دي لاموت كانت حسناء ، ولم تك ذا عفاف وحشي ، فاستطاعت أن تغنم عطف كثير من الاغنياء المعجبين بها وبالاخص عطف فتى محام يدعى الكونت بنيو ، ذو فطنة وذكاء ، وبصر ثاقب ، وربما كان وحده بين عشاقها الذي استطاع أن يسبر غزر دهائها ، وأن ينجو من مكائدها ودسائسها ، وقد وصفها لنا في مذكراته بما يأتي :

« كانت مدام دي لاموت ذات قد صغير ، ولكن متناسب مليء ، وعينين زرقاوين شديدتي الاعراب والتأثير ، وحاجبين سوداوين جميلين ، ويد بديعة ، وقدم صغيرة ، ولون ناصع جداً . وكانت ذات فم واسع غير أنه بديع ، وابتسامة ساحرة خلابة .

« وكانت وافرة الذكاء بالرغم من ضآلة تربيتها وكانت تتحدى القوانين ، وتحتقر مبادىء الاخلاق ، ولا غرو فقد نشأت تحارب النظم الاجتماعية

« ومع ذلك فقد كانت عند الضرورة تتصنع الرقة الى حد ضعف جنسها

« وكانت هذه الخلال تطرح للتأمل مزيجاً هائلا ، يخلب لباب اولئك الذين لا يستطيعون أن يسبروا غوره »

* * *

وقد نجحت هذه الفتاة المحتالة البارعة في دس الدسائس في أن تحمل المحسنة اليها السيدة دي بولانفليه بعد أن صفحت عن اساءتها ، على أن تقدمها الى الكردينال دي روهان في قصره بسافرن سنة ١٧٨١ ، واستطاعت أن تثير عطف الكردينال واهتمامه بقصة طفولتها المؤلمة ، وبؤسها ، ونبلها ، وسوء طالعها ، وأن تحمله على أن يساعد زوجها لدى رؤسائه ، وأن يرتب له في ثبت الصدقات هبة مالية . غير أن ذلك كان أبعد من أن يرضي أطماعها الثائرة

فعادت الى باريس وأخذت تسعى في اغتنام عطف الملكة واشفاقها بمختلف الطرق . من ذلك أنها تظاهرت بالاغماء ذات مرة وألقت نفسها في طريق الملكة وهي ذاهبة لتشهد القداس ، غير أنها لم تفز ببغيتها لان

الجوع حالت بينها وبين العربة الملكية . فأعادت تمثيل هذا الدور تحت نوافذ الملكة ولكنها أخفقت أيضاً

بيد أنها أخذت تذيع في كل مكان أن الملكة قد تأثرت لبؤسها ، وأصغت اليها باهتمام واشفاق ، وأغدقت عليها كثيراً من ضروب الاشفاق والرفق . واستطاعت أن تصيغ هذه الاكذوبة في ثوب من الرجحان والتأكيد بحيث لم تأنس مشقة في أن تقنع الكردينال الساذج بأن ماري انتوانيت قد استقبلتها حقيقة في تريانون ، وشرفتها بعطفها وصداقتها . وكانت تشير الى تلك الصداقة المزعومة بذكاء وحذق كلما قدمت لزيارة روهان

— ٣ —

قلنا أن دي روهان منذ أن شعر بسخط الملكة عليه لم يدخر وسعاً في استعادة رضاها والحظوة لديها . وطبيعي أن تذكي اهتمامه اقوال مدام دي لاموت عن صداقتها الملكة ، وأن يبادر بسؤالها عن شعور ماري انتوانيت نحوه ، وعما اذا كان في استطاعته أن يؤمل استعادة رضاها

وكان جواب المحتالة الحاذقة أن الموقف لا يدعو الى اليأس وأن الملكة اصبحت أقل تأثراً منه ، واقرب للرضى عنه ، وانها ستبذل كل جهد في سبيل تحقيق امنيته ، وازالة كل عقبة في سبيل تمتعه بالرعاية الملكية ، بل ذهبت الى ان عرضت عليه ذات يوم ان يكتب الى صديقتها الملكة رسالة استعطاف واستغفار ، وتعهدت بأن تحملها اليها

ففعل الكردينال ما اشارت به ، وحملت الافاقة رسالته ، ثم عادت اليه بعد بضعة ايام برسالة قالت أنها رد الملكة على خطابه

ولسنا بحاجة لان نقول ان خطاب الكردينال لم يصل الى الملكة قط ، وان الرد المزعوم كان رسالة مزورة

ومع ذلك فأن الكردينال آمن بصدق المسعى وصحة الرسالة ، لشدة

بسذاجته وسلامة طويته ، ولان مدام لاموت استطاعت ان تحصل على اوراق بيضاء مزينة بالازهار الملكية مما تستخدمه الملكة ، وان تحمل الكردينال على الكتمان والصمت واخفاء الرسالة حتى لا تدع له بذلك فرصة لتحقيق صحتها اذا ما تسرب اليه ريب في صحتها ، واخيراً لان الكردينال لم يتبين اية مصلحة تسعى اليها مدام دي لاموت من وراء ذلك لانها لم تطلب اليه اجراً ولا مكافأة

واعادت مدام دي لاموت تمثيل الرواية ، واستمرت المكاتبة المزعومة حيناً بين الكردينال والملكة

وكان الكاتب للرسائل المزورة شخص يدعى رتو دي فيلت كان موظفاً قديماً بادارة الشرطة وصديقاً للكونت دي لاموت ، وسكرتيراً لزوجته ! وكان يجيد نوعاً من الخط النسائي الجميل ، ويكتب الرسائل المزورة تحت املاء مدام دي لاموت ويوقعها : « ماري انتوانيت دي فرانس » مع ان الملكة لم توقع بذلك التوقيع قط !

***

على ان الكردينال ما لبث ان تولته الدهشة لما رآه من استمرار الملكة في مكاتبته على ذلك النحو الخطر ، ولانها لم تحاول ان تعرب له عن صفحها ورضاها بطريق آخر . ولكن مدام دي لاموت كانت تهدىء روعه بقولها ان الملكة ليست حرة في تصرفاتها ، وان حزب الوزير برتي خصم روهان ما زال قوياً متغلباً ، وان الزمن وحده كفيل بانقاذ لويس السادس عشر من نفوذه ، واشارت عليه ان يلاحظ بدقة نظرات الملكة اليه في كل فرصة يستطيع فيها أن يراها في الاحتفالات الرسمية او الخاصة . والواقع ان الكردينال المسكين كان يتوهم في كل مرة يرى فيها الملكة انها تخالسه نظرات العطف ، ولم يكن ذلك من الحقيقة في شيء ، بل كان اثراً من اضطراب مخيلته ، وشدة طموحه الى ادراك بغيته ، وما كانت تبثه تلك المرأة الافاقة في نفسه من أسباب الخداع والختل

وكانت مدام دي لاموت تخشى من جانبها أن ينفد صبر الكردينال ،

وأن تتضاءل ثقته فيها فيحول ذلك دون تحقيق مشروعها الذي تحيك شباكه، فأخذت تبحث عن وسيلة ناجحة، وضربة حاسمة تضع بها الكردينال تحت رحمتها بصفة قاطعة، فأفضى بها الخيال المجرم والدهاء الفذ الى ان تدبر مهزلة غريبة هي ان تجمع بين روهان والملكة في مقابلة سرية، وأن تترك هذه في يده تذكاراً يكون نذير الرضى والعفو

ولكن كيف السبيل الى ايجاد ملكة مزيفة تلعب هذا الدور المدهش، ويكون من الممكن أن تلتبس في شكلها وظروفها مع الملكة؟

أنطلق المسيو دي لاموت يجد في أثر ذلك الطير النادر، فظفر به بعد بحث وجهد في حدائق الباليه رويال، وكان امرأة شابة حسناء، سمراء، ذات ظرف ورشاقة، بينها وبين ماري انتوانيت مشابهة مدهشة تلفت الناظر اليها لاول وهلة، فاستمر يحادثها ويسامرها أياماً حتى استطاع أن يجتذبها اليه وأن يقدمها الى زوجه

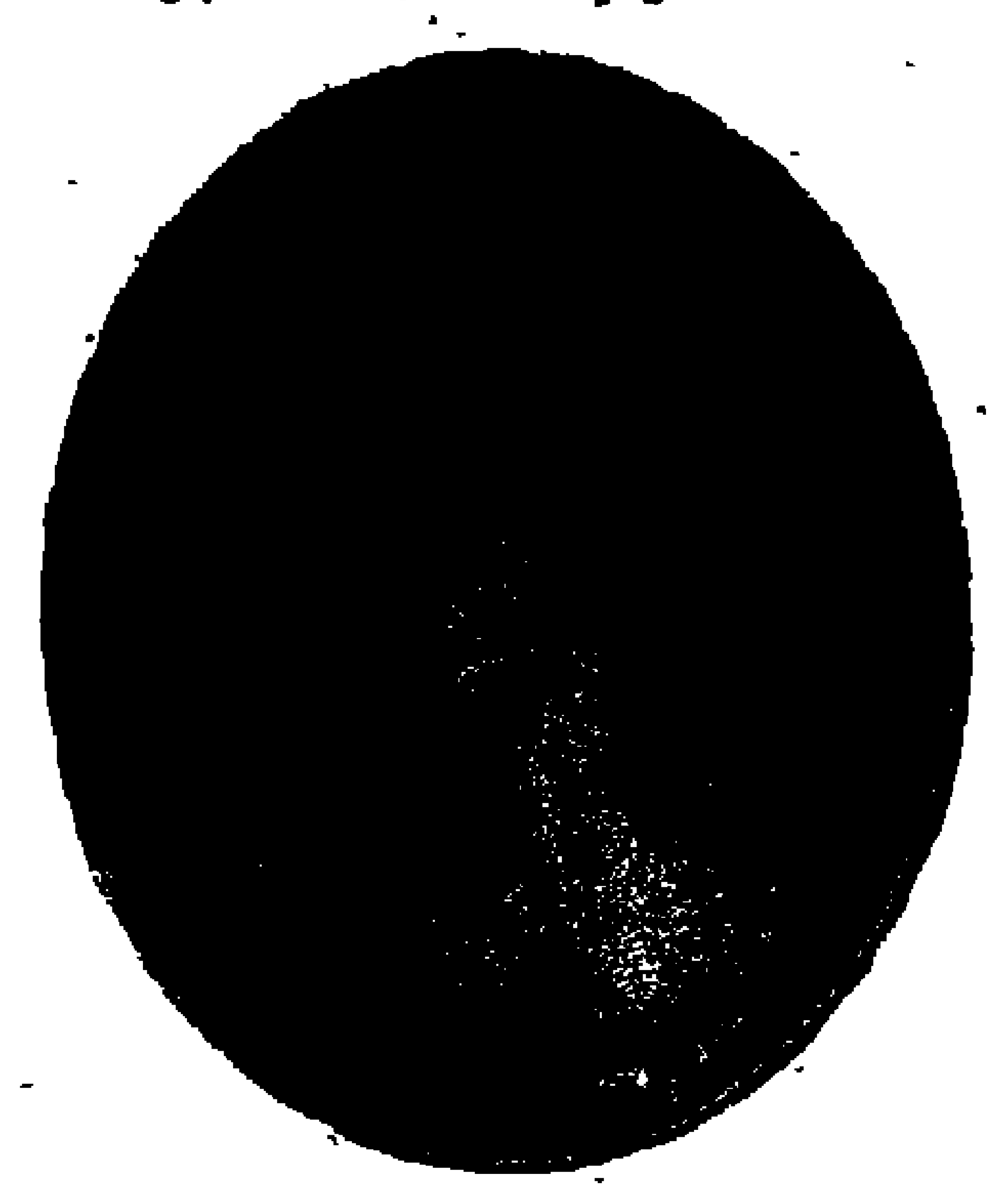
واسم هذه الحسناء، شبيهة ماري انتوانيت، نيكول ليجييه، غير أن مدام دي لاموت رأت تغريراً بالعقول، وخدمة لمشروعها أن تقدمها الى الناس باسم البارونة دوليفا . وسرعان ما قويت أواصر الصداقة بين المرأتين، ووقعت نيكول فريسة لتأثير مدام دي لاموت وأكاذيبها وادعاءاتها

ثم سألتها ذات يوم هل تريد أن تغنم ربحاً قدره خمسة عشر الف جنيه، وأن تؤدي فوق ذلك صنيعاً الى صديقتها الملكة . فسألتها البارونة في دهشة عن ما يجب عليها أن تؤديه لتفوز بذلك، فاجابتها ان ما يطلب منها سهل جداً وهو أنها تذهب ذات مساء الى أحد مماشي حديقة فرساي، وتقدم وردة لسيد كبير يقبل يدها

فقبلت البارونة الساذجة أن تقوم بتلك الصفقة الرابحة، وفي اليوم التالي – ١١ اغسطس سنة ١٧٨٤ – سار بها الكونت دي لاموت الى مسكنه وسلمها الى زوجه، واستعانت هذه بوصيفتها روزالي على أن تنظم هندام البارونة في ثياب جديدة اجتهدت أن تصنع على طراز ما تلبسه

الملكة ، وكان رتو دي فيت يشرف على تنفيذ هذه المهزلة التي لم تستطع البارونة ان تهتدي الى طرف من حقيقتها . ثم تعشى الجميع على مائدة الكونت ، وشربوا وطربوا الى ما قبل منتصف الليل

ثم نهض الزوجان ورتو والبارونة ، وسار الجميع الى بستان فرساي ، وكان في ذلك العهد يفتح بالليل والنهار ولا توصد ابوابه ، وكان الليل مظلماً ، تحجب السحب نجومه ، والسكينة ضاربة فوق الانحاء ، لا يمازجها سوى خرير الماء تقذفه النوافير ، وأوراق الشجر تدفعها الرياح هنا



نيكول دوليفا شبيهة ماري انتوانيت

وهنالك . وكانت البارونة ترتعد تأثراً وخوفاً من المجهول والخفاء ، ولكن الكونت كانت تدفعها الى مماشي البستان دون تردد حتى وصلا الى ساحة فينوس أو ساحة الملكة حيث ترتفع الاشجار الكبيرة الباسقة . وقف الكونت ، وهمس في أذن البارونة ألا تتحرك ثم اختفى مسرعاً في الظلماء

وفي تلك اللحظة تقدم من أوليفا شبح رجل طويل ، ممشوق ، أنيق ، يخفي جبينه تحت قبعته ، فلما تقدم منها انحنى الى الارض وقبل طرف ردائها

وكانت المسكينة ترتعد فرقاً ، وقد نسيت العبارة التي أمرت أن تقولها غير أنها قدمت يدها بالوردة الى الكردينال — فقد كان هو — وغمغمت الفاظاً لا معنى لها توهم الكردينال في تأثره واضطرابه أنها تبعث الى الامل بنيل العفو والرضى.

فهمّ بأن يجيب تلك التي اعتقد انها مليكته ، وأن يعرب لها عن اخلاصه ، وعميق شكره ، غير أن شخصاً وثب في تلك اللحظة ، وقال بصوت متقطع : هيا هيا فقد قدم الكونت والكونتة دارتوا !

وكان هـذا رتو دي فيلت يؤدي دوره باتقان وبراعة ، فهرولت البارونة في أثره ، وارتد الكردينال أيضاً وهو يغمر الوردة بقبلاته ، وقد فاضت نفسه كبراً وأملا وسعادة

— ٤ —

اعتزمت مدام دي لاموت أن تستغل نتائج فوزها في تمثيل تلك المهزلة قبل أن تفتر جذوتها فبادرت باخبار الكردينال أن الملكة في حرج مالي ، وأنها تكون سعيدة اذا استطاع الكردينال أن يقرضها في أقرب فرصة مبلغ خمسين الف جنيه ! فسارع روهان الى اقتراض المال وتسليمه الى مدام دي لاموت ، ولا شك أنك تعلم اين ذهب

وبعد ذلك بفترة قصيرة أعادت مدام دي لاموت الكرة فطلبت باسم الملكة قرضاً قدره مائة الف جنيه ، فدفع روهان اليها هذا المبلغ أيضاً

ولا ريب أن مدام دي لاموت كانت تعتزم ألا تقف عند هذا الحد في تدبير القروض المزعومة واستلاب المبالغ الطائلة من الكردينال لولا أن حادثاً جديداً دفع تيار مشاريعها الى وجهة أخرى

وذلك أن شخصاً يدعى لابورت كان يتردد على منزلها ، ولاسرته علائق بجوهري الملك المسيو بيمر وشريكه المسيو باسانج ، قص عليها قصة استرعت اهتمامها وهي ان الجوهريين المذكورين قد أرهقهما امتلاكهما لعقد كبير من الماسات النادرة الغالية ، صنعاه في عهد لويس الخامس عشر

أملاً في أن يشتريه الملك لخليلته دي باري ، ولكن لويس الخامس عشر توفي دون شرائه ، فسعيا عبثاً في بيعه الى بلاط اسبانيا ثم حاولا أن يحملا لويس السادس عشر على شرائه للملكة ، ولكن الملكة رفضت عرضها لفداحة الثمن حيث كان مليوناً وستمائة الف جنيه ، فاسقط الجوهريان عندئذ في يدهما ، وادركهما حرج شديد ، لانهما اتفقا في صنع هذا العقد النفيس مبالغ طائلة اقترضاها بأرباح طائلة ، ولان كبر حجمه وفداحة ثمنه يحولان دون بيعه ، وانهما يعرضان على من يسعى ويفلح في بيعه اتعاباً حسنة . وربما لايورث مدام دي لاموت أن تستعمل نفوذها لدى الملكة لتحملها على شراء هذه الحلية النادرة

فطلبت مدام دي لاموت أن ترى العقد ، فلبي المسيو باسانج رغبتها وحمل العقد الى دارها ، فبهرها جماله وروعته ، واعتزمت منذ تلك اللحظة أن تفوز به

فذهبت الى الجوهريين في ٢١ يناير سنة ١٧٨٥ وأفهمتهما أنها وجدت مشترياً للعقد ، هو سيد عظيم ، وطلبت اليهما أن يعقدا معه كل الشروط اللازمة دون تدخلها أو ذكر اسمها

ثم ذهبت الى الكردينال وأفهمته أن الملكة تريد أن تقتني ذلك العقد النادر ، وأن الملك قد أبى عليها ذلك الاسراف الفادح فاعتزمت أن تشتريه من مالها الخاص وان تدفع ثمنه أقساطاً ، غير أنها لا تود أن تتعاقد مع الجوهريين بنفسها بل تريد أن تعتمد في اتمام هذه الصفقة على سيد كبير يطمئن الجوهريان الى شخصيته وثروته ، وأنها قد فكرت فيه ليتم لها الشراء . وأرته في نفس الوقت خطاباً قالت ان الملكة قد بعثت به اليها لتعهد اليه بتلك المهمة وأوضحت فيه اليها ظروف المسألة كلها .

وقد يدهشك أن تفلح الكونتة دي لاموت في خديعة الكردينال الى ذلك الحد ، ولكنك اذا تذكرت العصر وظروفه ، وسلامة طوية الكردينال ، وسرعة ايمانه ، واذا تذكرت ان الأثر الذي بعثته الى نفسه مهزلة بستان فرساي كان قوياً ، قدرت الحالة النفسية التي كان عليها الكردينال حينئذ

واستطعت أن تفهم كيف أن مدام دي لاموت لم تأنس صعوبة كبيرة في خديعته واقناعه

بل ان الظروف كلها كانت حينئذ تسبغ على أقوال مدام دي لاموت مسحة من الرجحان والصدق ، لان ماري انتوانيت التي انفقت الى ذلك الحين نحو عشرة أعوام في الحكم والرآسة لم تستطع أن تخلع عنها ثوب الطيش والحفة ، بل ظلت تلك الفتاة الطروبة الضاحكة التي تحتقر الرسوم والعرف ، وتمادت في اسرافها وبذخها ومسراتها ، وبالغت في الاستهتار والاستخفاف بعواطف ذلك الشعب الذي رحب باعتلائها الحكم معتقداً أنه خاتمة لسيئات عهد بومبادور ودي باري ، ولم تشفق على بؤسه وماله الذي كانت تعتبره ضريبة عليه لتحقيق نزعاتها وأهوائها حتى أخذ الشعب ينفض عنها ويسر لها الحقد مكان العطف ، والبغض مكان الحب

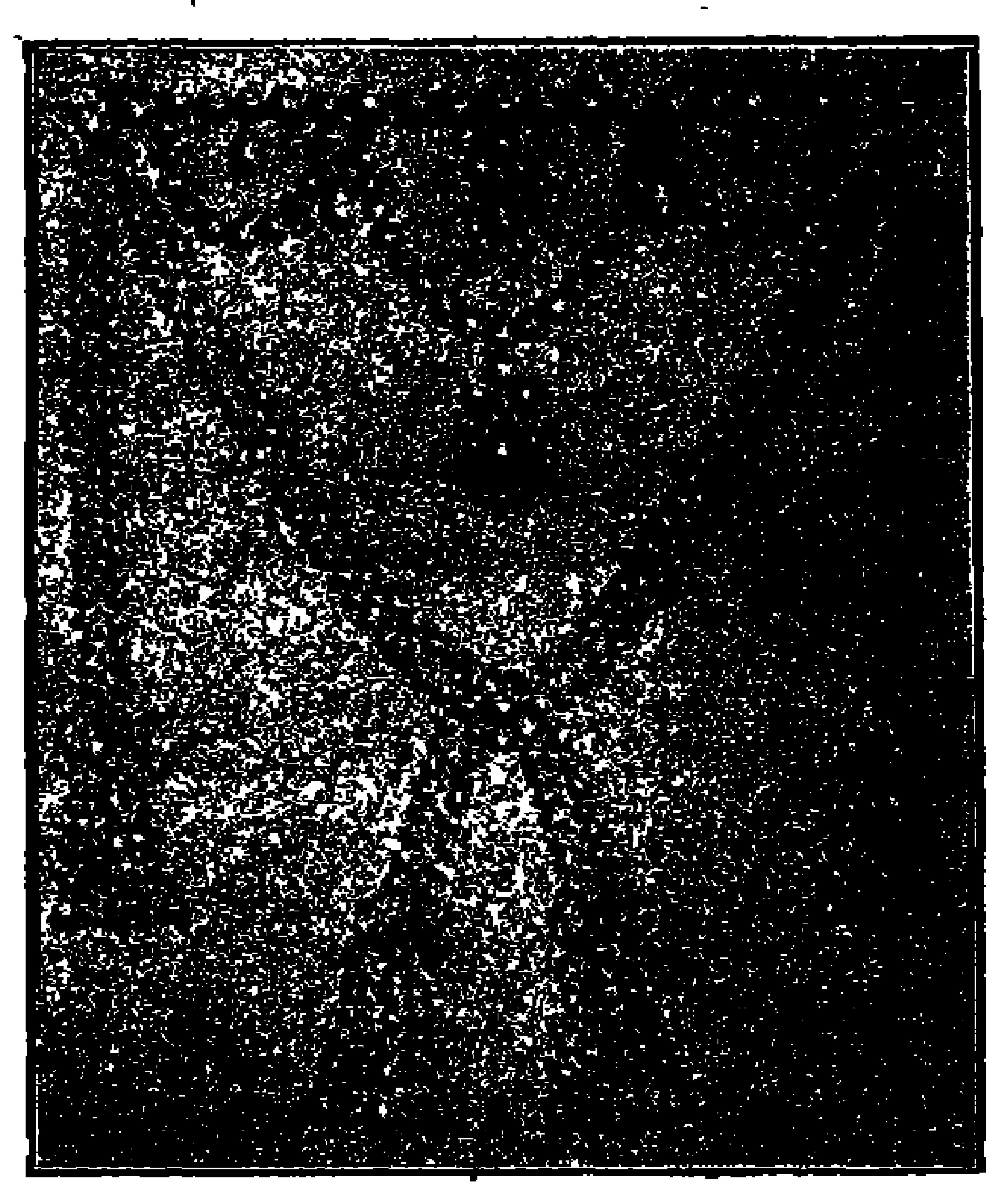
كانت ماري انتوانيت اذن تمعن في الاسراف واللهو الى حد يمكن معه تصديق كل ما كان يذاع عنها ان صدقاً وان كذباً من بوادر الحماقة والسفه

وبعد فأي غرابة في أن الملكة أرادت مدفوعة بنزعة امرأة حسناء أن تحلي صدرها بذلك العقد الذي رفضته بادىء بدء ! وانها خوفاً من أن تغضب الملك تعتزم شراءه من مالها الخاص وتدفع ثمنه الفادح أقساطاً ، وأنها فكرت في شخص كبير يعقد لها الصفقة فوقع اختيارها على الكردينال الذي اعربت له في بستان فرساي عن تقدير خاص ؟

في ٢٤ يناير سنة ١٧٨٥ ذهب روهان ليرى العقد ، وفي ٢٩ يناير قدم الجوهريان الى قصره في شتراسبورج ليوقعا شروط البيع ، فتم الاتفاق على أن يكون الثمن مليوناً وستمائة الف جنيه تسدد في ظرف عامين على أربعة أقساط ، وان القسط الاول يدفع في أول أغسطس ، وأن يكون تسليم العقد في أول فبراير . ودفع الكردينال بصورة من هذه الشروط الى مدام دي لاموت راجياً أن تحملها الى الملكة لتصادق عليها ، فاخذتها وأعادتها اليه بعد يومين ، وقد كتب أمام كل شرط منها كلمة « مقبول » ، وفي نهايتها « ماري انتوانيت دي فرانس » ، وكانت

الكتابة بنفس الخط الذي كتبت به الخطابات السابقة لان الكاتب واحد داعماً وهو رتو دي فيت ، وعلى ذلك اقتنع الكردينال واقتنع الجوهريان مثله

وفي أول فبراير حمل الكردينال العقد بنفسه ليسلمه الى رسول الملكة في منزل مدام دي لاموت التي دبرت مهزلة جديدة لاستلام العقد . هي أن



عقد الملكة

رتو دي فيت تظاهر بانه موفد من قبل الملكة ومعه رقعة بطلب الاستلام . وقد لاحظ الكردينال أنه نفس الشخص الذي رآه في بستان فرساي يهرول نحو الملكة ، غير أن مدام دي لاموت هدأت روعه بقولها أن ذلك الشخص موظف في الموسيقى الملكية ، ومن وصائف الملكة معاً ، وعلى ذلك تم تسليم العقد بسلام

وما كاد الكردينال ينصرف حتى اجتمع اللصوص الثلاثة وفرطوا ماسات العقد واقتسموها ، وبدأوا بعد بضعة ايام بمحاولة بيعها سراً فحدث ان رتو أساء التصرف فقبض عليه ، غير أنه لم يتقدم الى ادارة الشرطة بلاغ بالسرقة ، فاعتقدت ان الماسات المضبوطة ملك لسيدة كبيرة وقعت في حرج مالي فعهدت الى رتو ببيعها وعلى ذلك أطلق سبيله ، فبادر بالفرار الى سويسرا ، وفرّ الكونت دي لاموت الى انجلترا حيث تحصل هنالك على بضع مئات ألوف الفرنكات من بيع نصيبه

أما الكونتة فاقامت في بارسيروب وعاشت هنالك عيشة بذخ طائل

* * *

اقترب أجل الدفع ولم تبدر من الملكة بادرة تشعر باستعدادها للاداء ، بل لم تُر قط في الحفلات العامة أو الخاصة مزينة بالحلية النادرة ، ففسرت مدام دي لاموت ذلك للكردينال بان الملكة لا تريد أن تلبس العقد قبل أن تبدأ الدفع ، وأنها فوق ذلك ترى الثمن فادحاً وتطلب تخفيضاً قدره مائتي الف جنيه

ففاوض الكردينال الجوهريين في ذلك فقبلا التخفيض بعد جدل حاد ، وكتبا باملاء الكردينال الى الملكة رقعة سلمها اليها بيمر بنفسه في يوم ١٢ يوليه سنة ١٧٨٥ حينما ذهب يحمل اليها عقداً من الماس أمر الملك بشرائه وهذا هو نص الرقعة :

« سيدتي : نحن سعيدين جداً إذ نجرأ أن نعتبر التسوية الاخيرة التي اقترحت علينا والتي قبلناها باخلاص واحترام دليلاً جديداً على ولائنا واخلاصنا لاوامر جلالتك ، وأن لنا لترضية عظمى في أن نرى أجمل حلية من الماس في هذا العالم تحلي جيد أعظم الملكات وأرفعهن »

قرأت الملكة هذه الرقعة على أثر انصراف بيمر فلم تفهم شيئاً منها ، فناولتها الى قارئتها مدام كامبان فلم تفهمها كذلك ، فأمرت باحراقها . وقد كان هذا التصرف على بساطته فيما بعد حجة قوية لاعداء الملكة ليثبتوا أنها كانت على علم بشراء العقد ، وأن سكوتها بعد قراءة هذه الرقعة قبول

ضمني لهذه الصفقة التي أجريت باسمها

ثم حل موعد دفع القسط الاول في أول أغسطس سنة ١٧٨٥ ، ولم تدفع الملكة طبعاً ، فأسرعت مدام دي لاموت بزيارة الكردينال وأفهمته أن الملكة ما زالت في عسر وأنها تطلب الامهال حتى اول اكتوبر . فجزع الكردينال جزعاً خطيراً ، وغضب الجوهريان وبادر بيمر بالذهاب الى فرساي وخاطب مدام كامبان في الامر فاجابته : ان الملكة لم تستلم العقد قط وقد ذهبتم فريسة نصب هائل !

فاسرع باسانج الى لقاء الكردينال في شتراسبورج وحدث بينهما منظر عاصف ، فأكد له الكردينال بكل قوته ان الملكة نفسها قد عهدت اليه بشراء العقد ، وهدأ روعه جهد استطاعته

ولكن الكردينال نفسه فقد سكينته ، وأخذ يعزفه الشك ، فحاول لاول مرة أن يتحقق من أمر الخطابات التي حملتها اليه مدام دي لاموت بعبارتها بخطابات حقيقية صادرة من الملكة الى بعض أفراد أسرته . وسرعان ما اكتشف الحقيقة الرائعة ، وبدا التزوير ساطعاً أمام عينيه

فراعه موقفه واسقط في يده ، واستولت عليه الحيرة فسارع الى استشارة صديقه كاجليوسترو

* * *

ولعلك تذكر كاجليوسترو فهو بطل كبير من ابطال القصة ، وقد خلد اسكندر دماس اسمه في قصته الكبيرة الرائعة « يوسف بلسامو ، أو مذكرات طبيب » . كان كاجليوسترو أو يوسف بلسامو من أشهر رجال ذلك العصر وأبعدهم صيتاً ، على أنه لم يكن سياسياً ولا رجل حرب ، ولا سيداً عظيما وانما كان شخصيته غريبة ، يحوطها الغموض والخفاء . وقد كان للخفاء عندئذ أنفذ سلطان في نفوس الافراد والجماعات

وفي وسعك ان تقدر نفوذ رجل اشتهر في مثل ذلك العصر بأنه ساحر هائل ، وطبيب بارع ، وكيمائي قدير

وكاجليوسترو ايطالي وُلد في بالرم سنة ١٧٤٣ على أنه كان يزعم أن عمره

كان يربو على ثلثمائة سنة وانه عاش مرة قبل ذلك أيام المسيح ، وان المسيح كان صديقه الحميم . وقد نشأ أفاقاً ماهراً ، ولصاً بارعا ، حتى أتيح له ذات يوم أن يسرق من جوهري مقداراً عظيما من الذهب وأن يفر به خارج ايطاليا خوفاً من الوقوع في قبضة العدالة ، فسافر الى اليونان ، وانفق اعواماً طويلة يتجول في مصر وبلاد العرب ، وفارس ، وغيرها من بلدان المشرق تحت أسماء وصفات خلابة ، ويكسب قوته من التنجيم والتعزيم في الميادين العامة ، والتغرير بعقول البسطاء والسذج

ثم عاد الى أوربا ليمتهن الطب والتنويم والتنجيم والسحر ، ويزعم انه قد نفذ الى الاسرار التي فقدت منذ أقدم العصور ، وانه يستطيع أن يصنع الذهب ويكبر الماس ، ويشفي جميع الامراض

وكان لمزاعمه وذكائه تأثير صادق في الافراد والجماعات ، فكان يهرع اليه مئات من المرضى والبسطاء لينتفعوا بعلمه وطبه ، وكان يغنم الاموال الوفيرة من سيدات العصر وساداته حتى غدا اسمه اشهر اسم يطبق الآفاق

وكانت زوجه ايطالية نادرة الحسن ، كان جمالها الفتان من أسباب نجاحه ونفوذه الخارق

والواقع أن نجاح كاجليوسترو ، وقدرته على استكشاف الخفاء والغيب ، يرجعان الى أنه درس شيئاً من التنويم ، وتلقى بعض أسراره عن مسمر ، وقد كان التنويم حينئذ في مبدأ ظهوره

وقد وفد كاجليوسترو على شتراسبورج ، يسبقه صيته الهائل وأقام بها ، فتعرف به الكردينال وقويت بينهما روابط الصداقة حتى كان يستشيره في كل شئونه

فلما حلت به تلك النكبة هرع اليه ، وسأله الرأي ، فأشار عليه برأي لا بأس به وهو أن يسارع برؤية الملك فيقص عليه تفصيلات الحادث كلها ، فلم يصغ روهان الى نصحه ، واعتزم أن يحل المشكل بدفع ثمن العقد من ماله اتقاء لما عسى أن يترتب على اذاعة المسألة من المسئوليات والفضائح

وربما كان هذا خير حل يمكن اجراؤه لو توقف الامر على ارادة

روهان وحدها غير أنه لم يكن في وسعه أن يتصرف بمفرده بعد لان مدام كامبان أخطرت الملكة بزيارة الجوهري بيمر ، وبما قاله ، فأمرت باستدعائه على الأثر ، فحضر الجوهري الى القصر في يوم ٩ اغسطس وقص على الملكة تفصيلات الصفقة كلها ، فدهشت الملكة ، وارتاعت لخطورة الحادث وأمرته أن يكتب لها عنه تقريراً مسهباً ، فكتبه وقدمه اليها في ١٢ اغسطس ، فقدمته الى الملك وتفاوضت معه ملياً في شأنه

ثارت الملكة غضباً وسخطاً على روهان وألفت الفرصة سانحة للانتقام منه ومن أسرته التي تتزعم حزب خصومها ، ! كيف تصل جرأة هذا الكردينال الى أن يزعم أنها اختارته لان يشتري لها في الخفاء عقداً ، وانه يفاخر بأنها تكاتبه سراً ، بل أنه يعتقد أنها تنسى جلالها الملكي ، وواجبها الزوجي الى حد أن تنزل الى لقائه في ظلام الليل في بستان فرساي ؟

ولعل لويس السادس عشر كان يؤثر أن يعالج الخطب في خفاء وسكينة ، لولا أن حمله حبه الاعمى لزوجه على الاعتقاد بأنه يخدم العدالة ، وينتقم لشرف زوجه باذاعة المسألة وطرحها أمام القضاء

***

وفي ١٥ اغسطس استدعى الملك الكردينال دي روهان الى مكتبه الخاص ، فذهب مرتدياً ثيابه الدينية اذ كان متأهباً لالقاء القدس في فرساي ، وهنالك وجد الملك والملكة وميرومزنل وزير الحقانية ، والوزير برتي خصمه وعدوه

وكان التقرير الذي كتبه بيمر عن مسألة العقد ملقى أمام الملك فوق المائدة

فسأله الملك ما قصة ذلك العقد الذي اشتريته باسم الملكة يا ابن العم ؟

فامتقع لون الكردينال وأجاب بعد برهة صمت مؤلم : مولاي لقد ادركت اني قد خدعت غير أني لم أخدع أحداً

قال الملك اذاً فلا بأس عليك يا ابن العم ولكن أوضح ما تقول

فألقى الكردينال حوله نظرة الحائر فألفى الملك يحدجه بنظر هادىء

قاس ، والملكة ترمقه بين النضوب الحاقد ، وعدوه برني يرسل اليه صواعق بغضائه

ففقد اليأس لسانه وشعر بأنه رجل هالك . فأخذت الملك به رأفة وطلب اليه برفق أن يكتب له ما يريد قوله ، ثم غادره وذهب الى غرفة المكتبة لتتبعه الملكة والوزيران

فكتب روهان بضعة أسطر قال فيها : انه ذهب فريسة لخداع مدام دي لاموت

ثم عاد اليه الملك بعد لحظة وألقى نظرة على ما كتبه ثم سأله :

— وأين هذه المرأة ؟

— لست أدري يا مولاي

— وأين العقد ؟ وهل هو عندك ؟

— لقد أخذته هذه المرأة يا مولاي

— وأين السندات المقال بأن الملكة وقعتها ؟

— مولاي أنها عندي وهي مزورة !

وتلا ذلك صمت عميق

وكانت امارات التردد ظاهرة على وجه الملك ، ولعله كما قلنا كان يؤثر التسامح والصفح لولا أن دخلت الملكة حينئذ وأخذت والزفرات تمزق صدرها تؤنب الكردينال على اعتدائه على شرفها ووافق على أقوالها الوزير برتي . فاعتزم لويس السادس عشر عندئذ أمره

وكانت الجموع تموج وتتند في الساحة الخارجية ، وقد تولتها الدهشة لفوات موعد القداس واختفاء الكردينال ، فلم يلبث أن فتح باب الغرفة الملكية وظهر الكردينال شاحباً ممتقعاً ، ووراءه الوزير برتي يصيح : اقبضوا على نيافة الكردينال !

فنزلت تلك الصيحة كالصاعقة على الجموع ، واشتد الهرج والاضطراب والتأثر ، وكثر القيل والقال ، وأتلع الناس برؤوسهم ، وانهمرت أسئلتهم ، وأحدقوا بالكردينال من كل صوب حتى اضطر الدوق دي فيلروا الذي

عهد اليه بتنفيذ أمر القبض أن ينتظر عودة السكينة لينفذه

غير أن دي روهان لم يفقد صوابه اذ كان يتوقع تلك الضربة من لحظة لاخرى ، فانتهز فرصة الاضطراب العام ليهمس في أذن سكرتيره الاب جورجيل أن يحرق كل أوراقه

وفي مساء ذلك اليوم زج دي روهان الى الباستيل

ولم تمض ثلاثة أيام أخرى حتى قبض على مدام دي لا موت في بارسيزوب ، وكانت تتوقع ذلك منذ القبض على الكردينال فبادرت باحراق جميع أوراقها ، ولما استجوبت لاول مرة ألقت التهمة على كاجليوسترو وزوجه فقبض عليهما

وجدت الشرطة الفرنسية في أثر الكونت دي لا موت في انجلترا ، ورتو دي فيلت في سويسرا ونيكول دوليفا في البلجيك . فقبض على رتو ونيكول واستطاع الكونت أن يفلت من براثن مطارديه

وطار خبر القبض على الكاهن الاكبر في أنحاء فرنسا فاضطرب الرأي العام أيما اضطراب ، واعتقد الناس أنه فاتحة ثورة كبيرة وانقسموا فريقين : فريق يؤيد الملكة وهو فريق البلاط وأنصاره ، وفريق وهو السواد الاعظم ، يؤيد الكردينال ويعتبره ضحية لنزعات البلاط ونقمة الوزير برتي

— ٥ —

عهد الملك الى فرجان وزير الخارجية والمارشال دي كاستري وزير البحرية باستجواب الكردينال ، فقدم لهما في ٢٠ اغسطس خلاصة واضحة دقيقة عن الظروف التي أحاطت بمسألة العقد ، فخيره الملك عندئذ بين قضائه الخاص وبين قضاء البرلمان ، لان الملك باعتباره مصدراً للتشريع كان يحتفظ بحق الفصل في المسائل التي يرى أنه يختص بالفصل فيها

فأجاب روهان بأنه لا يرغب في الواقع في قضاء غير قضاء الملك لو أنه وثق من تبرئته مقدماً ، وأنه يفضل قضاء البرلمان في الحالة الاخرى ، فأحيل عندئذ الى قضاء البرلمان

واهتمت فرنسا بأسرها بل أوربا بتتبع سير التحقيق في تلك القضية الشهيرة

وقام بالتحقيق الرئيس داليجر ، ومستشاران هما تيتون دي فيلوران وبوي دي مارسيه ، وسار التحقيق بدقة ونزاهة واستمر عدة أشهر

وكانت مدام دي لا موت تصر على انكار التهم بثبات مدهش ، وتجيب عن الاسئلة بأكاذيب مسبوكة ومفتريات مدهشة ، وكلما أرهقتها شهادة جديدة حولت تيار اختراعها الى ناحية اخرى، ثم تمزج أجوبتها بشتم الشهود والبكاء والنوبات العصبية والاغماء المصطنع

وكان دفاعها الاساسي أن دي روهان يتهمها لأنه سعى عبثاً في خطب ودها ونيل وصلها ، فلما وجهت به وسألها عن مصدر بذخها أثناء اقامتها في بارسيروب أجابته بأنه هو خير من يعرف ذلك المصدر لأنه هو الذي وهبها ذلك المال

واتهمت كاجليوسترو بنفس التهمة وبأنه كان يهواها

غير أن كاجليوسترو لم يكن ذلك الذي تخور عزائمه ، وينعقد لسانه أزاء مثل هذا الزعم ، فلم يلبث أن فند أقوال الافاقة ، ودحضها بمهارة وبيان لم تمالك معها مدام دي لا موت نفسها من أن تلقي في وجهه شمعداناً من النحاس كان بجانبها

وكانت أشد المواجهات وطأة عليها ، مواجهتها برتو دي فيت والبارونة دوليقا اللذين اعترفا أثناء التحقيق بكل شيء ، من كتابة الخطابات المزورة ، وتزوير توقيع الملكة ، وتدبير مهزلة البستان ، واستلام العقد ، فكان اعترافهما خير مؤيد لاقوال الكردينال ، وأقوى حجة على ادانة مدام دي لا موت

غير أنها مع ذلك لم تعترف إلا بالاشتراك في تدبير مهزلة البستان ، وقد انتزع المحقق منها هذا الاعتراف في ضجة كبيرة ، وصراخ منكر ، ولعنات ونوبات مزعجة ثم حملت مغشياً عليها ولزمت الصمت بعد ذلك

وكان فريق كبير من الناس يعتقد أن مدام دي لا موت كانت صديقة الملكة حقاً ، وأنها تعرف كثيراً من أسرارها ، وأن كل ما نسبته اليها حق لا ريب فيه

* * *

تولى الدفاع عن مدام دي لاموت الاستاذ دوايو ، وعن الكردينال الاستاذ تارجيه . وأما كاجليوسترو فدافع عنه الاستاذ تيلوريه ووضعا معاً مذكرة بديعة تفيض بياناً وفكاهة . وأما نيكول فدافع عنها محام شاب يدعى بلونديل وقد هام غراماً بها

وبدأ البرلمان بنظر القضية في ٢٢ مايو سنة ١٧٨٦ واستجوب المتهمون في ٣٠ مايو بحضور اربعة وستين قاض ، واستجوب دي روهان آخر المتهمين فأجاب عن أسئلة المحكمة بطلاقة ووضوح . ثم تقرر أن يصدر الحكم في اليوم التالي اي ٣١ مايو

وفي صباح ذلك اليوم اجتمع اقطاب اسرة روهان في المحكمة وكلهم ما بين سيد عظيم وسيدة عظيمة ، ونهض النائب العام جولي دي فليري فألقى مرافعته وسط الصمت العميق وسلم ببراءة الكردينال من تهمة النصب وبأنه كان مخدوعاً ، غير أنه وجه اليه سهام اللوم اذ سمح لنفسه أن يعتقد أن الملكة تنسى شرفها وكرامتها الى حد أن تنزل الى لقائه خلسة في منتصف الليل في بستان فرساي ، وطلب في مرافعته أن يقضى على الكردينال « بأن يعلن امام المجلسين مجتمعين وبحضور النائب العام أنه كان طائشاً اذ اعتقد أن الملكة قبلت أن تلقاه في البستان في ساعة مريبة وأن يطلب الصفح الى الملك والى الملكة ، وأن يستقيل من منصب الكاهن الاكبر ، وأن يحظر عليه الظهور في اي مكان يسكنه الملك او الملكة الا باذن خاص من جلالتيهما ، فاذا نكل عن التصريح المذكور عوقب بالسجن »

ولما فاه النائب العام بتلك الطلبات حدثت في الجلسة ضجة شديدة ، وتعالت صيحات الغضب من كل صوب ، وحدثت بين المحامي العام سجييه وبين النائب مشادة تبادلا فيها الاهانة

ثم بدىء بأخذ الاصوات، وكانت العادة أن يقرر كل قاضي رأيه مسبباً ، فاعتبرت مدام دي لاموت مذنبة بالاجماع ، وقضي عليها بأن تكوى في الكتف بحرف V ، وهو الحرف الاول من كلمة Voleuse اي سارقة ، وأن تسجن حتى مماتها

وقضي على الكونت دي لاموت غيابياً بالاشغال الشاقة المؤبدة

وقضي على رتو دي فيت بحكم بسيط هو النفي خارج المملكة وذلك نظراً لصداقه وصراحته في التحقيق

اما نيكول دوليفا فبرئت لعدم كفاية الادلة

وبرىء كاجليو سترو براءة خالصة

واما الكردينال فقد احتدمت بشأنه معركة حقيقية استمر لظاها ثمانية عشرة ساعة . والواقع أن موقف البرلمان بشأنه كان دقيقاً جداً لان الحكم له خذلان للملك والبلاط قاطبة ، والحكم عليه فوز للملكة وحزبها وهو ما لا يروق في نظر السواد الاعظم . على أن الفوز كان من نصيب الكردينال فقضي ببراءته بأغلبية ستة وعشرين ضد اثنين وعشرين

* * *

وكان الحكم ببراءة الكردينال دي روهان ضربة مؤلمة للملكة

أرادت ماري انتوانيت أن تسحق دي روهان ، فأجابها البرلمان بأن الكردينال كان في حل من أن يعتقد امكان امتهانها لكرامتها كملكة والمغامرة بشرفها كزوجة من أجل حلية .

ولم يحتمل الملك الحكم على شرف زوجه فأرغم دي روهان على الاستقالة تعسفاً وأمره أن يعود الى ديره

* * *

لم يستفد البلاط او حزب النبلاء الذي كان يؤيد دي روهان ضد البلاط شيئاً من ذلك النضال ، بل خسر البلاط وخسر النبلاء ، واستطاع الشعب أن يستخرج من فضيحة العقد حججاً جديدة يؤيد بها صيحاته ضد البلاط وضد النبلاء

استطاع الشعب أن يرى مثلاً بارزاً من فساد البلاط ، واستلاب النبلاء لاموال العامة ، وتبذيرها اسرافاً وسفهاً ، بينما يموت آلاف من أبنائه بين براثن الحاجة والبأساء الطاحنة

واستطاع أن يعلم الى أي حد من البذخ وبأي ضروب من الخزي

يعيش الكهنة باستغلال تقوى العامة وسذاجتهم

ولنذكر أنه لم يكن يفصل ذلك العهد من نشوب الثورة الكبرى الا عامين وبضعة أشهر ، فلنتصور اذاً مبلغ ما كانت تثيره هاته العواطف من السخط في انفس الشعب والى أي حد كانت تذكي بغضاءه لاولئك الذين يرى فيهم سالبيه ومضطهديه ومنتهكيه

لقد قال ميرابو بحق : « ان حادثة العقد فاتحة الثورة »

لويس السادس عشر

سنة ١٧٩٣

تمهيد

لم تكن الثورة الفرنسية في ذاتها مفاجأة رائعة وان كانت قد تمخضت عن نتائج لم يتوقعها انسان حتى أولئك الذين أذكوا ضرامها ، وسيروا حوادثها ، ولكنها كانت نتيجة طبيعية محتومة لما تقدمها من الحوادث والظروف

ملكية تمعن في الطغيان واستلاب أموال الشعب وحرياته ، وبلاط يموج بالفجور والرذيلة ، و نبلاء وكهنة يسخرون الطبقات الاخرى لتحقيق بذخهم ونعيمهم ، وضرائب فادحة ، وادارة مختلة ، وقضاء فاسد ، وبأساء طاحنة ، وآداب ثائرة ملهبة اجتمعت كلها لتثير العاصفة الكبرى

كانت فرنسا تخطو في سبيل الثورة خطى هائلة منذ عهد لويس الخامس عشر نفسه ، وما كان بوسع خلفه الملك الضعيف لويس السادس عشر أن يقف سير تيار جارف يحمل الملكية ورسومها الى هاوية سحيقة حفرتها قرون طويلة من الاستبداد والعسف

* * *

رأينا في الفصل السابق كيف كانت حال البلاط والنبلاء في عهد لويس السادس عشر وزوجه الملكة ماري انتوانيت من اغراق في صنوف المفاسد واللهو ، وإرهاق لطبقات الشعب واستهانة بحقوقها ، واغضاء عن آلامها وصرخاتها

وقد كانت حادثة العقد عاملا جديداً في اذكاء سخط الشعب على الملكية وأشياعها ، وكان من الواضح أن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم طويلا وانه لابد من تغييرها عاجلا

بل لقد كان الفريقان يشعران بضرورة هذا التغيير ، فالشعب من جهة

كانت ترتفع صيحاته بطلب الاصلاح والغوث ما بين آونة وأخرى ، والبلاط من جهة أخرى يحاول أن يتلمس مخرجاً لتهدئة الافكار المضطربة والصيحات المتوالية ، ولكن أنى له أن يتوفق الى ذلك وهو ضنين برسومه وامتيازاته ، حريص على مغانمه وبذخه ؟

وماذا تفيد الرغبة في الاصلاح اذا لم تقترن بوسائله ؟

كانت معركة يشتد لظاها من يوم لآخر بين البلاط وأشياعه من النبلاء والكهنة وبين الطبقات الاخرى ، وكان على الشعب أن يعمل بنفسه لتخفيف آلامه ، وتحقيق مطالبه ، أو بعبارة أخرى كان عليه أن يسحق أولئك الذين كانوا مصدراً لشقائه

وقد عمل لنفسه ، وافتتح بجهوده بتأسيس الجمعية الوطنية ، بعد أن اصطدم نواب الشعب بالحكومة وانضمت الحكومة الى الطبقات الممتازة ، واجتمع نواب الشعب في يوم ماطر بعد اذ أوصدت في وجوههم قاعة الاجتماع الملكية ، في ساحة قريبة منها وهنالك أقسموا بألا يفترقوا حتى يمنحوا فرنسا حكومة جديدة

* * *

على أن الثورة الحقيقية ابتدأت بسقوط سجن الباستيل في ١٤ يوليه سنة ١٧٨٩

سقط الحصن البغيض الذي كان رمزاً لعسف الملكية واستبدادها قروناً طويلة ، والذي كان مدفناً للعقول المستنيرة ، والاصوات العالية ، سقط في يد شرذمة جائعة ، عارية ، خائرة القوى ، ولكن قوية الايمان ملتهبة العزائم

لم يكن سقوط الباستيل في ذاته حادثة هامة ، ولكنه كان أول انتصار للثورة ، وأول طعنة حقيقية لنظم الاستبداد والايثار والظلم

ارتاع البلاط وشعر بالسحب تتكاثف فوق رأسه ، فذهب الملك في صباح اليوم التالي الى الجمعية الوطنية وأعلن اليها أنه يقبل أن يسحب جنوده من باريس وفرساي (وهو ما رفضه قبلا) وأنه يركن الى اخلاصها في تهدئة

الشعب ، فهدأت باريس في الحال ، وعين بايلي حاكما لها ، ولافاييت قائداً للحرس الاهلي

وأراد الملك فوق ذلك أن يقدم البرهان على اخلاصه للشعب وعطفه على مطالبه ، فزار باريس في ١٧ يوليه وعلى صدره الشارة المثلثة اللون — الابيض والازرق والاحمر — وهي شعار الثورة ، فاستقبله الباريسيون بالحماسة والترحاب ، ولاحت تباشير الصلح بين الفريقين . غير أن الملكة عز عليها أن تخضع أو تذل ، وعضدها سواد البلاط حرصاً على رسومه وامتيازاته ، وآثرت أن تسلك سبيل العنف والنضال ، وأن تحافظ على حقوق الملكية كاملة مطلقة فأنكرت تصرف الملك ، وحالت دون مضيه في سياسة التوفيق والتفاهم

كانت ماري انتوانيت على قول ميرابو « رجل الملك الوحيد »

وبدلا من ان تستمر المفاوضات بين الملك والجمعية لعقد اتفاق يمنح الملك بمقتضاه بعض الحقوق الدستورية لشعبه ، غدا القصر وكراً للتآمر على الشعب ونوابه ، وتدبير الخطط لمقاومته وتفريق جموعه

غير أن الجمعية الوطنية من جانبها استمرت في تنفيذ مهمتها دون اكتراث بالبلاط ودسائسه . فأعلنت حقوق الانسان ، وألغت امتيازات الاشراف والكهنة ، ونظم الاقطاع وما اليها من حقوق موروثة ، وفوارق بين الطبقات . ووضعت دستوراً جديداً لفرنسا أساسه أن تكون الحكومة ملكية محدودة بلا سلطة مطلقة والتشريع من حق برلمان ذي مجلس واحد أو بعبارة أخرى كان للامة أن تأمر ، وعلى الملك أن يطيع . وفي هذا يقول لاڤالي : « قضت الثورة من وجهتها الاجتماعية على الاشراف ، وقضت من وجهتها السياسية على الملكية »

* * *

وفي ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٨٩ أقام البلاط وليمة للحرس الملكي شهدها الملك والملكة وكبار الحاشية وتقلدوا الشارة البيضاء — شعار الملكية — وأنشدوا الاغنية الملكية وأهانوا الشعب والجمعية الوطنية ، فطار الخبر الى باريس ، واشتد سخط الباريسيين . وفي صباح ٥ اكتوبر غص ميدان جريف بجمع

هائل من النسوة الثائرات هاجمن دار البلدية وهزمن رجال الحرس الاهلي ، واستولين على السلاح ثم صاح فيهن ستانسلاس مايار (وهو من قواد موقعة الباستيل) : « الى فرساي ! » فانطلقن كالسيل الجارف وكسرن أبواب المدينة ، وانضم اليهن خلال مسيرهن كثير من الرجال ، وبدأن بمهاجمة الجمعية الوطنية وأعضاء النواب وطلبن قراراً بتخفيض ثمن الخبز . ثم وثبن على القصر فهربت ماري انتوانيت الى جناح الملك ، فطعن فراشها بالرماح . واستغاث البلاط بالحرس الاهلي فقدمت منه فرقة للنجدة ، ثم قدم لافاييت بنفسه ليهدىء ثورة الجموع . وكان الملك غائباً يلهو بالصيد ، فلما عاد الى القصر راعه الامر ، واضطر أن يخرج الى شرفة القصر مع الملكة ليستعطف الثائرات ، وقد كان أسيرهن في الواقع لانهن قتلن عدداً من حراسه ، ولكن الثائرات لم يقنعن بذلك وأصررن على ذهاب الملك وأسرته الى باريس ، فاضطر الملك الى الاذعان خوفاً من سوء العاقبة ، وسار الى باريس في عربته مع الملكة وولي العهد وابنته ، وحولهم جموع كبيرة من الثوار تهتف بحياة الامة حتى وصلوا الى قصر التويلري بعد رحلة مؤلمة دامت نحو سبع ساعات

وهنا شعر الملك بالحقيقة الرائعة ، وهي أنه أضحى وأسرته سجناء الثوار ، وأن نقله الى باريس لم يكن يقصد به الا التأكد من شخصه ، وابقائه تحت رحمة الثوار بعيداً عن كل نجدة ، وأن الحرس الذي عين لحراسته لم يعين الا لمراقبته واحصاء حركاته وسكناته

على أن الملكية لم تعدم كل نصير بعد ، فقد كان فريق من نواب الجمعية الوطنية ذاتها يرون أن الثورة يجب أن تقف عند هذا الحد اتقاء لوقوع البلاد بين براثن الاضطراب والفوضى ، وأن الملكية يجب أن تبقى رمزاً للسلطة ما دامت الامة قد وصلت الى مطالبها الدستورية . وكان زعيم هذا الفريق ميرابو أقوى شخصية في الجمعية الوطنية ، وأخطب خطبائها . فلما وقعت ثورة فرساي ، ونقل الملك الى التويلري أخذ يكاتب الملك والملكة سراً ، وينصح اليهما بالاذعان الى قرارات الجمعية الوطنية . وفي ٣ يوليه سنة ١٧٩٠ قابل الملك والملكة في سان كلو وهدأ روعهما ، وفي ١٤ يوليه

أول عيد للثورة حلف الملك يمين الطاعة للدستور مع النواب في ساحة الشان دي مار فهتف الشعب له هتافاً مستفيضاً

غير أن هذه لم تكن سوى مظاهر خادعة لان نفوذ الجمهوريين في الجمعية كان يرجح نفوذ الدستوريين ، وكان سواد الشعب يؤيد الجمهوريين ، وكانت الجمعية تتصرف في شئون الدولة متجاهلة وجود الملك . فثار الملك سخطاً لذلك وآثر أن يعمل نهائياً بنصح الملكة والمهاجرين فلم تنته سنة ١٧٩٠ حتى كان يخابر بشأنه معظم ملوك اوربا ، ويطلب اليهم النجدة والحماية

ولم تمض بضعة أشهر أخرى حتى توفي ميرابو وانهار بموته حزب الاعتدال في الجمعية . فاعتزم الملك أن يلجأ الى الوسيلة الاخيرة وهي أن يفر من باريس الى الحدود الشرقية ، وكانت هذه مخاطرة هائلة اذا أفلح فيها فقد يستطيع بمؤازرة المهاجرين والالمان أن يسترد عرشه وسلطانه ، واذا أخفق اعتبره الشعب لا محالة خائناً ، وقد أخفق اذ غادرت الحاشية باريس سراً في ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١ وفر الملك واسرته فوصل آمناً الى ڤارين على مقربة من ڤردون حيث تقرر لقاءه بجماعة الحرس التي دبرت مشروع فراره ، ولكنه انتظر في ناحية من البلدة ، وانتظروه بالخيل في ناحية أخرى ، ولم يلبث أن عرفه الناس رغم تنكره فقبضوا عليه ، ثم لحق به الثوار وعادوا به وباسرته الى باريس

وكان ذلك الحادث أول فرصة انتهزها الجمهوريون للمطالبة بعزل الملك باعتباره خائناً للامة لانه لم يقصد من الفرار الا الاستعانة بالمهاجرين والاجانب على سحق الثورة ، بل لقد نهض جماعة منهم وهم الكردليون أتباع دانتون يطلبون محاكمته واجتمعوا مع شرذمة من الثوار في الشان دي مار في ١٧ يوليه فنشبت بينهم وبين الدستوريين معركة دموية فهزم الجمهوريون ، وركنوا الى السكينة حيناً ، ولبثوا يرقبون الفرص

ومن ذلك الحين اشتدت مراقبة الثوار للاسرة الملكية في التويلري ، وأرغمت على أن تعيش تحت وابل من الاهانات المستمرة ، وسيل من

التهديدات وصيحات الوعيد والموت ، تقذفها افواه العامة وأنهر الصحف

* * *

وفي ٢٠ يوليه سنة ١٧٩١ هجم الثوار على قصر التويلري ودخلوه رغم مقاومة الحرس الاهلي ، وأهانوا الملك والملكة واضطروا الملك أن يلبس القبعة الحمراء (قبعة الحرية) وأن يعد « بالاذعان لكل ما يأمر به النظام الجديد »

وفي ليلة ١٠ اغسطس أعاد الثوار الكرة على التويلري ، وهاجموه بعد منتصف الليل فاستمرت الحاشية تدافع عن نفسها حتى قدم ردريه النائب العام في صباح اليوم التالي ، واقترح على الملك أن يلجأ الى حماية الجمعية التشريعية ، فسار الملك وأسرته بين جموع هائجة متوعدة حتى وصل دار الجمعية ، وهنالك أودعوا مخدعاً ضيقاً كاد يقتلهم حره نيفاً وسبعة عشرة ساعة ، وقررت الجمعية أنها تضع الملك واسرته « تحت حماية القانون »

وكان الملك يعتقد حين مغادرته للتويلري انه يستطيع العودة اليه متى هدأت الحال ، ولكنه خدع في ذلك الامل فانه أخذ وأسرته الى دير الفيان وحجزوا هنالك حتى ١٣ اغسطس . وكانت المناقشات الحادة تحتدم أثناء ذلك في الجمعية التشريعية حول اختيار مكان ملائم تسجن فيه الاسرة المالكة ، فوقع اختيارها في النهاية على التامبل ، وهو حصن عتيق مشيد الاركان ، كثيف الجدران ، منيع الابراج ، فزج الملك وأسرته الى برجه الاوسط ووضعوا تحت حراسة الكومون والبلدية ، وكانت الرقابة على الملك وزوجه شديدة صارمة فلم يكن بوسعهما أن يقرآ صحيفة ، أو يكتبا كلمة ، وكانا يقفان على أخبار الحوادث اليومية من بعض الحراس أو من صياح باعة الصحف

وكان الملك يقضي أوقاته في قراءة الكتب ، والملكة في التطريز غير أنها منعت منه بعد مدة قصيرة بحجة انه قد يخفي مكاتبة سرية

وكان يسمح لهما بالتريض مرتين في اليوم في الحديقة المجاورة للتامبل بصحبة حرس مسلح

محاكمة لويس السادس عشر

لم ينقطع الملكيون منذ نشوب الثورة عن التأهب لسحقها وتدبير الخطط لاعادة الملكية الى عرشها وسلطانها ، فاندس فريق من زعمائهم الى المقاطعات والاقاليم الثائرة في فرنسا كفنده ، وبريتانيا ، وبوردو ، يثيرون الفتن والقلاقل هنا وهنالك على انصار الثورة والانقلاب ، ويجندون الجند ويدخرون الاسلحة ، وفر معظمهم الى ما وراء الحدود الشرقية واجتمعوا في كوبلنز ، وجمعوا حولهم ما استطاعوا من ضباط الجيش وجنده الخارجين على الثورة ، واخذوا في مفاوضة الدول الاجنبية على غزو فرنسا

ولم ينقطع لويس السادس عشر وماري انتوانيت من جانبهما عن مفاوضة الملكيين وامدادهم بالآراء والافكار ، وكان الملك منذ أن استفحل أمر الثورة يفاوض معظم الدول الاوربية ولا سيما المانيا والنمسا بواسطة الفارين من آله ووزرائه السابقين

وكانت الحكومات الملكية في الدول الاخرى ترقب تطور الثورة بجزع وترعد لكل ضربة جديدة يهوي بها الثوار على الملكية الفرنسية . فلما اندلع لهيب الثورة الى كل ناحية وسجن الملك وأسرته هالها الامر ، ورأت ان الاعتداء على الملكية بتلك الجرأة ليست مسألة داخلية تهم فرنسا وحدها ، وانها بالعكس مسألة عامة تهم قضية الملكية في كل دولة ، ونشطت الى التأهب لغزو فرنسا وسحق الثورة

وكان أسبق الدول الى تلك الاهبة النمسا والمانيا وذلك لانهما أقرب الدول الى مسرح الحادث ، وأقربها بذلك الى التأثر بشره ، ولان اعتداء الثوار تناول عضواً ملكياً من اسرتيهما هو ماري انتوانيت

وفي ربيع سنة ١٧٩٢ تمت اهبتهما ، وامدهما مونموران وزير لويس السادس عشر بالخطط والاسرار الحربية ، وتعهد لويس السادس عشر أن يدفع نفقات الحرب الى حلفائه عقب النصر ولو كان على يقين منه

ثم وثبت الجيوش المتحدة على فرنسا واجتازت الحدود وانتصرت على

جيوش الثورة بادىء بدء وكان البلاط يعتمد على بضعة آلاف من انصاره المخلصين في سحق الشعب الباريزي ، وحل الجمعية التشريعية ، ولكن جيش الثورة استرد عزائمه قبل بعيد وثبت في ڤالمي ، وانزل بالعدو المغير هزيمة فادحة ، فذكا لهيب الثورة أشد من ذي قبل ، وانزلت الثورة بالملكية ضربتها الحاسمة في ١٠ اغسطس ، حسبما فصلنا ، وزج الملك واسرته في سجن التامبل ، ودبر الجمهوريون مذابح سبتمبر ، التي هلك فيها معظم الزعماء الملكيين والكهنة وانصار النظام القديم



لويس السادس عشر

وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ أعلن المؤتمر الوطني عزل لويس السادس عشر ، وفي اليوم التالي أعلن سقوط الملكية وتأسيس الجمهورية

وكان الملك أثناء ذلك يعيش في سجنه منقطعاً عن العالم الخارجي كما قدمنا ، فيجتمع مع الملكة وولديها في غرفته لتناول الافطار في الساعة التاسعة ، ثم ينتقل الى غرفة الملكة في الساعة العاشرة فيشتغل بتعليم ولده وتشتغل الملكة بتعليم ابنتها ، ثم يذهب الجميع في الساعة الاولى بعد الظهر

للتريض بصحبة سانيتر ورجاله ، ويتناولون الغذاء في الساعة الثانية ، ثم يفترقون بعد العشاء . وكان الملك يشغل الطبقة العليا من البرج ، ويحرس باب جناحه أثناء الليل شرذمة من الجند متى أوى الى غرفته

وقد دبرت في الاسابيع الاولى لسجن الملك عدة مشاريع ضئيلة للفرار اكتشفت كلها وادت تباعاً الى حظر حيازة الورق والاقلام والحبر والسكين والمقص وغيرها والى تشديد الرقابة والعناية حتى كان سانيتر رئيس الحرس يقوم بالتفتيش العام في كل يوم

* * *

قدمنا أن الحزب المتطرف من نواب الجمعية الوطنية كان يرى منذ بدء الثورة عزل الملك ، وانه ذهب الى ابعد من ذلك حينما فر الملك الى فارن ، فجاهر بمطالبة محاكمته أيضاً ، وانه حدثت بسبب ذلك بين الجمهوريين والدستوريين في ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١ معركة دموية في الشان دي مار

ثم سما شأن الجمهوريين على أثر الحوادث المتوالية وتوج فوزهم باعلان الجمهورية الفرنسية ، فارتفعت عندئذ في المؤتمر أصوات المتطرفين من اليعقوبيين مثل دانتون وابير وروبسبيير ومارا بطلب محاكمة الملك أو لويس كابيه كما اصطلح على تسميته منذ الحوادث الاخيرة ، ولم يك ثمة ما يعترض به على تلك المحاكمة خصوصاً بعد أن غزا العدو أرض الوطن بتحريضه وتحريض أشياعه

وقد ثارت في المؤتمر عدة مناقشات حول الوجه القانوني اعني هل تجوز محاكمة لويس السادس عشر من الوجهة القانونية ؟ وأي محكمة تختص بتلك المحاكمة وباصدار الحكم ؟ قدم دفريش فالازه الى المؤتمر تقريراً بحث فيه الوقائع المنسوبة الى الملك ، وعما اذا كانت تكون في ذاتها جرائم معاقباً عليها ، وقدم مايه تقريراً آخر فناقش المؤتمر في التقريرين في جلسة ١٣ نوفمبر سنة ١٧٩٢ . وكانت اللجنة الدستورية قد قررت في تعاقدها مع الملك سنة ١٧٩١ حصانة شخص الملك ، غير أن أحداً من أعضاء المؤتمر لم يجرأ أن يدافع عن هذه الحصانة في ذاتها ، وان كان بعضهم قد دافع عنها

باعتبارها نصاً قائماً يجب احترامه . وخلاصة أقوال هذا الفريق الذي كان يريد أن ينقذ حياة الملك هو أن الامة ذاتها مرتبطة بذلك النص لا الى الابد ولكن الى حين ، وان القانون هو القانون فليس في الامكان أن نعطي للقانون الجديد الذي يحل الامة به من عهدها السابق أثراً رجعياً يضر بالطرف الآخر . وقد نص في عهد سنة ١٧٩١ على ان جريمة الخيانة ومحاربة الامة يعاقب عليها بالعزل ، وقد توقعت هذه العقوبة ، وان الوزراء المسئولين يحجبون شخص الملك

وتتلخص حجج الفريق الآخر – وهو السواد الاعظم الذي أصر على المحاكمة في ما يأتي :

انه اذا كان القانون مقدساً لا يجوز انتهاكه فذلك بالنسبة للهيئات المقررة وليس بالنسبة للامة ذاتها وهي صاحبة السلطان المطلق . وأن لويس السادس عشر لا يستطيع أن يحتمي بعهد لم يخلص له قط وبدستور عمل لهدمه بكل الوسائل ، وان الوزراء لا يسألون الا عن أعمالهم الظاهرة المباشرة اذ كيف يسألون عن أعمال يجهلونها وقد دبرت من وراء حجاب ؟ أما العزل فليس عقوبة كافية فهو أثر محتوم لمحاولة فشلت وليس عقاباً مقرراً لجريمة ارتكبت ، وأما العقاب الذي يجب توقيعه فهو العقاب الذي سنته قوانين الانسانية دائماً لمعاقبة الخيانة ، وأما المحكمة فهي الامة ممثلة في أشخاص نوابها الذين اختارتهم ، ولا يصح أن يقال في تلك الحالة انها خصم وحكم في نفس الوقت اذ لو اصغينا الى هذا الاعتراض فهل نحيل قضية لويس السادس عشر الى تحكيم دولة أخرى ؟

وكان سان جيست زعيم جماعة الأنهام ، يتمسك بنظرية « القوة الظافرة والسلام العام » رداً على موريسون الذي دافع عن حصانة الملك ، ودافع روزيه وفور عن لويس السادس عشر من الوجهة التاريخية والمعنوية ، وتكلم فوشيه معترضاً على حكم الاعدام في ذاته

واسفرت هذه المناقشات التي استمرت حتى ٣٠ نوفمبر عن ان اللجنة التشريعية للمؤتمر أخذت برأي السواد الاعظم ، واصدرت في

الموضوع قراراً حاسماً هو : « ان يوضع تقرير اتهام بالوقائع المنسوبة الى لويس ، وأن يمثل لويس بشخصه ، ويمنح حق الاستعانة بالمحامين للدفاع عن نفسه . وان المؤتمر يصدر حكمه قابلا للاستئناف لدى كل عضو من أعضائه الحاضرين بمفرده »

وفي ٣ ديسمبر حصل روبسبيير من المؤتمر على القرار الآتي : « ان المؤتمر يعلن أنه سيحاكم لويس السادس عشر وأنه سيحاكمه بنفسه »

وكانت الاوراق التي وجدت في خزانة التويلري قد أودعها رولان وزير الحقانية في المؤتمر منذ ٢٠ نوفمبر ، غير ان مدام كامبان (قارئة الملكة) تقول في مذكراتها ان الاوراق الهامة سحبت من الخزانة منذ ١٠ اغسطس . وقد ارتاب بعض أعضاء المؤتمر في ان رولان قد اخفى أو اتلف بعضها ، وعلى أي حال فانه لم يوجد بها ما يضاف الى الادلة التي جمعت وعرفت من قبل

وفي ٤ ديسمبر أعلن بيسيون ان المؤتمر سينقطع للنظر في قضية الملك كل يوم من الساعة الحادية عشرة صباحاً الى السادسة مساء ، وان الحكم لن ينطق به عقب التحقيق العلني مباشرة . وفي ١٠ ديسمبر قدم تقرير الاتهام للمؤتمر واعلن الملك بالحضور الى هيئة المؤتمر في اليوم التالي ، وحمل اليه بيسيون اعلان الحضور في الساعة الحادية من ذلك اليوم (١١ ديسمبر) ، فلم يمتنع الملك عن الحضور كما فعل شارل الاول ، بل ذهب من فوره بصحبة بيسيون الى المؤتمر واجلس بالقرب من الحاجز

فتلي عليه تقرير الاتهام الذي يقرر مسئوليته الشخصية عن جميع أخطاء حكمه من ٢٠ يونيه سنة ١٧٨٩ الى ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ ، فأجاب عن فقراته واحدة فواحدة تارة بانكار الوقائع المنسوبة اليه ، وطوراً بنسبتها الى وزرائه ، وطوراً باقرارها بالاستناد الى نصوص دستور سنة ١٧٩١ الذي كان يجيد حفظه . ثم أعيد الى التامبل في منتصف الساعة السابعة ، وأودع جناحه الخاص دون أن يلتقي بأحد من افراد اسرته

* * *

وقد تقدم للدفاع عن الملك المتهم محامون عدة مثل ترنحيه وترونشيه

ولالي توندال وغيرهم ولكن المؤتمر لم يقبل منهم سوى مالزرب الوزير السابق ، وتخام فتي بدعى ديسيز وقد أذن لهما الكومون أن يدخلا التامبل وأن يخرجا منه دون قيد ولا تفتيش ليتباحثا مع الملك السجين في أوجه الدفاع . وفي ٢٦ ديسمبر أعلن الدفاع استعداده للمرافعة فدافع ديسيز عن نظرية الحصانة وناقش وقائع تقرير الاتهام ، وتساءل هل يحاكم لويس السادس عشر كوطني عادي ، وهل ألفت هيئتان لمحاكمته طبقاً لنص القانون اخذاهما للاتهام والاخرى لاصدار الحكم ، وهل للمتهم حق في رد المؤتمر وقال بان ثلثي الاعضاء قد ابدوا رأيهم بالادانة ، وان التصويت كان سرياً ولم يسبب ، وفي هذا القسم من دفاعه نطق ديسيز بعبارته المشهورة مخاطباً المؤتمر : « ابحث فيكم عن قضاة فلا أجد الا متهمين » ثم نهض الملك ودافع عن نفسه بخطاب قصير القاه خلال الصمت العميق . وبعد ان اعيد الى التامبل في المساء نهض لانجو نيه أحد أعضاء المؤتمر وطلب الغاء الاجراءات باعتبارها منافية للقانون والدستور وحمل بجرأة وشدة على « متآمري ١٠ اغسطس » ، وفي اليوم التالي ـ ٢٧ ديسمبر ـ نهض سان جيست وحمل على أقوال الدفاع والمدافعين من أعضاء الهيئة عن لويس السادس عشر وصوره في صورة المستبد الماهر المتواضع الذي طغى بمهارة ثم دافع عن نفسه بادب وتواضع ، وقال بأنه لا يرى في أعماله وتصرفاته المتناقضة الا الغدر المنظم مجسما . واقترح الجيروندبون (وهم من انصار الدستور والاعتدال) بلسان فرجنيو أن يستفتى الشعب في الامر ، فرفض الاقتراح ووصف بأنه نذالة سياسية ، ومدعاة للحرب الاهلية وتفريق الكلمة

وفي ٧ يناير سنة ١٧٩٣ قرأ باربر ملخص القضية ، وتقرر أن توضع الاسئلة ، وأن تؤخذ الاصوات في يوم ١٤ يناير والايام التالية .

وهذه هي الاسئلة التي طرحت على المؤتمر نوردها بنصها :

السؤال الاول : « هل ارتكب لويس كابيه جناية التآمر على حرية الشعب وسلامة الدولة العامة ؟ » .

وقد أجاب بالايجاب على هذا السؤال ٦٩١ عضواً من أعضاء المؤتمر البالغين ٧٤٩ ولم يجب أحد بالسلب ، ولم يصوت باقي الاعضاء لسبب الغياب أو المرض

السؤال الثاني : « هل يطرح الحكم الذي يصدره المؤتمر الوطني أمام الشعب للمصادقة عليه » ؟

وقد أجاب بالسلب عن هذا السؤال ٤٢٤ عضواً وبالايجاب ٢٨٧ ولم يصوت الباقون لاسباب مختلفة

السؤال الثالث : « ما هو العقاب الذي يوقع على لويس » ؟

وقد تضاربت الآراء في الاجابة عن هذا السؤال ، وأخذت الاصوات وأحصيت بمنتهى العناية ، وطرح ما بيه أثناء أخذ الاصوات مسألة وقف التنفيذ ، فكانت النتيجة كما يأتي : صوتان للاشغال الشاقة و٢٨٦ صوتاً للسجن والنفي و٣٣ صوتاً للسجن والنفي والاعدام في حالة غزو العدو لارض الوطن ، و٣٦١ للاعدام العاجل و٢٦ للاعدام مع المناقشة في ايقاف التنفيذ ، وبذلك بلغ المصوتون للاعدام المطلق ٣٨٧ ، وهو رقم يربو على الاغلبية المطلقة

وفي يوم ١٩ يناير وضع السؤال الرابع وهو : « هل يوقف تنفيذ الحكم الصادر على لويس كابيه أم لا ؟ » فاجاب عن هذا السؤال بالسلب ٣٨٠ وبالايجاب ٣٤٦ ولم يصوت الباقون لاسباب مختلفة

ولم يقم الملكيون أثناء ذلك بمحاولة جدية لانقاذ الملك ، وقد اتخذ الكومون أشد الاجراءات للمحافظة على السجين خصوصاً منذ أن صدر حكم الاعدام في ١٧ يناير

وفي ٢٠ يناير — في الساعة الثانية بعد الظهر — ذهب جارا وزير الحقانية وسانتير قائد الحرس الاهلي الى سجن التامبل ، وتلى على لويس السادس عشر الحكم الصادر باعدامه من المؤتمر الوطني ، فقدم المحكوم عليه الى المؤتمر طلباً كتابياً يطلب فيه أن يمهل ثلاثة أيام ليتأهب فيها للموت ، وأن يسمح للملكة وأولادها بمغادرة فرنسا ، وأن يسمح له برؤية أسرته

قبل الموت ، وان يباركه قسيس يختاره بنفسه ، فرفض الطلبان الاولان وسمح له بالاخيرين

***

وفي نحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم استدعى الى التامبل قسيس أجنبي يدعي ادجورث دي فرمون فلبث مع الملك نحو ساعتين يحادثه في شئون الآخرة

وفي الساعة الثامنة ونصف سمح لاسرة الملك بمقابلته فارتمت الملكة على قدمي زوجها وأغمي على ابنته (مدام رويال) بين ذراعيه ، وجعل ولي العهد يصرخ صراخاً يمزق القلب ، واستمر ذلك المنظر المؤلم زهاء ساعتين ساد فيهما الصياح والبكاء والانين

ثم عاد الملك الى الاجتماع بقسيسه ولبث معه حتى منتصف الليل ، ثم نام نوماً عميقاً وأوصى خادمه كليري بأن يوقظه قبل الساعة الخامسة

وفي فجر اليوم التالي نهض الملك وطلب اليه قسيسه أن يفر على نفسه وعلى أسرته ألم الاجتماع بها ثانية فأجابه إلى ذلك . وكانت آخر تصرفات الملك خاصة بخاتم زواجه الذي طلب أن يعطى للملكة ، وختمه الملكي الذي أوصى بحفظه لولي العهد ، ووصيته التي كتبها في ٢٥ ديسمبر

ثم أخذ الملك الى عربة كبيرة خضراء جلس في مقدمتها جنديان ، فأجلس في مؤخرها مع قسيسه ، وسارت به الى ميدان الثورة ، تحيط بها ثلة كبيرة من الحرس الاهلي . وكانت المدينة بأسرها قد استيقظت مبكرة ، وغصت الشوارع بالجماعات قبل طلوع الشمس ، غير أن الصمت الرهيب كان سائداً في جميع طرقاتها ونواحيها ، وكانت النوافذ والابواب موصدة ، وكان يحرس الطرق والممرات جماعات صامتة من الجند

وكانت آلة الاعدام (الجيوتين) قد نصبت في فراغ شاسع ، ونصب حولها عدد من المدافع ، واحاطتها فرقة كبيرة من الجند

وكان الملك المحكوم عليه يرتدي معطفاً رمادياً ، وصدرية بيضاء ، وسروالاً أخضر ، وجورباً أبيض

وصل لويس السادس عشر الى ميدان الثورة في الساعة العاشرة ، فأخذ الى النطع تواً وخلع ملابسه ، غير أنه قاوم حينما أراد الجلاد أن يربط يديه . ثم قرعت الطبول ، فأمر سانتير بالصمت برهة صاح الملك خلالها بصوت جهوري « أرجو أن يدعم دمي سعادة فرنسا » . ثم أمر الجنرال بيريته قائد الفرقة المرابطة أن يأخذ كل جندي مكانه .

وكانت كلمات الملك الاخيرة هي : « اني أموت بريئاً ، وأرجو أن لا يسقط الدم الذي ستسفكونه على رأس فرنسا »

ويقال ان لويس السادس عشر صاح في آخر لحظة « العفو ! » وهذا ماينكره معظم الرواة ، غير انه من المحقق أن صاح صيحة عظيمة حينما وضع سلاح الجيوتين فوق عنقه ، وأنه حاول الافلات والمقاومة . ويقول شهود ذلك المنظر الرائع ان وجه الملك كان شديد الاحمرار . والظاهر انه كان يؤمل حتى آخر لحظة أن يعدل المؤتمر عن اعدامه ، وان سكينته التي حافظ عليها حتى اليوم الاخير غاضت فجأة وحل محلها الرعب والارتياع

ويقال ايضاً ان قسيسه ادجورث قال حينما سقطت رأسه : « أصعد يا ابن القديس لويس الى السماء ! »

ويقرر لويس السادس عشر في وصيته انه يصفح عن أعدائه وسجانيه ويأمر ولده بالصفح والنسيان مثله ، ويوصيه بأنه « إذا قضى نكد الطالع عليه أن يكون ملكاً أن يتفرغ بكليته الى سعادة شعبه » ويختتمها بقوله : أنه « يعلن أمام الله الذي يقرر استعداده للمثول أمامه أنه لم يرتكب جرماً مما نسب اليه »

* * *

اذا كانت الآلام التي عاناها ذلك الملك المنكود في أسره ، والتي اختتمت بمصرعه المحزن فوق نطع الجلاد تثير منا الاشفاق والشجن ، فانه يجب أن لا ننسى أيضاً انه يحمل شطراً كبيراً من المسئولية ، وان تردده المستمر ، واستسلامه لزوجه ، واغفاله كل محاولة جدية للاصلاح ، ثم اتهامه أخيراً بالثورة والشعب مع العدو حرصاً منه على عرشه وسلطانه كلها تشفع في

تصرف المؤتمر الوطني نحوه ، وان المؤتمر حزماً منه على حماية الثورة وما غنمه الشعب بدمائه من الحقوق والحريات ، كان مضطراً لان يسحق شخصية كان بقاؤها خطراً عظيما على الثورة ، ومصدراً دائماً للجزع والخوف ، وعاملاً في اثارة القلاقل في أطراف البلاد او محوراً للدسائس الاجنبية

كانت الامة تجاهد لنيل سلطتها كاملة فكيف تتفق تلك الغاية مع بقاء شخصية تعتقد ان سلطتها مطلقة ، مستمدة من الحق الالـهي ، وانها سيدة الحياة والموت بالنسبة لافراد الشعب

كذلك لا يجب أن ننسى ان جيوش العدو كانت تجتاح أرض فرنسا في الوقت الذي حوكم فيه لويس السادس عشر وأعدم ، وان هـذه الجيوش قدمت باشارته ، وانه بذل كل ما في وسعه ليسهل غزوها لوطنه

يقول البارون دي فنك دورب في كتابه الذي كتبه عن « جناية سنة ١٧٩٣ » : « أنه اذا كان ختنجرا جاك كليمان[1] او رافياك[2] قد أوديا بحياتي ملكين فانهما لم يصيبا الملكية بأذى ، ولكن المؤتمر الوطني بجنايته القضائية التي ارتكبها في ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ قتل الملكية والمبدأ الملكي »

وسواء أكان اعدام لويس السادس عشر جناية أو حكماً مشروعاً ، فلا ريب انه كان من أهم العوامل في سلامة الثورة ، واشتداد عزائمها ، وارتياع أعدائها في داخل فرنسا وخارجها وخذلانهم في النهاية

(١) قاتل هنري الثالث (٢) قاتل هنري الرابع

ماري انتوانيت

سنة ١٧٩٣

في الفصل السابق غادرنا ماري انتوانيت ملكة فرنسا سجينة مع ولديها في التامبل وقد تفطر فؤادها حزناً وأسى لمصرع زوجها على ذلك النحو الرائع ، وغاضت كل آمالها واحلامها في الخلاص من ذلك الاسر ، واستسلمت حيناً الى الزفرات واليأس القاتل

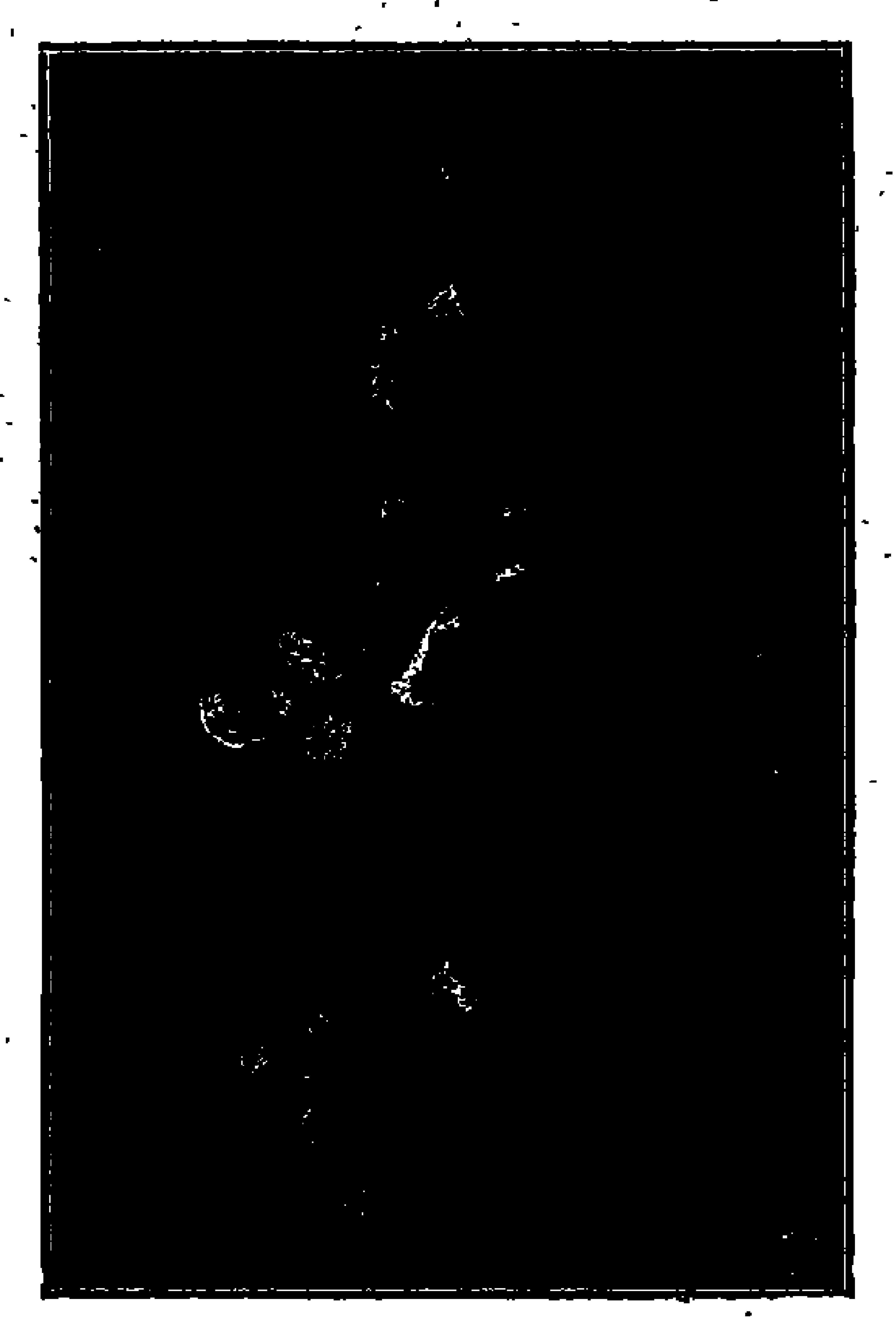
غير أن قبساً من الضوء نفذ الى هذه الظلمة الحالكة في شهر مارس سنة ١٧٩٣ إذ نشط بعض الاصدقاء المخلصين مثل تولون والشفالييه دي جارجاي الى تدبير مشروع لاختطاف الملكة في ثياب رجل ، وذلك بمؤازرة الوطني ليبتر أحد أعضاء المجلس البلدي ، وحملها مع ولديها ومدام اليزابيت (أخت لويس السادس عشر) الى ساحل نورماندي حيث تركب البحر الى انجلترا

وكان المشروع محكم التدبير في الواقع ، غير أنه انهار في آخر لحظة لأن ليبتر الذي تعهد بأن يستحضر اجازات السفر للفارين خشي العاقبة خصوصاً بعد ان شعر باشتداد المراقبة حوله ، وبعد أن وضعت للاجازات قيود شديدة فلم يستحضرها في الوقت المناسب

وقد كان باستطاعة الملكة أن تفر بعد ذلك بمفردها لو شاءت لان أصدقاءها المخلصين لم ينقطعوا لحظة عن تدبير المشاريع لفرارها رغم خيباتهم المتوالية ، غير أنها لم تشأ أن تترك ولدها وابنتها لمصير لا تعرفه ، ومما كتبت الى الشفالييه دي جارجاي بتلك المناسبة : « لقد رأينا حلماً بديعاً وهذا كل ما في الامر : بيد ان مصلحة ولدي ترشدني دون سواها ، ومهما كانت السعادة التي آنسها في خلاصي فاني لا أقبل فرقتي منه ، بل لست أستطيع أن أنعم بشيء اذا ما تركت ولدي من ورائي »

غير ان هذه التضحية المؤلمة التي أبت ماري انتوانيت أن تفتدي بها

حريتها لم تلبث أن فرضت عليها فرضاً ، فني ٣ يوليه سنة ١٧٩٣ أعلنها رجال البلدية بقرار من لجنة السلام العام هذا نصه : « تقضي اللجنة بأن يفصل ولد كابيه من أمه »



فصل ماري انتوانيت عن ابنها

وقد صاحت ماري انتوانيت حينئذ : « اقتلوني أولا ! » ، ولبثت زهاء ساعة تدفع بنفسها رجال البلدية عن سرير ولدها النائم ، وتجعل من جسدها درعاً لحمايته ، ولكنها أرغمت ازاء القوة القاهرة ، وانتزع ولي العهد من

أمه وعهد به إلى حراسة وطني سافل يدعى سيمون

وكانت الحال تشتد على الملكة منذ أن أعدم الملك يوماً بعد يوم ، وقد اتقجر حولها بركان لا تخمد اواره من القذف المؤلم والسباب المزري ، وكانت الصحف الثورية تفيض بسيل لا نهاية له من الحملات والتحريضات ولا سيما جريدة إيبر المسماة « الأب دوشيزن » فقد كانت أشد الصحف الباريزية وطأة على ماري انتوانيت وأكثرها امعاناً في سبها وهتكها ، وكان إيبر لا ينفك عن التشهير بها ، ويدعوها في كتاباته « باللذئبة النمسوية » و « النمرة الظمئة الى الدم » و « الوحش الضاري » و « مدام فيتو » و « أرملة كابيه » و « أغريبين » وغيرها ، وينسب اليها أشنع التهم والدسائس . وكان لحملات ايبر أثر شديد في تهييج الرأي العام لان « الاب دوشيزن » كانت أكثر صحف العصر ذيوعاً . هذا الى النشرات القاذفة الاخرى ، والاغنية والصور الرمزية ، والخطب التي تلقى هنا وهنالك في كل يوم

وكان زعماء الثورة يشددون الحملة عليها في جلسات المؤتمر أيضاً ، ويدعونه الى عقابها ، ويطالبون برأسها ، ومما قاله روبسبيير ذات يوم في احدى خطبه : « كفى ما منح الى اليوم من ضروب التسامح والاغضاء الى كبار المجرمين . هل تريدون اذاً أن يكون عقاب أحد الظلمة (يشير الى اعدام الملك) القربان الوحيد الذي نقدم الى الحرية والمساواة ؟

« وهل نحتمل ان مخلوقاً ليس أقل اجراماً ، وليست الامة أقل بغضاً له يبقى هادئاً ليشهد ثمار جرائمه ؟ ان الجمهورية تنتظر بفارغ الصبر ذلك الاعدام الذي يذكي اوار بغضاء مقدسة للملكية ، ويمد الذهن العام بقوة جديدة »

وصاح باريير ذات مرة : « لنضع نظام الارهاب في جدول الاعمال . ان الملكيين يريدون الدماء ، وسوف نعطيهم دم ماري انتوانيت

« ان شجرة الحرية لاتنمو إلا إذا سقيت من دماء الظلمة ! »

وصاح بلوفارين مطالباً برأس النمساوية قائلاً : لقد ألقى المؤتمر درساً هائلاً من الشدة على الخونة ، بيد ان عليه أن يصدر قراراً آخر

« ان امرأة هي عار جنسها وعار الانسانية ، وهي أرملة كابيه يجب أخيراً أن تكفر عن جرائمها فوق النطع

«وبمثل هذه الاجراءات الحازمة نستطيع أن نسبغ الوقار على حكومة جديدة »

ولم يرتفع ضد هذه الصيحات المتوالية في أروقة المؤتمر صوت واحد . كانت هنالك أقلية صغيرة يثور أعضاؤها في أعماق نفوسهم اشفاقاً وتألماً لتلك الاجراءات والحملات الوحشية ، ولكن شبح الاتهام والارهاب والاعدام كان يروعهم ويخمد أصواتهم ، بل يحملهم على الموافقة على كل ما تقترحه وتقرره تلك الاغلبية المضطرمة الظمئة الى الدماء

* * *

وفي اول اغسطس سنة ١٧٩٣ تقرر نقل ماري انتوانيت من التابيل الى « الكونسيرجيري » أقدم سجن للدولة ، وفي وسعك ان تقدر شناعة هذه التصرفات متى علمت ان الملكة أوقظت في الساعة الاولى بعد منتصف الليل لتحمل الى سجنها الجديد ، وانها جردت هنالك من كل اسباب الراحة ، بل لم يبق لها من ملابسها سوى ثوبين احدهما ابيض والآخر اسود وقد بلي كلاهما وتمزق

وقد غدت ماري انتوانيت في ذلك الحين نكرة لا تعرف ، غدت شبحاً هزيلا سقيما شاحباً ، وغدا شعرها الاشقر البديع ابيض كالثلج

ولبثت في سجنها الجديد نحو شهرين دبر أصدقاؤها خلالها مشروعاً جديداً لانقاذها أخفق كسابقيه

وكان فوكيه تنفيل المدعي العمومي يطالب أثناء ذلك بمستندات القضية التي تقرر أخيراً أن يبدأ بنظرها في ١٥ اكتوبر . ولم يقرر المؤتمر أن ينظرها بنفسه كما فعل بالنسبة للويس السادس عشر ، غير انه أمر بتحويلها الى محكمة ثورية ألفت من هيرمان صديق روبسبير الحميم رئيساً ، وفوكيه تنفيل مدعياً عمومياً ومحلفين انتخب معظمهم من اليعقوبيين . وذكر روبسبير بتلك المناسبة رئيس المحكمة بأن المحكمة لم تنشأ الا « لتسير بالثورة الى

الامام لا أن تعود بها الى الوراء بسبب الاجراءات البطيئة » وان الموقف بسيط جداً وواضح جداً « إذ ليس ثمة سوى جرم واحد هو الخيانة ، وعقاب واحد هو الموت »



ماري انتوانيت

ولما أخبرت الملكة باحالتها على هذه المحكمة لمحاكمتها صاحت في غضب وازدراء « في وسعهم أن يكونوا جلادين لي ولكنهم لن يكونوا قضاتي أبداً »

ودارت التحقيقات الاولى بالاخص حول التهم الشنيعة التي قررها ولي العهد ضد والدته وعمته اليزابيث ، وتلك التهم قصة شنيعة هي أن الطفل منذ ان فصل عن والدته سلم الى جماعة من الاوغاد وعلى رأسهم ايبر يلقنونه تحت وابل من الوعيد والاذى ما يجب ان يقوله ضد والدته وذويه ، وقد كرر أمام المحققين وهم باش حاكم باريس وشوميت النائب العام ووكيله ايبر تلك العبارات التي لقنت اليه وأمر بحفظها وتلاوتها

بل ان شوميت لم يحجم عن أن يستجوب الاميرة الفتاة التي لم تجاوز الخامسة عشرة (وهي ماري تيريز ابنة لويس السادس عشر وماري انتوانيت) عن تلك التهم والوقائع المزعومة التي أمر ولي العهد لأن ينسبها الى والدته

وقد قالت هذه الاميرة في مذكراتها بتلك المناسبة : « لقد استولى عليَّ من الاشمئزاز والغضب ما حملني على أن أصيح برغم ارتيابي ان محاولتهم هذه عار ونذالة . على أنهم ألحوا برغم صياحي ودموعي ، وفاهوا بأقوال لم أفهمها ، بل لقد كان ما فهمته منها رائماً فلم أتمالك دموعي اشمئزازاً وغضباً »

وفي مساء اليوم السابق لنظر القضية انتدب الرئيس هيرمان محامين للدفاع عن الملكة هما : شوفولاجارد وترونسون ديكودري . فذهب شوفولاجارد من فوره الى الكونسيرجيري ليتفاوض مع الملكة في نقط الدفاع وليدرس أوراق القضية ، غير ان الاوراق كانت من الضخامة والاختلال بحيث كان من المستحيل أن تدرس أو تفهم في مثل هذه الفرصة الضئيلة . ولذلك اتفق شوفولاجارد مع زميله على أن يحملا الملكة على ان تطلب تأجيل القضية بضعة ايام حتى يستطيعا أن يدرسا القضية درساً وافياً وان يهيئا دفاعها فقبلت الملكة رجاءهما ، غير ان المحكمة رفضت كل تأجيل ودخل المحاميان الجلسة وهما لا يعرفان شيئاً من محتويات الاوراق او اسباب الدفاع

وكان ذلك يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٧٩٣ فنهض المدعي العمومي في فاتحة الجلسة وقرأ تقرير الاتهام ، ولسنا بحاجة لان نقول ان هذا التقرير لم يكن

وثيقة قضائية تحتوي كل ما يمكن الاستناد عليه من الادلة لاثبات جرم معين ، وانما كان قطعة مستفيضة من القذف البذيء تردد كل ما كان يذاع في حق الملكة من ضروب السباب والتشهير في ذلك الحين ، بل كان صحيفة من تلك الصحائف التي كان يطلع بها « الاب دوشيزن » على الباريزيين كل يوم ، واليك مثل مما ورد فيه :

« وحيث انه قد ثبت من فحص جميع الوثائق التي قدمها المدعي العمومي :

« ان ماري انتوانيت ارملة كابيه قرينة ليسالين ، وبرينهو ، وفريديجوند ، والمديتشي اللاتي كن ملكات لفرنسا ، واللاتي لا تمحى أسماؤهن البغيضة من صحف التاريخ الاسود ، وانها منذ ان حلت بأرض فرنسا كانت جلادة الفرنسيين

« وانها لم تقنع بالتآمر مع اخوة لويس كابيه ووزير ماليته الوغد كالون على تبديد أموال فرنسا (التي هي ثمرة كد الشعب) لتشبع اهواءها السافلة ولتنفق على مدبري دسائسها المجرمة

« وان ارملة كابيه قررت ودبرت مع اعوانها المارقين تلك المؤامرة الرائعة التي انفجر بركانها في ١٠ اغسطس ، ومن ثم جمعت حول مسكنها في التويلري السويسريين وأضافتهم وهم في حالة سكر . . .

« وانها فوق ذلك سافلة عديمة الاخلاق ، قرينة أغربيين ، فاجرة ، تقدم على كل الجرائم ، وانها قد انحطت الى حد انها تنسى صفتها كأم ، وتقدم على ارتكاب قبائح ترتجف لذكرها الاوصال . . . » .

وعلى أثر قراءة هذا التقرير البذيء بدىء استجواب المتهمة ، والواقع ان الملكة ابدت في اجوبتها على جميع الاسئلة التي وجهت اليها ذكاء وبراعة فائقين ، واليك نموذج من هذه الاسئلة وعما أجابت به الملكة :

سألها الرئيس — هل انت التي علمت لويس كابيه تلك البراعة في الرياء الذي استطاع ان يخدع به الشعب الفرنسي طويلا ؟

أجابت ماري انتوانيت — بلى لقد خُدع شعب ، وقد خُدع بقسوة ، ولكن الذي خدعه لم يكن زوجي ولا انا

س ـ ومن الذي خدع الشعب اذاً ؟

ج ـ خدعه من كان لهم صالح في خداعه ، ولم يكن من صالحنا نحن ان نخدعه

س ـ ومن هم اولئك الذين كان لهم صالح في خداع الشعب ؟

ج ـ لست اعرف سوى صالحنا ، وقد كان في هداية الشعب لا في خديعته

وسئلت عن حادثة الفرار الى فارين :

س ـ هل انت التي اشرت على لويس كابيه بأن يفر من فرنسا ليتولى قيادة اولئك الخارجين الحمقى الذين أرادوا ان يمزقوا الوطن ؟

ج ـ أنه لم يرد الفرار قط من فرنسا ، ولو اراد ذلك لبذلت كل ما استطيع لتحويله عن عزمه ، لم تكن هذه نيته قط

س ـ اذاً ماذا كان الغرض من تلك الرحلة الى فارين ؟

ج ـ كان غرضه أن يحصل على الحرية التي حرم منها هنا ، وان يوفق بذلك بين كل الاحزاب حرصاً على سلام فرنسا وسعادتها

س ـ انك لم ترجي لحظة عن العمل لهدم الحرية ، ألم ترغبي في الحكم مهما كان الثمن ، وفي العودة الى العرش على جثث أبناء الوطن ؟

ج ـ لم نكن في حاجة للعودة الى ارتقاء العرش ، فقد كنا فوقه ، وما رغبنا قط الا في سعادة فرنسا

وفوق ذلك فقد كان ثبات الملكة في ذلك اليوم العصيب ، وجلدها واغضاؤها عن التحريضات والاهانات المتوالية ، داعياً الى اعجاب كل من شهد تلك الجلسة التاريخية ، بل كان داعياً الى اعجاب القضاة أنفسهم ، وقد قال شوفولاجارد في مذكراته : « كان يجب أن تكون حاضراً لتستطيع أن تبدي فكرة حقة عن الموقف البديع الذي وقفته الملكة يومئذ »

واستمر الاستجواب والمناقشة والاخذ والرد ، تارة في هدوء وسكينة ، وطوراً في عاصفة من الضجيج والهرج زهاء سبعة عشر ساعة ، وفي منتصف الليل أذن رئيس المحكمة للدفاع بالتكلم

وكانت مهمة الدفاع شاقة جداً وخطرة جداً ، شاقة لان الوقائع التي نسبت الى المتهمة كانت متنافرة مشتتة ولم تتخذ صبغة الجرائم القانونية التي يمكن للدفاع مناقشتها وتفنيدها بالاستناد الى نصوص معينة ، وكانت أوراق القضية ومستنداتها من الاختلال والضخامة بحيث لم يجد الدفاع كما قلنا متسعاً لمراجعتها والالمام بما احتوته

وخطرة لان الدفاع كان في الواقع مهزلة قضائية لا محاكمة حقة ، وكان يعلم حق العلم أن مصير الملكة قد بت فيه سلفاً ، وان كل صوت يرتفع ضد هذا المصير يكون نصيبه الاتهام والحنق ، وان المحكمة الثائرة ترى في أية ذرة من الشجاعة يبديها الدفاع في تأدية مهمته مروقاً وخيانة ، وماذا كان مصير المدافعين عن لويس السادس عشر ؟ ألم يعدم مالزوب ويلق ديسيز الى ظلامة السجن ؟

ومع ذلك فقد دافع شوفو لاجارد وترونسون ديكودري عن ماري انتوانيت بما أوتيا من بيان وذلاقة ، وألقيا مدى ساعتين مرافعة بديعة مؤثرة ، كان من أثرها أن قبض عليهما عقب الجلسة فوراً !

وفي وسعك بعد هذا أن تقدر حرية الكلام والرأي في ذلك العصر الاسود ، تلك الحرية التي اتخذها المؤتمر الوطني شعاراً له ولم تك سوى كلمة جوفاء

ثم اختلت المحكمة للمداولة عقب انتهاء الدفاع من مرافعته ، وعادت الى الانعقاد بعد برهة وأصدرت حكمها ، وكان يقضي باجماع الآراء بادانة الملكة واعدامها

فأصغت الملكة الى الحكم بسكينة تامة ولم تبدر منها بادرة خوف او ضعف ، ثم جازت درج الحاجز فريدة واخترقت القاعة بقدم ثابتة وعادت الى الكونسيرجيري

وكانت الساعة قد بلغت منتصف الخامسة من الصباح ، فتكون محاكمة الملكة قد استغرقت زهاء عشرين ساعة قطعت كلها في جلسة واحدة لان المحكمة الثائرة بدأت بنظر القضية في الساعة الثامنة من صباح اليوم السابق

***

أنفقت ماري انتوانيت بضعة الساعات التي بقيت من حياتها في الصلاة والاستغفار وكتبت فوق كتاب صلاتها الصغير (الذي ما زال محفوظاً في مكتبة شالون) تلك الاسطر :

« في ١٨ اكتوبر الساعة الرابعة ونصف صباحاً

« رباه ! رفقاً بي !

« ولديّ المسكينين لم تبق في عينيّ دموع أذرفها عليكما !

« فالوداع ، الوداع !

ماري انتوانيت »

ثم كتبت الى مدام اليزابيث (اخت لويس السادس عشر) ذلك الخطاب متضمناً لرغائبها الاخيرة :

« في ١٨ اكتوبر الساعة الرابعة ونصف صباحاً

« اليك أكتب يا أختاه للمرة الاخيرة

« لقد حكم عليّ لا بموت شائن — إذ لا يحكم به الا على المجرمين — ولكن بأن أذهب الى لقاء اخيك . واذ كنت بريئة مثله فاني أؤمل ان أبدي مثل ما أبدى من الثبات في ساعته الاخيرة

« اني هادئة شأن كل من لا يؤنبه ضميره على شيء . بيد ان نفسي تفيض حزناً لمفارقتي ولديّ اذ تعلمين اني لم أعش الا من أجلهما . . .

« واني اغفر لأعدائي كل ما أساءوا به اليّ

« فوداعاً أيتها الاخت الشفيقة المحبوبة ! ولعل هذا الخطاب يصل اليك ! . . .

« اني أعانقك من صميم قلبي وكذلك أعانق هذين الولدين المسكينين العزيزين . رباه ما أشق على نفسي من فراقهما الى الابد !

« فالوداع ! الوداع !

ماري انتوانيت »

على ان مدام اليزابيت لم تستلم ذلك الخطاب قط بل لبست زمناً طويلاً تجهل مصير زوجة أخيها . وقد وجدت هذه الوثيقة المؤثرة مصادفة في

أوراق روبسبير الذي استلمها من فوكيه تنفيل

وفي نحو الساعة العاشرة قدم الجلاد سامسون الى السجن بصحبة قضاة ثلاثة وكاتب الجلسة ، فقرىء الحكم على الملكة ثانية . ثم أوثق الجلاد يديها وقص شعرها — ذلك الشعر البديع الذي طالما تاهت به أيام عزها والذي بيضته الخطوب قبل الاوان ، ثم أخذت الى عربة مكشوفة واركب الى جانبها قسيسها الاب جيرار

وكانت فرقة كبيرة من الجند ترابط في الطرق الموصلة من السجن الى ميدان الثورة (وهو اليوم ميدان الكونكورد) وقد نصبت مدافع عدة في الميادين وملتقى الطرق وفوق القناطر

وسارت عربة المحكوم عليها تحوطها فرقة كبيرة من الفرسان بين صفوف متراصة من الجند . وكانت المدينة تموج بالجموع الصاخبة الصارخة خلافاً لما كانت عليه يوم ان حمل لويس السادس عشر الى النطع ، فقد كانت صامتة ذاهلة . وكنت تسمع الصراخ يدوي من كل ناحية : « لتحيي الجمهورية ! ليسقط الظلم ! » الى غير ذلك

وكانت عشرات الالوف من النظارة تنتظم في ساحة الاعدام وتحوط النطع صعدت ماري انتوانيت درج النطع بقدم ثابتة ، ومحيا هادىء

ولم تمض عدة دقائق بعد الظهر حتى سقط رأسها المضرج بدمه وحملت جثتها الهامدة مع جثث اخرى الى مقبرة المادلين ، وظلت ملقاة في العراء زهاء اسبوعين حتى دفنها أحد الحفارين في ركن مجهول من تلك المقبرة

وفي ذلك يقول الفونس دي لامارتين في كتابه « تاريخ الجيروندين »

« وهكذا زهقت تلك الملكة الطائشة في السعادة ، السامية في البأساء ، الثابتة فوق النطع ، معبودة بلاط مزقه الشعب

« ومهما كان من رأي التاريخ فسوف يذرف دموعاً خالدة فوق هذا النطع

« امرأة بمفردها يأتمر الجميع بها ، وهي بريئة بجنسها ، مقدسة أمومتها ، وديعة لا خوف منها ، يقتلها في ارض الغربة شعب لا يغفر ذرة

للشباب والجمال وتيه العبادة ، ويدعوها ذلك الشعب لترقى عرشه ثم يضن عليها حتى بقبر تثوى اليه »

* * *

وهكذا كانت الخاتمة الرائعة لحياة تلك التي كانت في بدء حكمها معبودة الشعب ، ثم لم يلبث أن طغى عليها سيل السعاية والقذف فأبدل حب الشعب لها ببغضاء خالدة

واذا كانت ماري انتوانيت قد ذهبت ضحية الحوادث ، واذا كانت أقل مسئولية بما صورها أعداؤها فمن الحق أن نقول أيضاً انها عملت كثيراً لاثارة تلك العاصفة التي قذفت بها الى الهاوية

ألم تبد منذ مقدمها الى فرنسا تلك الفتاة الطائشة ، ذات الاهواء والنزعات الجمة التي تؤثر اللهو على كل شيء ، وتبذر المال دون حساب ؟ ألم تك منذ فاتحة حكمها تلك الملكة التي لم تعرف من مهام الحكم سوى اقامة الحفلات الشائقة والافتنان في تنظيم الملاهي الباهرة واصطفاء الاصدقاء ، ونثر الاموال على المقربين ، وبذل مناصب الدولة للعاجزين ؟ ثم ألم تقف سداً منيعاً في سبيل كل اصلاح ؟ ألم تسيطر على تصرفات الملك وتوجيهها الى كل ما يسخط الشعب ويذكي حنقه ؟ ألم تحل حتى اللحظة الاخيرة دون تفريط الملكية في شيء من رسومها وامتيازاتها ارضاء للشعب ؟ ألم تك هي روح الدسائس والمفاوضات التي كانت تدور بين المهاجرين والالمان وبين الملكيين داخل فرنسا وخارجها لغزو فرنسا وسحق الثورة ؟

ان آلام فرد مهما بلغت من الروعة ، ومهما كانت الاساليب التي أثارتها من القسوة ، لا تعدل امتهان آلام شعب بأسره ، ولا تشفع في زلات تنكب الملايين

كاميل ديمولان

سنة ١٧٩٣

قلما نجد بين هذه الطبائع الغربية الخلابة التي تمخضت عنها فلسفة فولتير وروسو ، هذه الرؤوس السامية التي سقطت صرعى الاهواء العنيفة والخيال الوحشي والمثل الاعلى ، طبيعة أنقى واشد استمساكا بالمثل الاعلى من كاميل ديمولان .

زهق كاميل ديمولان على نطع الجلاد في زهرة شبابه ، وذهب ضحية المبادىء التي اضطرمت بها جوانحه ونشر لواءها قبل أن يرفعه أولئك الذين رموه بخيانتها ودفعوا به الى ساحة الاعدام

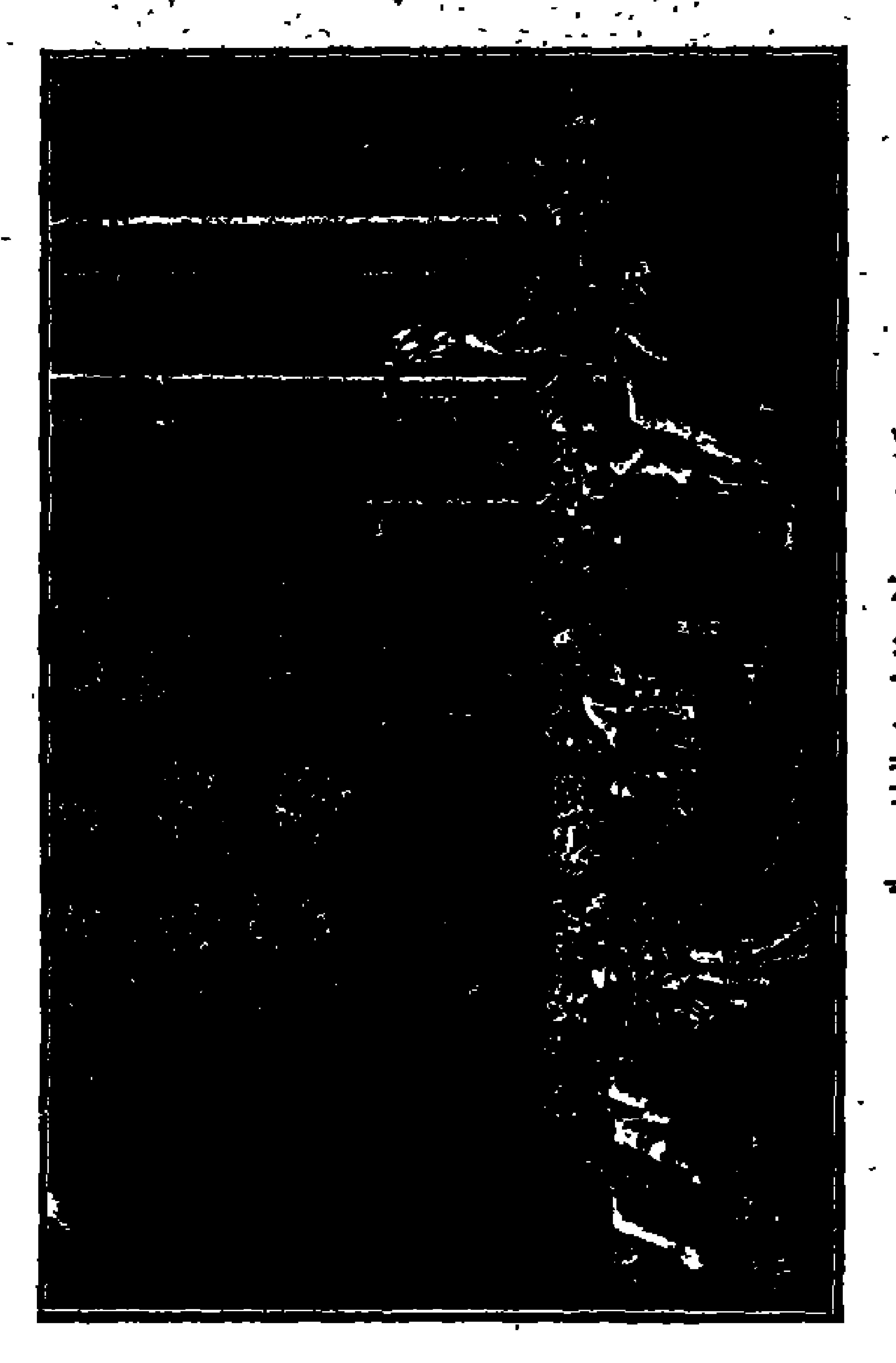
في الوقت الذي قلما كانت تعرف فيه أسماء روبسبير وداتون ومارا وسان جيست وغيرهم من أقطاب المؤتمر الوطني والارهاب ، كان كاميل ديمولان علماً طائر الصيت ، وزعيما من زعماء الثورة ، وقائداً من قادة الشعب الباريزي

كان كذلك منذ أن أقدم لويس السادس عشر في ساعة صلف ونزق على عزل الوزير نكر وذلك في أوائل شهر يوليه سنة ١٧٨٩ ، وكان نكر محبوباً من الشعب لانه كان دائماً يسعى الى تخفيف آلامه وينحاز الى صفه كلما نشبت النضال بين البلاط ودعاة الاصلاح

كان لعزل نكر اذاً أثر عميق في نفوس الشعب فتجهمت الوجوه ، ووجمت القلوب لتلك الطعنة الجديدة التي سددها البلاط والنبلاء الى صديق الشعب ، ففاضت سكينته وعيل صبره ، واشتد سخطه وغضبه على أولئك الذين ما زالوا يستخفون بشأنه وينتهكون حرماته

وسرى الهياج بادىء بدء الى باريس روح المعركة ومبعث الحركة ، فوثب في يوم الاحد ١٢ يوليه الى ميدان الباليه رويال فتى ملتهب المحيا ، يرتجف غضباً وسخطاً كأنما كان يحمل بين جنبيه كل ما يجيش به صدور الشعب .

من ألم وحنق ، وما كاد يرتقي احدى الموائد حتى احتشدت حوله آلاف عدة ، وصاح بصوت رنان :



كاميل ديمولان يخطب في الباليه رويال

« أيها الاخوان ! لقد جئت من فرساي ، وقد عزل نكر ! وعزله ايذان بوقوع مذبحة كسان برتلمي يهلك فيها الوطنيون !

« ذلك لان كل الفرق السويسرية والالمانية ستنطلق هذا المساء من الشان دي مار لتبطش بكم

« فلا تضيعوا لحظة ! بل يجب أن تبادروا الى السلاح وأن تحملوا شارات تتميز بها

« الى السلاح أيها الاخوان ! الى السلاح ! واحملوا جميعاً الشارة الخضراء رمزاً للامل ! بلى فاني أنا الذي أدعو اخواني الى الحرية ! »

ثم رفع بيده مسدساً وصاح : « لن يأخذوني حياً فسوف اعرف كيف أموت بشجاعة ، ولن يمكن أن ينزل بي سوى مصاب واحد هو أن أرى فرنسا مستعبدة »

ثم تناول شريطاً أخضر ووضعه في قبعته ، فتواثب الناس اليه وحملوه على الاكتاف وهتفوا له هتافاً عالياً متواصلا

ذلك الفتى هو كاميل ديمولان ، وقد كان حينئذ في التاسعة والعشرين من عمره

تلقى كاميل تربية حسنة ، ودرس الحقوق ، في كلية لويس الاكبر حيث كان زميلا لروبسبيير ، وقرأ ديموستين وشيشرون ، منذ نعومة اظفاره ، وارتوى من مناهل الفلسفة الجديدة ـ فلسفة فولتير ومونتسكيو وجان جاك وكان جمهورياً راسخ العقيدة ، وقلّ من كان يفكر في الجمهورية حينئذ الا بعض طلاب المثل الاعلى من أمثاله . وكانت المصائب والمشاق التي يكابدها الشعب يومئذ من طغي الملكية والنبلاء والنظم القديمة تذيب مشاعره الرقيقة ، وتدمي فؤاده الرحيم

* * *

كانت وقفة كاميل ديمولان في الباليه رويال أول منظر من مناظر الثورة ، فقد بادر الشعب على أثرها بالاهبة لاستعمال العنف ، فنظم الجند ، واندس في طلب السلاح هنا وهنالك ، واقتحم الاتماليد حيث كان يخزن السلاح ، ثم وثب الى الباستيل في ضحى ١٤ يوليه وعلى رأسه رجلان هما كاميل ديمولان وستانسلاس مايار ، فنازله واستولى عليه بعد معركة حامية

وبعد ذلك ببضعة أسابيع نشر كاميل ديمولان كتيباً عنوانه « فرنسا الحرة » حمل فيه بأسلوب ظريف ذكي على النبلاء والملكية حملة عنيفة نلقي

نجاحاً كبيراً لان اسمه غدا منذ خطاب الباليه رويال علماً طائر الصيت، ثم اتبعه برسالة ملتهبة عنوانها « حديث المصباح » حرض فيها الامة بعبارات شديدة حادة على دفع الثورة الى حدود جديدة والانتقام لنفسها من مضطهديها، واقامة جمهورية أخاء ومحبة واتحاد وسلام تحقق السعادة والمساواة لكل انسان



لوسيل ديمولان

وفي نوفمبر سنة ١٧٨٩ أسس صحيفة نصف شهرية اسمها « ثورة فرنسا وبرابان » فما لبثت أن صادفت نجاحاً عظيما وذيوعاً هائلا ، وكان يكتبها بأسلوب فصيح ، ملتهب ، ويصور فيها سيئات النظام القديم ، بسخرية شائقة

* * *

وكان فؤاده المضطرم ، يخفق منذ أعوام بعاطفة رقيقة أخرى ، كان كاميل يهوى فتاة باريزية رائعة الحسن وافرة السحر تسمى لوسيل دوبلسيس ، وكانت تهواه . وكان العاشقان يجتمعان كثيراً في حدائق اللوكسمبرج ويصرفان ساعات طويلة في بث الهوى وتبادل العهود والمواثيق . وكان والد لوسيل

يؤجل موعد قرانهما من وقت لآخر حتى آذنت آمالهما بالتحقق وتم الزواج في ديسمبر سنة ١٧٩٠ ، وذهب الزوجان للاقامة في منزل لوالدة لوسيل في ضاحية بورلارين

وهنالك عاش كاميل في العزلة والسكينة حيناً يرتشف كؤوس النعيم ولا يرى العالم الا من خلال سعادته

غير أنه لم ينبذ شيئاً من آرائه الثورية ، بل كانت زوجه الحسناء تشاطره تلك الآراء وتدفعه دائماً الى الامام

* * *

وكان كاميل عضواً في نادي الكردليه وهو هيئة ثورية متطرفة بين أعضائها نخبة من خطباء ذلك العصر مثل مارا صديق الشعب والخطيب العظيم دانتون ، وشوميت ، وربسبير ، وكان مركزه بدير الكردليه بشارع هوتفي بالقرب من مدرسة الطب . وكانت روح الثورة تسري الى العاصمة من ذلك النادي ، ولخطبائه أعظم نفوذ على الجماعات

وكان والد كاميل يخشى على ولده من الاندماج في سلك هذه الجماعة المعروفة بشدة التطرف والميل الى العنف والسفك ، وكثيراً ما كتب اليه ينصحه بتركها ، غير ان كاميل كان يصر على السير في تلك الطريق التي تلائم مشاعره وأذواقه الملتهبة ، ومما كتبه الى والده بتلك المناسبة : « انك لن تهزأ بعد من أحلامي ، من جمهوريتي . لقد انفقت حياتك تصارع المظالم الظاهرة ، كنت تهاجم الفروع فحسب . أما نحن فقد استأصلنا الشجرة بعون الله فلا تخش أن يسحقك سقوطها ، فان هذه الشجرة لن تسقط الا على رؤوس الحامين لا على رؤوس أولئك الذين استحقوا تقدير الوطن »

استمر كاميل اذاً في نضاله ، فوق منصة الخطابة وفي صحيفته بالاخص

وسارت الثورة بخطوات سريعة ، فاقتحم الشعب قصر التويلري في ليلة ١٠ اغسطس ، وسجن الملك وأسرته في التامبل

وعلى أثر ذلك عين دانتون وزيراً ، وعين ديمولان سكرتيراً عاماً

لوزارة الحقانية ، ثم انتخب بعد ذلك عضواً في المؤتمر الوطني

ووقعت في شهر سبتمبر تلك المذابح الرائعة التي سفكت فيها دماء النبلاء والكهنة والملكيين بأفظع أسلوب وأروعه [1]

ولا ريب ان كاميل ديمولان يحمل الى جانب دانتون ومارا شطراً معيناً من المسؤولية الادبية في اثارة هذه الحوادث الرائعة ، فهو كما قدمنا جمهوري بالفطرة وكثيراً ما دعا في أقواله وكتاباته الى التطرف والعنف



كاميل ديمولان

ثم كانت محاكمة لويس السادس عشر فظهر كاميل في ثوب وحشي من الحماسة والقسوة ، وكان من أشد أعضاء المؤتمر مطالبة برأس الملك ، وقد صاح وقت تقرير مصيره : « ان موت ملك لا يعني سوى نقص فرد ! واني أقرر

(١) فصلنا هذه الحوادث بعض التفصيل في الفصل الذي كتبناه عن لويس السادس عشر ولذا اكتفينا هنا بالاشارة اليها

الموت وقد يكون تقريره في وقت لا يتناسب تأخيره مع شرف المؤتمر الوطني ! »

بل ان زوجه لوسيل لم تكن في هذا كله أقل حماسة منه ، فقد كانت تطالب برأس ماري انتوانيت وقد كتبت ذات مرة : « لو كنت ملكة ، وأعد لي موت محقق لأني نكبت شعبي ، فلن انتظر اللحظة التي ينقض فيها علي جمهور ساخط فينتزعني من قصري ويجرني الى النطع جراً شائناً ، بل كنت أتوقع ضالته وأعتزم الموت لافرض ارادتي على العالم بأسره ! »

هكذا كانت عقليـة تلك الفتاة الخلابة وهي عقلية مازجها الخيال الداعي . بيد أنه يجب أن نذكر ان تلك الدماء التي اريقت أيام الثورة ، وتلك الاحقاد التي أذكى ضرامها ، وتلك المعارك الوحشية قد عصفت بأقوى العقول ، فأصابها ضرب من الذهول والاختلال

***

لما أعلنت الجمهورية ، وأعدم لويس السادس عشر ، ولى الشعب وجهه شطر الحكومة الجديدة في شخص المؤتمر الوطني . اذا كانت الحكومة البائدة لم تعن بمصائب الشعب وأدوائه ولم تعمل على تخفيفها ومعالجتها ، فان للمؤتمر الوطني الذي برز من بين صفوف الشعب ، والذي اختاره الشعب ذاته ليسير دفة شؤونه يستطيع أن يفهم آلام الشعب وان يعمل على تحقيق آماله ومطالبه

كانت مهمة المؤتمر شاقة اذاً لانه ورث أعباء حكومة بائدة ، ولكنه لم يرث شيئاً من تجاربهـا ، وثباتها ، لان الملكية كانت برغم ما أصابها من الانحلال والضعف ، ترتكز الى دعائمها القديمة ، وتستمد القوة من نظمها الثابتة ومن تجاربها وتقاليدها الماضية . أما المؤتمر فقد ألفى في يده سلطة ولكنه لم يظفر بوسائل توجيهها وتنظيمها

بل ان هذه السلطة ذاتها كانت عاملا جديداً في تعقيد الامور ، لانها غدت قبلة خلابة تطمح الى نيلهـا الجماعات والاحزاب المختلفة ، وغدت بذلك مبعثاً لاحقاد ومنافسات جديدة ، ومثيرة لضرام المعارك الدموية بين الاحزاب المتنافسة

وكان الجيرونديون ، وهم حزب الاعتدال في المؤتمر أول ضحايا ذلك الصراع ، فقد كانوا يعتبرون رجعيين منذ أوائل سنة ١٧٩٣ ، وكان الاعتدال يومئذ ضعفاً شائناً بل كان اجراماً وخيانة

لما انتهت الثورة من البطش بأعدائها أي النبلاء والملك والملكة ، تحولت الى البطش بأبنائها أنفسهم ، وبدأ المتطرفون الذين قبضوا على السلطة أمثال روبسبير ودانتون وإيبر عملهم في سحق خصومهم حتى لا ينازعهم في سلطتهم منازع أو ينقدهم ناقد . فكان الجيرونديون كما قلنا أول ضحية لتلك الخصومة الشائنة

دفع روبسبير بصديقه كاميل ديمولان الى أن يبدأ الحملة على الجيرونديين ، فنشر رسالة ملتهبة عنوانها « تاريخ البريسوتانيين . كشف القناع عن بريسو » (وبريسو هو زعيم الجيرونديين) طعن فيها على الجيرونديين مر الطعن ، واعتبرهم مسئولين عن جميع المصائب والآلام التي يعانيها الشعب ، وكانت الرسالة في الواقع قرار اتهام الجيرونديين . فبادر سان جيست بتقديمها الى المؤتمر لمحاكمة الجيرونديين على ما جاء فيها ، فحوكموا ، وحكم عليهم جميعاً بالاعدام . وكان عدد ضحايا هذه المؤامرة الشائنة يربو على الثمانين ما بين زعيم ونائب

ولم يكن كاميل يتوقع أن تفضي حملته الى تلك المأساة ، فراعه ما ارتكب وساوره الندم على تطرفه لاول مرة ، وخرج من قاعة المؤتمر مضطرباً ثائر النفس وهو يكرر : « رباه ! رباه ! أنا الذي قتلتهم ! »

ثم اتخذ المتطرفون بعد ذلك من انهزام الجيوش الجمهورية ، ولنشوب الثورات الملكية في بعض الاقاليم النائية ، فرصة لرفع سلطتهم الى أقصى حدودها ، فقرر المؤتمر تأليف « لجنة السلام العام » برآسة روبسبير وسان جيست ، وانشاء محكمة ثائرة دائمة ، واصدار « قانون المشبوهين » ، وهو من أغرب الوثائق التشريعية وأغمضها ، فقد نص فيه على أن يعتبر من المشبوهين : كل من يؤثر في حماسة الجماهير أو يقاطعهم ، وكل من يتكلم

عن مصائب الجمهورية وينشر أخباراً مؤلمة أو مثبطة ، وكل من يغير سيرته أو لهجته تبعاً للظروف ، وكل من يهتم بمصير النبلاء والكهنة وخصوم الثورة والمعتدلين . وكل من يعلن ريبه في متانة الدستور الجمهوري وثباته ، وكل من لم يعمل شيئاً للحرية ! . . .

فأنت ترى أن « قانون المشبوهين » لم يك سوى سلاحاً ماضياً سلطه المتطرفون ، زعماء الطغيان والارهاب ، على جميع الرقاب بلا استثناء ! وانه كان ذريعة دائمة للبطش بأعدائهم وخصومهم ، ولذا ما كاد يصدر حتى غصت سجون باريس بالمقبوض عليهم ونشطت آلة الاعدام لازهاق الضحايا العديدين التي كانت تقذف بها المحكمة الثائرة اليها كل يوم ، وبسط حكم الارهاب الرائع ظله الاسود على باريس

* * *

وقد كان ذلك العسف الهائل ، والسفك المستمر ، سبباً في تغير بعض أقطاب الثورة وقوادها الاول أنفسهم وسخطهم على تلك النظم الدموية ، فقد عافوا رؤية هذه الانهار القانية والرؤوس المتناثرة ، وأرادوا أن يضعوا حداً لتلك المذابح التي تحصد أبناء الوطن حصداً ، وتدفع بهم الى براثن العدم مئات وألوفاً . وكان في مقدمة ذلك الفريق كاميل ديمولان الذي لم يغتفر لنفسه زلة التطرف منذ مصرع الجيرونديين ، وصديقه الحميم دانتون

قال دانتون لكاميل يوماً وهما يسيران على ضفة السين ، تأمل فان السين يجري دماً ، كفى ما اريق من الدماء ، عد يا كاميل الى قلمك وحض على استعمال الرأفة وأنا ظهيرك

فعاد كاميل الى قلمه ، وطلع على باريس بصحيفته الجديدة « الكردليه القديم » Le Vieux Cordelier التي يصفها ميشيليه « بالصيحة الملكية التي تحرك القلوب الى الابد » . وظهر العدد الاول منها في ١٥ فريمير للسنة الثانية من الجمهورية (٥ ديسمبر سنة ١٧٩١) وفيه حمل كاميل على زعماء التطرف والارهاب إيبر وشوميت ومومرو وكلوتز وغيرهم ممن وجدوا في أنظمة لجنة السلام العام وسيلة لارواء ظمأهم الى الطغيان والسفك ، وكانت

الحالة بموافقة روبسبير نفسه لانه كان بطبيعته الهادئة في ظاهرها ، الجائشة في أعماقها ، والتي تخفي وثباتها ونزعاتها الوحشية تحت ستار الوداعة والزهد ، يخشى أن تنزع السلطة منه تلك الطغمة الثائرة الصاخبة ، ولكن كاميل حمل في العدد الثالث من صحيفته على قانون المشبوهين وأنظمة الارهاب نفسها في فصل خيالي تصور فيه انه يدرس الاخلاق الرومانية في عهد الامبراطرة واختتمه بنداء حار الى الامة بأن تضع حداً لتلك الاجراءات الوحشية التي أسالت دماء بنيها بلا ذنب ولا جريرة ظاهرة . ومما كتبه كاميل في هذا الفصل :

« كلا ! ان الحرية ، هذه الحرية التي أعبدها ، هذه الحرية التي نزلت من السماء ، ليست طيفاً في دار الاوبرا ، وليست قبعة حمراء ، أو قميصاً قذراً ، أو ثياباً خلقة . ان الحرية هي السعادة ، هي العقل ، هي المساواة ، هي العدالة »

« هل تريدون أن اعترف بوجودها ، هل تريدون ان اجثو عند قدميها ، وأن أسفك كل دمي من اجلها ؟ »

« اذاً فافتحوا أبواب السجون لهؤلاء المائتي الف وطني الذين تسمونهم مشبوهين إذ ليس ثمة في « حقوق الانسان » ذكر لدور الشبهات ، ولم ينص فيها الا على دور القبض . ليس ثمة مشبوهون ، وانما هنالك المتهمون بتهم معينة نص عليها القانون

« هل تريدون أن تستأصلوا كل أعدائكم بسيف الجيوتين ؟ انها لحماقة لم يشهدها التاريخ !

« وهل تستطيعون أن تزهقوا فرداً واحداً فوق النطع دون أن تخلقوا لكم من اسرته وأصدقائه عشرة أعداء ؟ »

وقد صادف هذا النداء الرحيم استحساناً كبيراً لأنه كان يعبر في الواقع عن رغبة خفية تجيش في صدور الامة التي أضناها العسف والسفك ، فاشتد الاقبال على صحيفة كاميل ، واشتد ذيوعها ، وقوي صوتها . وكانت هذه الحملات المتوالية ، وما كانت تبثه في الأنفس من ريب في أنظمة السلام العام

وتصرفات المؤتمر ، سبباً في ازعاج زعماء الارهاب وسخطهم ، فثار ايبر واتباعه ، وحملوا على كاميل في صحيفتهم « الاب دوشيزن » واتهموه بالمروق والخيانة ، واشتد الجدل والتراشق بين الفريقين ، وبدأت الحملة على كاميل في اروقة المؤتمر ذاته

وفي ٧ يناير سنة ١٧٩٤ ، قدم خصوم كاميل طلباً بفصله من نادي اليعقوبيين ، وثارت حول هذا الطلب ضجة كبيرة في النادي ، وتنكر لكامبل صديقه الحميم روبسبيير اتقاء للشبهة ، وطلب قراءة أعداد « الكردليه القديم » واحراقها ، ففرئت ، ولم يتقرر فصل كاميل ، غيران الخصومة اشتد لظاها بين الفريقين واطلق على كامبل وداتون واصحابهما « المتهاونون » ، وقوطعوا في المؤتمر والنادي ، وسلط عليهم سيل من الشكوك والتهم لم يلبث أن أسفر عن ثمره

* * *

وذلك انه لم تمض ثلاثة أشهر حتى قدم روبسبير الى سان جيست مشروع قرار اتهام ضد « المتهاونين » فقدمه سان جيست الى لجنة السلام العام بصفة رسمية في ١٠ جرمينال سنة ٢ (٣١ مارس سنة ١٧٩٤) ضد كاميل ديمولان ، وداتون ، وفيليبو ، ولاكروا ، وفابردجلانتين ، وقبض على المتهمين فجأة وأودعوا سجن اللوكسمبرج في ليلة ١١ جرمينال . وطار الخبر في انحاء المدينة فأثار دهشة وذهولا لمكانة المتهمين من الزعامة والنفوذ ، بيد انه لم يرتفع ضد هذه الخطوة الجريئة صوت ، ولم تبدر بادرة ، لان الارهاب كان يخمد الانفس ويكم الافواه ، وسيف الجيوتين مسلط على الرقاب جميعها دون استثناء . وأي استثناء بعد القبض على زعماء الثورة المعروفين وقوادها الأول بتهمة المروق والرجعية تطبيقاً لقانون يستحيل أن يفلت انسان من نصوصه المرنة الشاسعة ؟

أخذ كاميل من بين ذراعي زوجه لوسيل وأودع ظلام السجن ، فأيقن ان الهلاك مصيره ، وانه سيرحل عاجلاً الى عالم الابدية ، فكتب الى زوجه خلال الزفرات والدموع خطاباً طويلاً يمزق القلب شرح فيه احلامه

واحزانه واوهامه وغرامه ويأسه وافكار حياته كلها . ومما كتب :

« لقد تخيلت جمهورية يعبدها جميع الناس ، وما كنت اعتقد ان الناس بهذه الوحشية وهذا الجور

« لا شك اننا نذهب بهذه الشهادة وهو اننا نموت آخر الجمهوريين

« فوداعاً يا لوسيل ، ياحياتي لوسيل ، ووداعاً يا هوراس (طفله الصغير) ووداعاً يا أبتاه !

« اني أرى شاطىء الحياة يفر من أمامي . . . أرى لوسيل ، أراها ، أرى حبيبتي لوسيل

« ان يديّ الموثوقتين تعانقانك ، ورأسي المقطوع يحدق فيك بعينيه المغلقتين »

والرسالة كلها على هذا النحو الشعري ، غير أنها لم تصل قط الى لوسيل

***

وسارت الاجراءات بسرعة مدهشة فانعقدت المحكمة الثائرة من فورها في القاعة الكبرى بسراي وزارة الحقانيـة ، وظهر فوكيه تنفيل المدعي العمومي على منصة الاتهام ولخص تقريره في السؤال الآتي :

« أيها المحلفون : لقد دبرت مؤامرة واسعة النطاق ترمي إلى إعادة الملكية ، وهدم المجلس الوطني المنتخب ، وسحق الحكومة الجمهورية ، فهل لاكروا ودانتون وكاميل ديمولان وفيليبو وهيرول دي سيشل ووسترمان النواب في المؤتمر الوطني قد اشتركوا في تدبير هذه المؤامرة ؟ »

ثم بدىء الاستجواب ، وكانت القاعة غاصة بالنظارة ، بل كانت الساحات المجاورة لها تموج بالجموع ، وكانت أمارات الاهتمام والخطورة تلوح على جميع الوجوه

وكان المتهمون جميعهم رابطي الجأش ثابتي الجنان ، وكان صوت دانتون الجهوري يرتفع من آن لآخر فيدوي صداه كما يدوي زئير الاسد ، وتتناقل الجموع عباراته

وكان موقف الاتهام والمحكمة في الواقع حرجاً ، لان التهمة التي

وجهت الى المتهمين ، لم تؤيد بأدلة كتابية أو كلامية ، وقد وجهت الى جماعة من زعماء الثورة لهم في قلوب الشعب مكانة رفيعة ، ويعتبرهم المثل الاعلى للاخلاص والتضحية . ولهذا كان الاتهام مضطرباً ، وفوكييه متلعثماً ، وكانت اصوات المتهمين تعلو على اصوات الاتهام والقضاة ، والشعب من ورائهم يومىء اليهم باستحسانه وعطفه . فانتهى اليوم الاول من المحاكمة دون الوصول الى قرار حاسم . وذهب هيرمان رئيس المحكمة الثائرة وفوكييه تنفيل فأخطر لجنة السلام العام بما حدث وبحرج المأزق . وفي اليوم التالي عادت المعركة الى الاحتدام وطالب دانتون بمواجهة الشهود واحالته على المؤتمر ، واحتج على منعه من الجواب ومن الدفاع عن نفسه وانضم اليه زملاؤه واشتد الضجيج والهرج ، وشعر فوكييه بخطورة الموقف ، وخشي الفشل والمفاجأة فكتب من فوره الى لجنة السلام العام يطلب اليها النجدة لأنه عجز عن مواجهة المتهمين ومناجزتهم ، فاضطربت اللجنة ، ولكن سان جيست ارتأى حلاً غريباً ، وظفر بالدليل القاطع على ادانة المتهمين من تشددهم في الدفاع عن أنفسهم وصاح : « ان هذه المقاومة ذاتها خروج على القانون . وأي بريء يخرج على القانون ؟ ألا لسنا في حاجة لأدلة أخرى ! » وفي الحال قررت اللجنة بناء على اقتراحه أن تحول الى المحكمة « أن تقرر حرمان المتهمين من المناقشة والمرافعة اذا قصروا في احترام أوامرها أو حاولوا اثارة الهرج »

وقد صدر هذا القرار في الوقت المناسب لأن دانتون خلب بمنطقه وبيانه جميع المحلفين ، وكاد أن يسحق فوكييه تنفيل بصوته الرنان وضرباته القوية ، ولكن القرار الجائر أبلغ في الحال الى المدعي العمومي ، فتنفس الصعداء وطلب الكلام ثم تلا القرار ، فصاح دانتون : « اني أشهد الشعب على اننا لم نهن المحكمة ! »

فسرى الاضطراب الى الجموع ، وبلغ التأثر ذروته ، وثار الشعب لذلك القرار المجحف ، فأخذ يتذمر ، ويبدي عطفه على المتهمين في جلاء ووضوح

وفي اليوم التالي أعلن المحلفون في فاتحة الجلسة انهم اكتفوا بما سمعوا وأتموا درس القضية وفهمها ، فأعلن رئيس المحكمة في الحال انتهاء المرافعة دون أن يأذن للمتهمين بالكلام ، فصاح دانتون : ولكنكم لم تبرزوا مستنداً ، ولم تسمعوا شاهداً ! وصاح لاكروا : انها نذالة ! انها نذالة ! انكم لا تحاكموننا بل تسفكون ! أما كاميل فزق مذكرة دفاعه التي كان قد أعدها شذر مذر وقذف بها في وجه فوكييه تنفيل



اعدام كاميل ديمولان ودانتون

وألقى دانتون قبل مغادرة الجلسة تلك النبوءة الصادقة : سوف يبطش الشعب بأعدائي قبل ثلاثة اشهر . ولما قدم الكاتب ليتلو عليه الحكم قال له لا فائدة من هذا فهيا بنا في الحال الى ساحة الاعدام لنقتل وكفى ، أما ديمولان فكان يبكي صامتاً في أحد أركان الغرفة

***

وكان اليوم ١٦ جرمينال (٥ ابريل سنة ١٧٩٤) فحمل المحكوم عليهم في عربتين الى ميدان الثورة . ولما وصل دانتون الى النطع أراد أن يعانق هيرول دي سيشل الذي أخذ ليعدم قبله فمنعه الجلاد فصاح به : « انك لأحمق وهل تستطيع أن تمنع رأسينا من أن يتعانقا في السلة ؟ »

أما ديمولان فصاح قبل أن يهوي السيف الهائل على عنقه : هكذا يُزهق أول رسول للحرية !

***

وفي الوقت الذي سقط فيه رأس كاميل ديمولان مضرجاً بدمه ، قبض على زوجه لوسيل بتهمة اشتراكها في التآمر مع الجنرال ديون لانقاذ زوجها ، وقتل المدعي العمومي ، وسجنت في الكونسيرجيري . ثم قدمت الى المحكمة الثائرة فأجابت بشجاعة ودافعت عن نفسها بثبات ، ولما سمعت الحكم عليها بالاعدام صاحت مبتهجة « سوف أرى كاميل في بضع ساعات ! » ثم كتبت الى أمها تلك الرقعة المؤثرة :

« عمي مساء يا أماه ! ان دمعة تفر من عيني وهي من أجلك . سوف آوي الى سكينة البراءة — لوسيل »

وهكذا جمع الموت في بضعة أيام بين هذين القلبين الصادقين اللذين كثيراً ما تناجيا وتحابا أثناء الحياة

مقتل مارا

ومحاكمة شارلوت كرداي

سنة ١٧٩٣

كان من أثر الخلافات الحزبية والنظرية ، وتشعب الاهواء والمطامع في المؤتمر الوطني منذ ألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية، أن الثورة الفرنسية بدأت تمزق بنيها أنفسهم ، فأخذ كل حزب يتحين الفرصة ليبطش بخصيمه ، وكل زعيم يعمل على سحق منافسه في الرآسة

وكان الجيروند يون وهم حزب الاعتدال في المؤتمر كما رأينا أول ضحايا هذا النضال ، ثم لحق بهم نفر آخر من أقطاب التطرف الذين عافوا سفك الدماء مثل دانتون وديمولان ولاكروا وغيرهم ، ثم كان دور الطاغية الاكبر روبسبيير فهلك بعد ذلك ببضعة أشهر على نفس النطع الذي طالما خضبه بدماء منافسيه ومناوئيه

نريد أن نقول أن معظم زعماء الثورة الفرنسية هلكوا بسيف الجيوتين ولكن واحداً منهم وربما كان أشدهم تأثيراً في سير الجانب الاسود من الثورة أي جانب السفك والهدم ـ قد هلك بخنجر فتاة كانت سيرتها وصفاتها الخلابة مستقى خصيباً لخيال الكتاب والشعراء : ذلك الزعيم هو جان بول مارا ، وتلك الفتاة القاتلة هي ماري آن شارلوت كرداي

* * *

كان مارا من أغرب الطبائع التي قذفت بها الثورة الفكرية في القرن الثامن عشر ، كان شخصية غامضة معقدة يحوطها خفاء يبعث الروع ، وكان ذلك الخفاء ذاته مصدر قوته ونفوذه الخارق على الافراد والجماعات

وُلد مارا في بودري من أعمال سويسرا الالمانية سنة ١٧٣٤ من أب اسباني ، ودرس دراسة مضطربة متنوعة ، وبدأ حياته بتملق الكبراء يختلف الى قصورهم ، ويؤدي لهم مختلف الخدمات . فلما نشبت الثورة التي

مارا في حوادثها وتطوراتها ميداناً شاسعاً للمغامرة في اكتساب النفوذ والسلطة وتحقيق الاطماع والاهواء ، فاندس بين زعمائها ، واندفع الى خوض غمارها بكل ما تحتويه مخيلته من ضروب الدهاء والخديعة. فلم يلبث أن شق طريقه المنشودة وسط العاصفة وتبوأ مركزه من زعامة تلك الكتلة البشرية المضطرمة الثائرة ، وقيادة ذلك السيل الذي يحمل من يصادره ويسحق من يناوئه

عرفه الباريزيون لاول مرة حينما طلع عليهم من أعماق أقبيته الخفية بصحيفته « صديق الشعب » (L'ami du peuple) التي بدأ باصدارها في في ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٠ . وكان مارا كاتباً مجيداً ، وصحفياً بارعاً ، بل كان آية في اختبار مشاعر الجماعات ، وسبر أغوارها ، وتحقيق ميولها ، فكان يخاطبها ويتقدم اليها من الانحاء الراجحة ، فيرضيها ويسخطها ، ويثيرها ويهدئها تبعاً لمشاريعه ومقاصده ، ولذا ما كاد « صديق الشعب » يظهر في المجتمع الباريزي حتى ذاع ذيوعاً هائلا ، وسرعان ما برز محرره الى صفوف الزعماء وقادة الفكر في ذلك العصر العصيب

وكان فوق ذلك طبيباً ، وكيماوياً بارعاً على قول بعض الروايات ، يجيد عدة لغات أوربية

بيد أنه كان ضعيف البنية منهوك الاعصاب ، مشوه الخلقة
والخلاصة أنه كان شخصية غريبة ولغزاً معقداً

***

كان مارا قوة فعالة تحرك الجموع ، غير أنه كان مبغوضاً من معظم أعضاء المؤتمر قبل أن تجتاحه عناصر التطرف والسفك ، وكان الجيرونديون يكثرون من الحملة عليه ، وتسفيه دعواته ومشاريعه

ذلك لأنه مذ طغى سيل الثورة على الملكية والانظمة القديمة برز الى الطليعة يحمل أعلام الخراب والموت ، فما كان يدعو في ما يقول أو يكتب الا الى السفك ، وما كان يقر الا وسائل العنف ، أو يقنع الا بالدمار والفوضى . كان مارا رسول الموت الى مجتمع الثورة ، لا يرتوي الا بالدماء ، وسفك

السماء لذة سامية لمجتمع حطم كل القوانين والنظم ، واعتنق الفوضى المطلقة ، ونشط لتمزيق العدو والصديق ، ولذا ما كاد يرتفع صوت مارا بالدعوة الى السفك حتى التفت حوله الجوع ورفعه الشعب فوق زعمائه المخلصين ، ثم اختاره لأن يكون نائباً عنه ومشرعاً له

وكان « صديق الشعب » يدعو الباريزيين الى السفك في كل يوم ويعين طائفة جديدة من الفرائس ويهاجم خصومه بأشنع ضروب القذف والسعاية ، ويذكي سخط الجوع عليهم بمختلف التهم والأكاذيب

وكانت الخصومة بين مارا وبين الجيروندين تشتد يوماً فيوماً ولا سيما في أروقة المؤتمر ، وكان موقف الجيروندين يحوطه الحرج في معظم الأحوال لأن التطرف كان وقتئذ شهادة الوطنية الحقة والاعتدال مثار الريبة والمروق ، ومارا ما بين ذلك يشتد نفوذه ويتعاظم والجيروندبون يتربصون الفرصة لاسقاطه حتى وقع حادث ظن خصومه أنه الفرصة المنشودة

وذلك أنه حدث شغب كبير في باريس في ٢٦ فبراير سنة ١٧٩٣ نهبت على أثره عدة حوانيت ، وأحرقت دور كثيرة ، وأهرقت دماء غزيرة ، فألقى الجيروندبون تبعة ذلك الشغب على مارا لأنه في اليوم السابق على وقوع الحادث حرض الباريزيين في صحيفته على نهب الحوانيت وشنق التجار احتجاجاً على الغلاء ، وصعد أحد الجيروندين الى منصة الخطابة في المؤتمر ، واتهم مارا علناً بالتحريض على ارتكاب الجرائم المزعزعة للسلام والأمن ، فنهض مارا بدوره ليدحض التهمة عن نفسه ورمى الجيروندين بالاعتدال والتهاون والنزعة الرجعية ، وثارت على أثر ذلك ضجة كبيرة في المؤتمر ، واشتد الهرج حينما طلب الجيروندبون الى المؤتمر أن يقرر إحالة مارا الى المحاكمة على التهم المنسوبة اليه ، وعلا الصياح من كل ناحية ، وأخيراً فاز الجيروندبون بحمل المؤتمر على اصدار القرار المنشود

غير أن المحكمة الثائرة التي أحيل اليها مارا كانت مؤلفة بسعي روبسبير ودانتون من أنصار اليعقوبيين ، فتقدم مارا بنفسه ليحاكمه في الواقع نفر من أصدقائه المخلصين لآرائه ومبادئه ، موقناً بالبراءة

وهذا ما حدث فقد ظهر مارا أمام المحكمة الثائرة في ٢٤ ابريل سنة ١٧٩٣ ودافع عن نفسه بحماسة شديدة وصور نفسه في صورة شهيد مضطهد، ومما قاله للمحلفين: « أيها الوطنيون انكم لا تحاكمون مجرماً، وانما أنا رسول الحرية وشهيدها! وما حمل على تقرير محاكمتي الا جماعة خارجة دساسة! »، ولم تكن المحاكمة الا مهزلة قضائية لم تراع فيها أبسط الاجراءات، فبرىء مارا تبرئة مطلقة وسط الضجيج والاستحسان، وتواثب الشعب الى مقعد المتهمين فحمله على أكتافه وتوجه بأوراق الشجر، وخرج به الى الطرق صائحاً هاتفاً بحياته، بحياة صديق الشعب!



مارا

دخل مارا بموكبه الفخم الى ساحة المؤتمر وصعد الى منصة الخطابة متوجاً كما هو وصاح: « أيها المشرعون للشعب الفرنسي، اني أقدم اليكم وطنياً اتهم ثم برىء براءة مطلقة، وقد أتى ليقدم اليكم قلباً طاهراً ويعاهدكم على أن يستمر في الدفاع عن حقوق الانسان وحرية الشعب بكل ما أوتي من قوة ونشاط! » فقوبلت كلماته بالهتاف الحاد، ورفع القبعات وتلويحها

وهنا أدرك الجيروندبون خطأهم الفادح ، وعلموا أنهم مهدوا السبيل لفوز مارا وارتفاعه وتقوية نفوذه

ثم جاء دور انتقام اليعقوبيين (المونتانيار) فحوصر الجيروندون وقبض عليهم في ٣١ مايو و ٢ يونيه ، ثم حوكموا وأعدموا

وكان لتلك الفظاعة صدى هائلا في أنحاء فرنسا فاحتجت عليها معظم الاقاليم احتجاجاً شديداً ، وثارت بوردو وليون ومارسيليا ، وانفجر بركان الشغب في كل ناحية تقريباً ، غير أنها كانت حركات متقطعة متباعدة فأخمدت كلها بلا رأفة

ووصل عندئذ مارا الى ذروة نفوذه ، وتولى زعامة لجنة المراقبة التي أنشأها كومون باريس ، ليبسط بواسطتها سلطانه الهائل على المدينة

— ٢ —

ننتقل الآن الى ناحية أخرى لتلك المأساة لنقدم الى القارىء صورة الفتاة التي هلك مارا بخنجرها

شارلوت كرداي ! أو «ملاك القتل» كما يسميها الفونس دي لامارتين، اسم يقرنه الشاعر والروائي دائماً بالبطولة والتضحية والمثل الاعلى

ذلك لان شارلوت كرداي لم ترتكب جرمها الا عن عقيدة تكونت ولم تسفك دم مارا الا لاعتقادها أنها بذلك تنقذ فرنسا من روح خبيثة تسوقها الى الدمار والفوضى

وقد دفعت ثمن جريمتها حياة في زهرة العمر ، وشباباً في عنفوانه ، وجمالا يفيض سحراً ورقة

وقد سارت الى الموت جريئة باسمة ، معتقدة أنها أنما أدت لفرنسا ما يجب عليها

* * *

وهي ماري آن شارلوت دي كرداي ، ولدت في يوليه سنة ١٧٦٨ في احدى قرى مقاطعة ارجنتان وأنفقت طفولتها هادئة ناعمة بين أبويها واخوتها ، ثم عهدت بها اسرتها الى عمها الاب دي كرداي ليقوم بتربيتها

فلما توفيت والدتها ، وهي في الثانية عشرة ، أدخلها والدها دير «سانت ترينيته» في كان ، وهنالك تلقت تربية عالية متقنة

وكانت شارلوت مولعة بدراسة قصص الشاعر كورني — وهو جدها الاكبر — ومطالعة مؤلفات بلوتارك ، وفولتير ، وجان جاك

وكانت النظريات الفلسفية والسياسية التي حملتها آداب القرن الثامن عشر الى المجتمع الاوربي تذكي خيالها المضطرم ، وتنفذ الى سويداء قلبها ، فنشأت كما كانت تنشأ شبيبة هذا العصر تفيض سخطاً على الملكية والقصور والنظم القديمة ، وعطفاً على المبادىء الجمهورية والديمقراطية

بيد انها كانت طبيعة هادئة يحجب تأججها الصمت ، مستسلمة في الاعماق الى احلامها ونظرياتها الهائمة

وكانت تهوى السكينة والعزلة ، حيثما تطلق العنان لافكارها ، وقلما كانت تستسلم الى بوادر المرح التي تملأ حياة الحداثة ، أو تغادرها الرزانة والخطورة

كانت الحياة في نظر شارلوت أسمى من متاع ولهو ، وكانت المبادىء عندها ديناً ثابتاً

وكانت تلك الفتاة الناضجة منذ الحداثة ، فوق مواهبها العالية ، تتمتع بجمال باهر وسحر خلاب ، واليك ما وصفتها به مدرستها مدام دي مارمون :

« كانت فائقة القد ، فائقة الجمال ، شديدة الازدهار ، ناصعة اللون ، تحمر بسهولة جمة ، وتبدو عندئذ فتانة حقاً

« وكان محياها البديع يعرب عن رقة عميقة الأثر ، ونبرات صوتها تنفذ الى السويداء ، وما سمعت قط أنغاماً أشد سحراً منه ، وما رأيت قط نظرات أنقى وأطهر من نظراتها وأكثر فتنة ، لقد كانت في الواقع امرأة رائعة »

بيد أن ذلك الجمال الباهر لم يحول شارلوت ذرة عن الانهماك في كتبها وتأملاتها

* * *

في فبراير سنة ١٧٩٠ قررت الجمعية التشريعية اغلاق الأديرة ، فأغلق دير ترنيته في كان وعادت شارلوت الى منزل اسرتها وهي لم تجاوز العشرين. وهنالك استمرت كما كانت في الدير تراقب الحوادث وتستطلع الأنباء والشؤون السياسية ، وتقرأ النشرات والصحف العديدة التي كانت باريس تمطرها على الاقاليم

واستمرت على ذلك عاماً اشتد فيه ساعد الجيروندين وبرزوا الى طليعة الاحزاب الثورية ، وكانت ترقب تقدمهم بعطف وتعجب بزعمائهم وخطبائهم مثل فرجنيو وبريسو وباربارو ولوفيه ، غير أنها ألفت نفسها في القرية نائية عن مصادر الانباء فغادرت والدها وسافرت الى كان وأقامت هنالك عند قريبة لها تدعى مدام دي برتفيل كوفيل وعكفت على تتبع الحوادث والشئون بحماسة وشغف

وكانت صروح الملكية أثناء ذلك تنهار وتتهدم صرحاً بعد صرح ، وقد فاز الجيروندبون بتحطيمها أخيراً لأنهم كانوا رجالا أكفاء مخلصين وكانت الامة من ورائهم تؤيد جهودهم في تحقيق رغباتها ، غير ان الحزب المتطرف ، المونتانيار ، وثب عندئذ الى الامام ، وأراد زعماؤه دانتون وروبسبير ومارا أن يدفعوا الحوادث الى أقصاها فطالبوا برأس لويس السادس عشر بعد عزله ، وسقطت رأس الملك المنكود مثقلة بمسئوليات اسلافه ، وأخطاء ترجع الى ضعفه وسوء تدبيره

بيد أن شارلوت تملكها الروع لذلك الحادث وثارت مخيلتها سخطاً واشمئزازاً ويأساً لانحدار الثورة الى تلك الطريق الوعرة المحفوفة بالدماء ، الغاصة بالأشلاء والرؤوس ، واليك شذرة من رسالة كتبتها الى احدى صديقاتها في يناير سنة ١٧٩٣ على أثر اعدام لويس السادس عشر ، وفيها تقرأ عواطف شارلوت ومشاعرها في ذلك الوقت :

« تعرفين يا حبيبتي روز النبأ المروع وقد ارتجف قلبك له سخطاً كما ارتجف قلبي : هكذا سقطت فرنسا المسكينة فريسة للاشقياء الذين كثيراً ما أساءوا الينا

« اني ارتجف رعباً واشمئزازاً ، فكل ما يستطيع المرء أن يتمثله من رائع مخيف مجسم في ذلك المستقبل الذي تهيئه لنا أمثال هذه الحوادث ، ومن الواضح انه لن يمكن ثمة أن ينزل بنا ما هو شر من ذلك

« اني أكاد أغبط ذوينا الذين هجروا ارض الوطن ، لأني قد يئست من أن ارى السكينة التي طمحت اليها تعود الينا

« ان جميع أولئك الرجال الذين اخذوا على انفسهم أن يهبونا الحرية قد قتلوها ، فهم ليسوا الا جلادين ، فلنبك مصير فرنسا المسكينة »

من تلك اللحظة فاض قلب شارلوت ببغضاء خالدة لأولئك الجلادين الذين يعذبون وطنها حسبما تعتقد ، لأولئك الموتانيار الذين يستمدون كل يوم من جرأتهم واجتماع كلمتهم فوزاً جديداً على الجيروندين برغم كثرتهم وقلة خصومهم

وكانت تخص مارا رسولهم الى الدمار والسفك بقسط كبير من ذلك البغض لاعتقادها أنه هو الروح الخبيثة التي تنفخ فيهم هوى الجريمة وظمأ الدماء

❁ ❁ ❁

ازورّ نجم الجيروندين منذ محاكمة لويس السادس عشر واعدامه وبرز الموتانيار الى الطليعة ، فلم تمض أشهر حتى سادت كلمتهم في المؤتمر وفقد الجيروندون كل نفوذ وسلطة

ثم أسفر الصراع الرائع بين الجيروندين وخصومهم عن سقوط الجيروندين أنفسهم في مثل الهاوية التي حفروها من قبل للملكية ، فقرر المؤتمر محاكمتهم ، فحوكموا وأعدموا كما أسلفنا ولم يفلت منهم الا نفر يسير فروا الى الاقاليم الداخلية ، واجتمع بعضهم في مقاطعة نورماندي ليأخذوا زعامة الثورة هنالك ضد حكم الارهاب في باريس

وكان بين أولئك النواب الفارين باربارو الخطيب المفوه وبيسيون حاكم باريس السابق وجوديه وسال ولانجونيه ، فوفدوا جميعاً الى مدينة كاين حيث كان الاضطراب عظيماً والانفعال شديداً من جراء تلك المذبحة التي

هلك فيها عشرات من نواب الامة ، واجتمعوا في دار البلدية حيث كانت اللجنة الثائرة تعقد جلساتها ، وأخذوا في القاء الخطب الملتهبة وتنظيم الثورة المعارضة

وكانت شارلوت كرداي تضطرم توقاً للتعرف بأولئك الزعماء الاعلام الذين شادوا أسس الجمهورية فذهبت لزيارتهم في ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٣ ، وطلبت مقابلة باربارو فاستقبلها في الحال واحتجت لزيارتها بأنها قدمت ترجوه أن يساعد صديقة لها لدى وزير الداخلية ليعيد اليها معاشاً قطع عنها ، فوعدها النائب أن يهتم بالامر ودعاها الى مقابلته بعد أيام ، فعادت ، ولما لم يسفر سعي النائب عن تحقيق ما رجت اقترحت أن تذهب هي الى باريس لتقابل بنفسها وزير الداخلية

ومما لا ريب فيه ان فكرة مقتل مارا استقرت في ذهنها منذ تلك اللحظة ، وقد اعترفت هي بذلك في إحدى رسائلها ، وان مسألة صديقتها لم تكن إلا عذراً انتحلته للذهاب الى باريس

وقد سمعت من الجيرونديين أثناء حديثها معهم وصفاً رائعاً لمارا ، وعلمت انه مازال يستعر ظمأ للسفك ، وانه قدر مؤخراً عدد الرؤوس التي يجب حصدها « ليستتب السلام العام » بمائتين وستين ألف رأس ، فثارت نفسها ارتياعاً لتلك الفكرة وذكا بغضها لذلك الطاغية السفاك ، واعتزمت أن تضحي نفسها في سبيل حماية الابرياء من بغيه وعدوانه

سمعت شارلوت باربارو ذات يوم يصيح في إحدى خطبه : « إذا لم تظهر جان دارك جديدة ، واذا لم ترسل السماء نجدة سماوية ، واذا لم تحدث معجزة خارقة ، فقد قضي على فرنسا ! »

جان دارك جديدة ! عبارة قالها النائب عفواً وفي معرض الحماسة الخطابية ، ولكنها نفذت الى قلب شارلوت نفاذ السهم . فلم لا تكون هي جان دارك الجديدة ؟ ولم لا تقفو أثر عذراء اورليان في تحرير وطنها المعذب من طغيان جلاديه ؟

أخذت هذه الفكرة تختمر في ذهنها ، وتسيطر عليها ، حتى غدت لا تنقطع لحظة عن بحثها وتأملها

— ٣ —

ثم اعتزمت شارلوت أمرها وبادرت الى العمل فكتبت الى أبيها خطاباً تودعه فيه وتزعم انها راحلة الى انجلترا . وأعطاها باربارو خطاب توصية



شارلوت كرداي

الى صديقه النائب لوز ديبريه . وكان معها منذ ٢٣ ابريل جواز سفر الى باريس ، فاستقلت عربة البريد من كان في عصر ٩ يوليه ، ووصلت الى

باريس في ١١ يوليه ونزلت في فندق «بروفيدانس» بشارع «فيه اوجستان» وهناك تحرت عن منزل النائب لوز دبيريه ، وذهبت لزيارته في منزله بشارع سان توماس دي لوفر فلم تجده ، فعادت اليه في المساء ، فاستقبلها ، وقدمت اليه خطاب باربارو فقرأه وضرب لها موعداً للحضور في صباح اليوم التالي ليصحبها إلى وزير الداخلية

غير ان تلك المقابلة لم تقع لان دبيريه أوقف في اليوم التالي لاعتباره مشبوهاً

فعادت شارلوت الى الفندق ولبثت وحيدة في غرفتها واشتغلت بكتابة نداء ضبط معها عقب ارتكاب الجريمة عنوانه : « الى الفرنسيين أنصار القانون والسلام » . وهذا بعض ما جاء فيه :

« الى متى أيها الفرنسيون التعساء تهيمون بالاضطراب والتفرق ؟ ألا لقد طال الأمد الذي غلب فيه الاوغاد ودعاة التفرق مصالحهم وأطماعهم على المصلحة العامة ، فلم تبطشون أنتم — ضحية أطماعهم — بعضكم ببعض فتقيموا بذلك صرح استبدادهم على أنقاض فرنسا المنكودة ؟

« ان التفرق ينفجر من كل ناحية والمونتانيار يسودون بالجريمة والارهاب ، ويدبر بعض السفاكين الظمئين الى دمائنا هذه الدسائس الشائنة ويقودوننا الى الهاوية من ألف طريق . .

« أيها الفرنسيون ! انكم تعرفون أعداءكم ، فانهضوا وهيا ! هيا اسحقوا المونتانيار فتصبحوا من بعدهم اخواناً وأصدقاء

« آه يا فرنسا . ان سعادتك موقوفة على تنفيذ القانون . واني لا أنهك حرمته بقتل مارا ، فقد حكم عليه المجتمع ، وهو خارج على القانون . وأي محكمة تحاكمني ؟

« وطني ! ان مصائبك تمزق قلبي . وليس في وسعي أن أهبك سوى حياتي ، بل اني أشكر الله الذي وهبني حرية التصرف فيها ، فلن ينكب بموتي أحد . أريد أن يكون من زفرتي الاخيرة خير لأبناء الوطن وأن تكون رأسي المحمولة فوق الرمح في طرقات باريس علم الاتحاد لكل أنصار

القانون ، وأن يرى المونتانيار المتخاذلون هلاكهم مكتوباً بدمي ، وأن أكون آخر فرائسهم ، وأن يعلن العالم الذي انتقمت له أنني خليقة بشكر الانسانية »

* * *

وفي صبيحة اليوم التالي (١٣ يوليه) غادرت شارلوت غرفتها مبكرة وطافت حدائق الباليه رويال لتهدئ من ثورة نفسها المضطرمة . وفي نحو الساعة الثامنة ذهبت الى حانوت بائع للسلاح فاشترت منه سكيناً كبيرة أخفتها تحت ثيابها ، ثم ركبت عربة أمرت سائقها أن يسير بها الى المنزل رقم ٣٠ بشارع الكردليه وهو المنزل الذي كان يسكن فيه الزعيم الكبير جان بول مارا

فوصلت اليه في نحو الساعة العاشرة ، وسألت حاجبته « ماري باربان » عن الطبقة التي يسكنها مارا فأرشدتها اليها غير انها قالت لها ان مارا قد حظر أن يصعد انسان لرؤيته فلم تلح وعادت ادراجها ، ثم عادت ثانية بعد ساعة ، فقابلتها في تلك المرة « سيمون افرار » وهي المرأة التي كان يعاشرها مارا وأجابتها ان الزعيم يمتنع عن أية مقابلة ، فألحت شارلوت حينئذ وقالت ان لديها أموراً هامة مستعجلة تريد أن تنبئ بها مارا ، ولكن سيمون لم تقبل منها كلاماً وأفهمتها ان الحظر تام مطلق

فعادت شارلوت الى فندقها وكتبت الى مارا تلك الرقعة وأرسلتها اليه بواسطة خادمة الفندق :

« لقد جئت من كاين . ولا بد أن حبك للوطن يحملك على الرغبة في أن تعرف حقيقة المؤامرات التي تدبر هنالك ، اني في انتظار جوابك »

ولما لم يأتها الرد حتى الساعة السابعة من المساء اعتزمت أن تذهب المرة الثالثة الى شارع الكردليه

فذهبت وصعدت تواً الى مسكن مارات في الطبقة الاولى ، وطرقت ففتحت لها الحاجبة ، وجاءت في أثرها سيمون افرار ورفضت أن تسمح لها بالدخول ، فثارت بينهما مناقشة حادة

وكان مارا جالساً في تلك اللحظة في حمامه فسمع المشادة واستفهم

عن سببها وأمر أن يسمح لشارلوت بالدخول

وكان « صديق الشعب » في الواقع يعاني من مرض جلدي حاد يسبب له آلاماً فظيعة ، فكان ينفق معظم أوقاته جالساً في الماء ، ويكتب مقالاته الملتهبة على ورق ملصق بلوحة فوق حافة الماء

دخلت شارلوت الى غرفة الحمام ، وكانت ضيقة مستطيلة قليلة الضوء ، وجلست على مقعد قريب من الحوض الذي يجلس فيه مارا ، فاستفهم منها في الحال عما يحدث في كاين ، وأخذت شارلوت تحدثه عن النواب الجيروندين الفارين وهو يقيد ما يعن له في مذكرته من الملاحظات ، فلما انتهى من الكتابة قال « حسناً ، سوف ابعث بهم جميعاً الى الجيوتين ! »

وكانت عبارته نذير موته ، فإن شارلوت استلت السكين التي تخفيها تحت ثيابها بسرعة وانقضت عليه وأغمدتها في صدره العاري بقوة هائلة فغاصت فيه حتى النصل

فصرخ صديق الشعب مستغيثاً : « اليّ يا عزيزتي ! اليّ ! » غير أن الطعنة كانت قاتلة فمالت رأسه الهامدة الى الوراء وجرى الدم مدراراً من جرحه

وهرعت سيمون على الاستغاثة ، وهرع في أثرها « لوران با » عامل الصحيفة ، وقبض على شارلوت وأخذ يضربها على رأسها بعنف بينما حاولت سيمون أن تسعف خليلها القتيل

وملأت الحاجبة الشارع صراخاً فبادر الناس من كل صوب وغص المكان بالقادمين ، وقدم طبيب ليعني بمارا فوجده جثة هامدة ، وقدم مندوب الحرس الاهلي ومأمور الشرطة فاستجوبا شارلوت في الحال ، ثم قدم في أثرهما شابو وليجاندر ودوريه نواب المونتانيار واشتركوا في الاستجواب

وكانت شارلوت هادئة ، ساكنة الجنان ، تجيب عن كل الاسئلة بجرأة ووضوح ، فلما تم الاستجواب الاول أخذت الى سجن « الابي » ، وفي منتصف الليل أعيدت الى مسكن مارا لتواجه بالجثة الهامدة ، وهنا قالت « بلى فأنا الذي قتلته »

وفي اليوم الثاني أذاعت الصحف نبأ الحادث ، في تفصيلات وتعليقات مستفيضة ، فاشتد الانفعال في باريس واعتقد البعض ان الجريمة انما هي فاتحة لحركة كبرى دبرت ضد الثورة وطارت الاشاعة بأن دانتون وروبسبيير سيقتلا كما قتل صاحبهما ، وان هنالك مؤامرة ملكية واسعة النطاق دبرها الجيرونديون ، ودفعوا بشارلوت كرداي لتبدأ التنفيذ ، واشتد الضجيج في أروقة المؤتمر في يومي ١٤ و١٥ يوليه ، وقرأ شابو ودوروبه تقريرهما عن الحادث ، فقرر المؤتمر على أثر ذلك احالة شارلوت كرداي الى المحكمة الثائرة ، والقبض على النائب ذيبيريه وفوشيه الاسقف السابق باعتبارهما شريكين في الجريمة لان شارلوت رؤيت لديهما

وقرر المؤتمر ايضاً اعتماد مبلغ كبير من المال لتحنيط جثة الزعيم الراحل، وقرر كومون باريس ان تعرض الجثة في كنيسة الكردليه على عرش كبير تحوطه الورود والرياحين ، فنقلت الجثة في احتفال عظيم سار على رأسه روبسبيير ونواب المونتانيار . ثم انتزع القلب ووضع في وعاء مرصع بالجواهر الغالية وعلق في بهو نادي الكردليه ، وهنالك ألقيت الخطب الرنانة رثاء لمارا ، وشبهه بعضهم بالآلهة ، ونادوا بالانتقام له . ثم دفنت الجثة في حديقة الكردليه حتى تنقل بعد الى البانتيون ، وحفر على هرم صغير أقيم فوق القبر ما يأتي : « هنا يثوي مارا صديق الشعب ، الذي قتله أعداء الشعب في ١٣ يوليه سنة ١٧٩٣ »

***

أما شارلوت فلم تشك في مصيرها لحظة ، فبادرت بكتابة بعض الرسائل الاخيرة ، منها رسالة مستفيضة كتبتها الى بابارو تصف فيه رحلتها الى باريس ، وظروف ارتكاب الجريمة ، وأتمتها في سجن الكونسيرجيري حيث نقلت ليستجوبها فوكييه تنفيل هنالك ، ورسالة أخيرة الى والدها تعتذر اليه عن الحزن الذي تسببه له بعملها ، وعن « اقدامها على التصرف في حياتها دون اذنه »

وفي صباح ١٧ يوليه وهو اليوم الذي حدد لمحاكمة شارلوت أمام المحكمة

الثائرة غصت ساحات وزارة الحقانية بجموع كبيرة هرعت لتشهد المحاكمة ، ثم أحضرت شارلوت الى قاعة الجلسة بحراسة ثلة من الجند وبدىء باستجوابها في الحال ، وندبت المحكمة للدفاع عنها المحامي شوفولاجارد وقد كان من شهود الجلسة . ثم بدىء بسماع الشهود فتقدمت سيمون افرار وأخذت تقص خلال الدموع والزفرات ما حدث يوم ١٣ يوليه ، ولما أفاضت في الكلام قاطعتها شارلوت قائلة : « لا فائدة من كل هذا فأنا الذي قتلته »

وهنا نشبت بين رئيس المحكمة والمتهمة مناقشة حادة ، وأخذ يلقي عليها الاسئلة بلهجة شديدة ، وشارلوت تجاوب في سكينة ووضوح . واليك مثل من هذه الاسئلة والاجوبة :

س ـ ما الذي حملك على ارتكاب هذه الجريمة ؟

ج ـ جرائمه !

س ـ وما ذا تعنين بجرائمه ؟

ج ـ المصائب التي كان سبباً في وقوعها منذ نشوب الثورة والتي كان مستمراً على تدبيرها لفرنسا

س ـ وما الذي أوحى اليك بكل هذا البغض لمارا ؟

ج ـ لم أكن في حاجة لأن يوحي إليّ الغير ببغضه فقد كان لي من بغضي الخاص ما يكفي

س ـ وما ذا كنت تؤملين من وراء قتله ؟

ج ـ اعادة السلام الى وطني

س ـ وهل تعتقدين انك قتلت كل مارا ؟

ج ـ كلا ! ولكن لعل موت هذا يخيف الآخرين

ثم صاحت شارلوت : « كنت أعرف ان مارا يعذب فرنسا . قتلت رجلا لأنقذ مائة الف ، وقتلت وغداً لأنقذ الابرياء ، وقتلت وحشاً ضارياً لينعم وطني بالسلام . لقد كنت جمهورية قبل الثورة وما فترت عزيمتي قط»

ولما ووجهت بلوز دبيريه وفوشيه احتجت على اتهامهما بشدة ، وأكدت براءتهما من الاشتراك معها في أي ظرف من ظروف الجريمة

ثم قام المدعي العمومي ، وقرأ تقريره ، وطالب برأس المتهمة

وتلاه شوفولاجارد ، وكان في مأزق دقيق ، لانه لا يستطيع أن يبرر الجريمة وهو يعلم ان مارا كان زعيماً يعبده أقرانه ويعبده الشعب ، وقد أبى كذلك أن يشوه جمال عمل المتهمة بنسبة الجنون اليها ، ولذلك اكتفى بأن يلقي الكلمة الآتية على هيئة المحكمة :

« إن المتهمة تعترف بثبات بالجرم الفظيع الذي ارتكبته ، وتعترف بثبات بأنها تعمدت ارتكابه مدة طويلة ، بل هي تعترف بأفظع الظروف ، والخلاصة انها تعترف بكل شيء ولا تحاول أن تبرر عملها ، وهذا أيها الوطنيون المحلفون كل دفاعها !

« ان هذه السكينة الراسخة ، وذلك الانكار التام للذات ، وهما اللذان لا ينمان عن ذرة من الندم حتى لدى المثول أمام الموت ذاته : هذه السكينة وذلك الانكار ، الساميان في معنى من المعاني ، ليسا في الطبيعة ، ولا يمكن ان يفسرها الا توقد التعصب السياسي الذي قاد اليد بالخنجر ، ولكم أيها الوطنيون المحلفون أن تقدروا ما لذلك الاعتبار المعنوي من التأثير في ميزان العدل : اني ألجأ الى حسن تقديركم »

وعلى أثر ذلك انسحب المحلفون للمداولة ثم عادوا وأصدروا قراراً بالادانة يقضي باعدام المتهمة ومصادرة أملاكها

وقرىء الحكم في صمت رهيب ، وأصغت اليه شارلوت دون أن تبدو على وجهها ذرة من التأثر أو الاضطراب ، وهل خالجها الشك في مصيرها لحظة ؟

* * *

ولما عادت شارلوت الى السجن وفد عليها المصور هاور ليتم صورتها التي بدأ برسمها في الجلسة ، فشكرته ووقفت أمامه حتى أتم رسمها . ثم ظهر الجلاد على أثر ذلك فقص شعرها البديع وألبسها القميص الاحمر وأوثق يديها ، ثم أخذت الى عربة المحكوم عليهم ، فسارت بها الى «ميدان الثورة» بين جموع كبيرة ، تقذفها صيحات الموت والنقمة . بيد أنها وقفت في العربة ،

حادثة ساكنة ، وكان بين النظارة آدم لكس نائب مايانس فسحره جمالها وبهاؤها عندئذ حتى أنه تيمها الى أسفل النطع وصاح بحدة « انها لأعظم من بروتاس »[1] وقد كلفته هذه العبارة حياته اذ قبض عليه عقب ذلك موحوكم بتهمة تمجيده لقاتلة وقضي عليه بالاعدام

بل زهق أيضاً في سبيل ذكراها الشاعر الكبير أندريه شنييه لأنه ترنم بشجاعتها في احدى قصائده فقال عنها « لقد كنت وحدك رجلا » فكلفه ذلك الخاطر رأسه

* * *

اذا كان الشاعر أو الروائي يرى في عمل شارلوت كرداي مثلا خالداً للبطولة والتضحية ، فان المؤرخ الذي يستعرض الحوادث في تعقل وروية لا يرى فيه أكثر من نزعة قوية استولت على مشاعر نفس مضطرمة جائشة بكل ما كان يحمله ذلك العصر من أسباب الانفعال والاضطراب ، فاندفعت الى سبيلها متأثرة بفكرة غامضة من البطولة والتضحية ، تلك الفكرة التي تحمل بعض الاذهان المحمومة على الاعتقاد بأنها تستطيع أن تؤثر في مصائر أمة أو حركة ، بارتكاب جريمة فردية

بمثل هذه الفكرة الغامضة أغمدت شارلوت كرداي خنجرها في قلب مارا ، ولعلها اختارته دون سواه لانه كان أشد على الجيروندين وطأة من سواه ولانه عمل على اسقاطهم واعدام زعمائهم . وقد عرف الجيروندبون منذ أوائل سنة ١٧٩٣ بالنزعة الرجعية ومقاومة التطرف ، وقد نشأت شارلوت كرداي في مقاطعة نورماندي حيثما كان للجيروندين كثير من الحول والنفوذ ، بل لعل فكرة الجريمة لم تثب الى ذهنها الا منذ أن اجتمعت بزعمائهم في كاين وتأثرت بأحاديثهم وآرائهم السياسية

وشارلوت كرداي فوق ذلك تنتمي الى النبلاء الذين سحقتهم الثورة ، وهلكوا آلافاً مؤلفة في مذابح سبتمبر التي كان لمارا نصيب كبير في تدبيرها كان مارا احدى هاته القوى العظيمة التي عملت على سحق الملكية

---

(١) قاتل يوليوس قيصر

مقتل الجنرال كليبر

ومحاكمة سليمان الحلبي

سنة ١٨٠٠

— ١ —

في هذا الفصل ننتقل بالقارىء الى مسرح الحوادث في الشرق ، ونقف به لحظة في مصر — في هذه البلاد — على ذكرى الحملة البونابرتية

قد نجد في الظواهر والمناسبات التاريخية ، وفي علائق الجوار والحضارة ، ما يفسر كيف ان مصر كانت على التوالي فريسة لليونان فالرومان فالعرب فالترك ولكننا لا نستطيع أن نجد فيها ما يفسر قدوم بونابرت الى هذه البلاد

قدم نابوليون بحملته الى مصر ، في مأزق تكاثرت فيه الاعداء على فرنسا وأحاطتها النمسا وبروسيا وانجلترا بسياج من الخطر الدائم ، قدمها قبل أن يأمن غائلة هؤلاء الاعداء ، بل قبل أن يقمع الخارجين عليه والمؤتمرين به وقبل أن يثبت قدمه في الرآسة والحكم المطلق

ولكن بونابرت لم يقصد فتح مصر عبثاً

ذلك لانه لاحظ — وربما وحده من بين ساسة عصره — أن انجلترا تتطلع الى مصر عن كثب ، وتتحين الفرص لافتراسها ، وأدرك بثاقب فكره ما ترتبه انجلترا على الفوز بفريستها من الاهمية العظمى ، وأنها ترمي بذلك الى ربط مواصلاتها والسيطرة على طرق البر والبحر ، والاستئثار بالسلطان المطلق في الشرقين الادنى والاقصى

وانجلترا ألد وأعنت أعداء بونابرت

فاذا استطاع بونابرت أن يفتتح مصر وأن يستمر بها ، استطاع أن يحبط تدابير انجلترا ، وأن يهدد مواصلاتها مع أملاكها الشرقية ولا سيما الهند

نقول بعبارة أخرى أن بونابرت استطاع منذ قرن وثلث أن يتصور البحر الابيض مرتبطاً بالبحر الأحمر بقناة لم تكن حفرت بعد ، وأن يلم بكل ما يدور اليوم حول تلك المشكلة الكبرى التي هي حجر الزاوية في كل صروح السياسة الانجليزية — مشكلة المواصلات الامبراطورية

اعتزم بونابرت اذن أن يسبق عدوته اللدى الى مصر فيفتتحها ويجعل منها قاعدة فرنسية حربية سياسية

فخرج من ثغر طولون في شهر مايو سنة ١٧٩٨ في جيش فخم ، وعرج في طريقه على مالطه فاستولى عليها ، ثم أشرف بجيشه وأسطوله على ثغر الاسكندرية في ٣٠ يونيه ، وبدأ مخاطبة المصريين بأن أذاع بينهم أنه لم يقدم الى مصر غازياً ولا متغلباً ، وانما قدمها ليعاقب الذين ظلموا الشعب المصري ، ويعمل على تأييد الدين الاسلامي تأييداً حقيقياً خالصاً

وشتت بونابرت جيش المماليك بجانب الاهرام وانشأ حكومة مركزية في القاهرة تقبض على ناصية الاقاليم الشمالية

ولم تمض بضعة أيام على نزول جيشه الى البر ، حتى قدم الاميرال الانجليزي نلسون في سفنه ، وكان يجد في أثر بونابرت منذ أن خرج بحملته من طولون ، ووثب على الاسطول الفرنسي فهزمه في أبو قير هزيمة شنيعة

غير ان تلك الهزيمة لم تثن من عزيمة بونابرت ، فلم يلبث أن استقر بمصر حتى اعتزم افتتاح سوريا قبل أن يهاجمه الباب العالي الذي اعتبر اعتداءه على مصر اعلاناً للحرب عليه ، فاخترق قفار سينا في غمار من الشدائد والصعاب الفادحة ، واكتسح فلسطين ، غير أنه رد عند أسوار عكا أمام جلد المدافع عنها وهو احمد باشا الجزار الذي استعان على وقف القائم بالسفن الانجليزية وحنكة قائدها السير سدني سميث ، فعاد بونابرت بجيشه المنهوك الى مصر

وما كاد يستقر في القاهرة ثانية حتى وصلته أنباء سيئة من فرنسا منها أن النمسا استعادت ايطاليا وهزمت جيوش الجمهورية ، وأن روسيا وبروسيا وانجلترا والنمسا تجهز الجيوش لغزو فرنسا ، وأن المؤامرات والثورات

الملكية اشتدت ونكاثرت ، فبادر بونابرت بالعودة الى فرنسا ، وغادر مصر في خفاء ونكيرة تاركا جيشه تحت امرة الجنرال كليبر

وهو جان باتست كليبر ، أحد مشاهير قواد الثورة الفرنسية وقرين ديموريه ، وبشيجرو ، وهوش ، وُلد في شتراسبورج سنة ١٧٥٣ ، وخدم في جيش الجمهورية ، وظهرت براعته العسكرية في ثورة قنده حينما اشتبكت الجيوش الملكية مع جيش الجمهورية فهاجمها ومزقها ، ولما قدم بونابرت الى مصر كان كليبر قائداً لاحدى الفرق ، وقد صحبه الى سوريا وأبلى بلاء حسناً في واقعة غزه

***

رأى الجنرال كليبر حرج المأزق ففاوض السير سيدني سميث في عقد اتفاق يسمح بمقتضاه الى الجيوش الفرنسية بأن تغادر مصر في أمن وسلام فتم الاتفاق على ذلك في العريش في فبراير سنة ١٨٠٠ ، ولكن القائد الانجليزي وصلته أوامر جديدة من حكومته تقضي بألا يسمح للفرنسيين بالجلاء عن مصر الا اذا سلموا سلاحهم ، فنقض السير سدني اتفاقه ، وانقض كليبر في الحال بقواته على الجيش التركي في هليوبوليس في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ فهزمه هزيمة شديدة بالرغم من تفوقه عليه في العدد تفوقاً هائلا اذ كان الترك ثمانون الفاً والفرنسيون عشرة آلاف

ثم استقر الفرنسيون في القاهرة ثانية ، واخذوا ينظمون شئونهم ويحصنون مراكزهم استعداداً للطوارىء

***

وكان القائد العام للجيش الفرنسي أي الجنرال كليبر يقيم في منزل نخم بحي الازبكية تحيط به حديقة كبيرة ، ويشرف على بركة الازبكية التي تقع مكانها الآن حديقة الازبكية وقسم من الشوارع المجاورة لها ، والمرجح أنه كان يشغل مكان فندق شبرد الحالي ، وكان زعماء الجيش يجتمعون هنالك عادة للتشاور والمفاوضة ، وكان المركز العام لاركان الحرب في الجيزة قريباً من النهر

فحدث في ضحى يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ الموافق ٢١ محرم سنة ١٢١٥ هـ ، و٢٥ من شهر بريريال سنة ٨ لتأسيس الجمهورية الفرنسية

الاولى (١) ان القائد العام الجنرال كليبر والمسيو بروتان كبير المهندسين وأحد أعضاء البعثة العلمية الفرنسية التي قدمت مصر مع الجيش الفرنسي كانا يتريضان في الحديقة المشرفة على بركة الازبكية ، وكان القائد العام قد تقدم رفيقه قليلا فبرز من أحد تماشي الحديقة فتى نحيف القامة متوسط الجسم يرتدي الزي التركي وتقدم من القائد العام فأشار اليه بالرجوع وكرر قوله « مافيش » معتقداً ان الغريب يسأله الصدقة لأنه كان رث الثياب والهيئة ، ولكن الفتى تقدم منه وأشار اليه ان له حاجة يلتمس قضاءها ، ومد اليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد اليه القائد العام يده ، فقبض عليها بيد عصبية قوية ، وجرد بيده اليمنى خنجراً كان يخفيه تحت ثيابه ، ثم انقض على الجنرال وطعنه بخنجره عدة طعنات سريعة أصابته في صدره وذراعه وبطنه ، فسقط الى الارض صريعاً وهو يصيح مستغيثاً ، فبادر زميله بروتان الى اغاثته ، ولكن القاتل انقض عليه كذلك وطعنه عدة طعنات ألقته على الارض وأفقدته الرشد ، ثم وثب مهرولاً الى تماشي الحديقة ، فغاب فيها واختفى عن الاعين (٢)

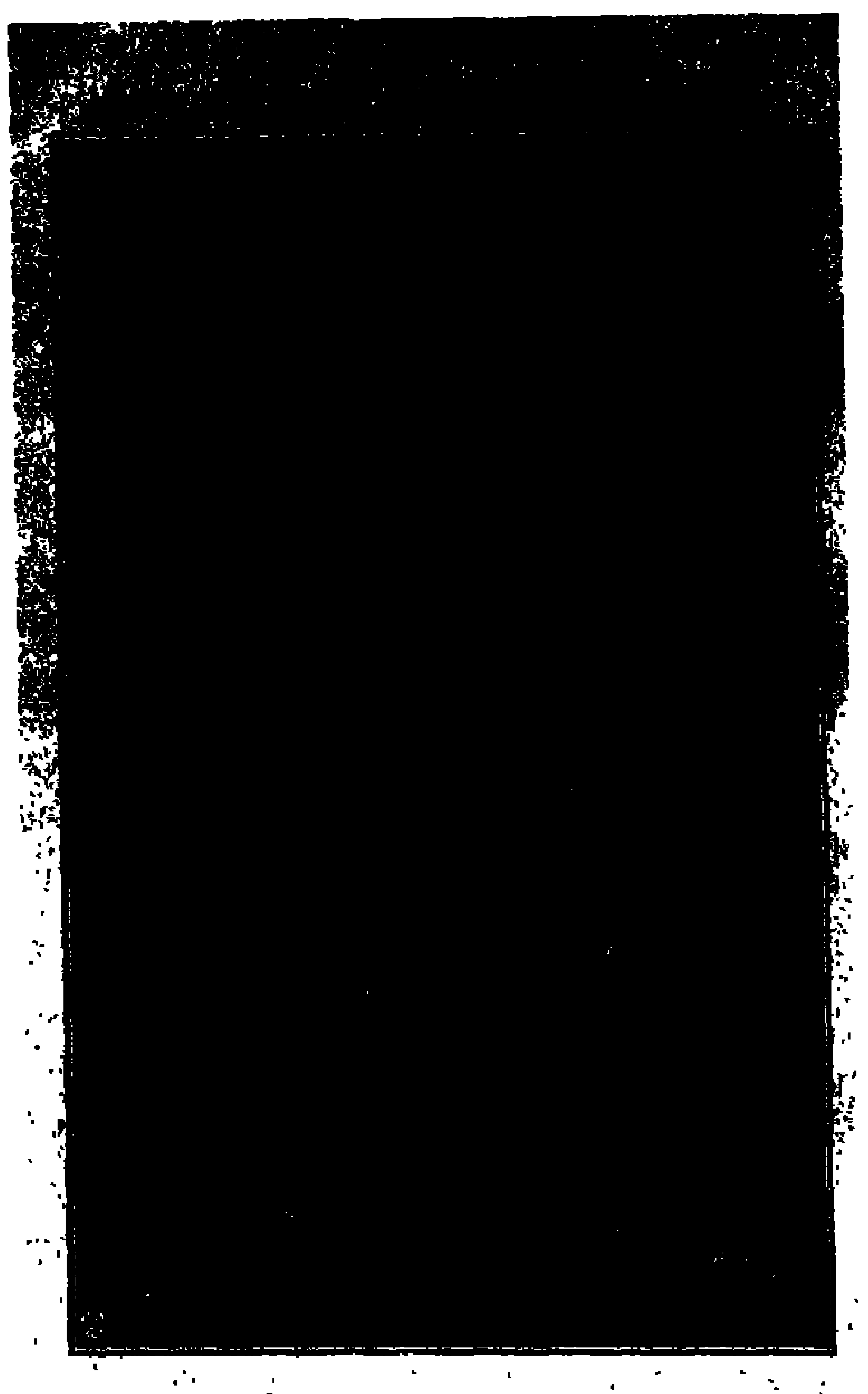
— ٢ —

وما كاد القاتل يختفي حتى تواثب الحراس من كل ناحية الى مكان الاستغاثة ، فوجدوا قائدهم صريعاً في تماشي الحديقة والدم يقطر من جراحه ، ووجدوا زميله بروتان ملقى على قيد خطوة أمتار منه ، ولم يروا أثراً للقاتل ، فذعروا واشتد اضطرابهم ، وطار الخبر الى الرؤساء والضباط ، فهرولوا من كل صوب ، واشتد الضجيج والهرج ، وانطلق عشرات الجند الى الجهات المجاورة يفتشون عن القاتل أو القتلة ، واعتقد الرؤساء ان تلك

---

(١) وثيقة الجمهورية هذه وضعها المؤتمر الوطني الثوري في سنة ١٧٩٣ وكانت هي اللائحة الرسمية لحكومة الثورة وللحكومة المؤقتة (الديركتوار) في فرنسا

(٢) الجبرتي — ج ٣ ص ١٢١ ومحاكمة سليمان الحلبي — أقوال المهندس بروتان المحضر المؤرخ ٢٦ بريريال سنة ٨



مقتل الجنرال كليبر

الى القلاع والحصون بالتأهب ، واحتاط الفرنسيون بالمدينة واندسوا الى شوارعها ، وسرى الرعب الى القاهريين ، فأسرعوا الى الفرار والاختفاء

في المنازل والأحياء القاصية ، وأغلق التجار حوانيتهم ، فأقفرت الطرقات

وساد على المدينة سكون رهيب .

غير أن ذلك الرعب العام ما لبث أن تبددت سحبه بعد أمد قصير ، إذ لم

تمض ساعة حتى ظفر بعض [illegible] الذين انطلقوا في أثر القاتل ، بشاب كان

مختفياً في البستان المجاور لمنزل القائد العام (أو ضاري عسكر كما تسميه

كتابات ذلك العصر) المعروف بغيط مصباح وراء جدار متهدم ، فقبضوا

عليه ، فقدم للاستجواب في الحال أمام مجلس عسكري انعقد في منزل الجنرال

داماس رئيس أركان الحرب ، واستجوبه القائد منو أقدم الضباط في حملة

مصر (١).

وكان الجنرال الجريح يعاني حشرجة النزع حينما قدم لفحصه كبير

الأطباء في نحو الساعة الثامنة بعد الظهر في مركز القيادة العام بحي الازبكية .

وقد ظهر من الفحص أنه طعن بآلة قاطعة ذات حد واحد ، وأنه أصيب

بأربعة جروح بالغة أحدها تحت الثدي الايمن ، والثاني تجاه الكلية اليمنى

والثالث في ذراعه الايسر ، وقد شقه من ناحية الى أخرى ، والرابع في

الخد الايمن . أما المهندس بروتان فقد ثبت الفحص أنه ضرب بآلة

قاطعة ذات حد واحد أيضاً ، وأنه أصيب بستة جروح في صدغه وكتفه

وجنبه الايسر وشدقه الايسر وصدره من جهة اليسار (التقرير الطبي

المؤرخ في الساعة الثالثة بعد ظهر ٢٥ بريريال سنة ٨ لتأسيس الجمهورية)

وقد اسلم الجنرال الروح بعد فحصه بيرهة وجيزة

أما المهندس بروتان ، فلم تكن جراحه خطرة بالرغم من كثرتها .

فأسعف بالعلاج

***

ظهر من الاستجواب الاول أن الشاب المقبوض عليه يسمى سليمان

---

(١) وهو جاك منو ، أو عبد الله منو ، الذي ادعى الاسلام بعد قدوم الفرنسيين الى مصر ، وتزوج من سيدة مسلمة ، وقد لبث حيناً حاكما لولاية رشيد قبل أن يتولى القيادة العامة بعد مقتل الجنرال كليبر

الحلبي ، وانه وُلد في مدينة حلب بولاية الشام وعمره أربع وعشرون سنة ،
وانه قدم الى القاهرة مع احدى القوافل فنزل في الجامع الازهر
غير انه أنكر ما نسب اليه من جريمة قتل القائد العام والشروع في قتل
المهندس بروتان ، فتليت عليه الادلة الاولى للاتهام ورد عليها كما يأتي :
أولاً — وجد الجند في احدى مماشي الحديقة خنجراً ملوثاً بالدماء ، على
مقربة من المكان الذي كان مختفياً فيه ، فقرر المتهم انه لا يعرف هذا
الخنجر ، وانه لم يحرز خنجراً من قبل ، ولا يعرف من اين أتى به الجند
ثانياً — قبض عليه الجند وهو مختف في الحديقة ، وقد رد المتهم على ذلك
بأنه لم يكن مختفياً ، وانه اضطر الى البقاء في الحديقة لأن الجند سدت عليه
كل المسالك ، فلم يستطع أن يسلك طريقاً ما
ثالثاً — وجدت قطعة قماش أخضر في المكان الذي سقط فيه القائد ،
وهي تماثل قماش جلبابه الذي تمزق من ناحية ، وقد أنكر المتهم ان القطعة
المذكورة هي من جلبابه
رابعاً — وجدت برأسه ووجهه خدوش ورضوض وكدمات ، وهذه
الاصابات هي نتيجة اشتباكه مع المهندس بروتان الذي ضربه بعصاه عدة
ضربات ، وقد رد المتهم على ذلك بأن هذه الآثار لم تصبه الا من ضرب
الجند الذين قبضوا عليه
خامساً — تعرف عليه بعض الجند وقرروا انه رؤي في صبيحة ذلك
اليوم في الجيزة حيث كان القائد العام ، ولوحظ انه يتبعه أينما سار ، فقرر
المتهم انه ذهب حقيقة الى الجيزة ليبحث له عن عمل وانه ما تتبع القائد العام ،
بل كان يود أن يراه فقط
وأنكر المتهم انه يعرف الوزير الاعظم (العثماني) أو أحداً من زعماء
الترك أو المماليك في الشام ومصر
فقرر المجلس عندئذ احالته الى العذاب (طبقاً لعرف البلد) ، فشد
وثاقه ، وما زال يجلد حتى التمس الصفح ، ووعد بقول الحقيقة

[illegible] بعض الحدائق ، واستجوب ثانية فقرر انه قدم الى [illegible]
[illegible] غزة منذ واحد وثلاثين يوماً ، ولم يكن قدومه مع احدى القوافل بل
على هجين استحضره خصيصاً لذلك ، فقطع المسافة بين غزة والقاهرة في
ستة ايام ، وانه جاء الى القاهرة ليقتل القائد العام وقد حرضه على ارتكاب



سليمان الحلبي

تلك الفعلة أغوات الينكجرية ، لأن زعماء الجيش العثماني مذ عادوا
مهزومين الى الشام ارسلوا الى حلب للبحث عن شخص يستطيع قتل القائد
امام الجيوش الفرنسية ، ووعدوا من يتقدم لتنفيذ تلك المهمة بمال كثير ،
ومنصب كبير . فتقدم هو لقصائها طمعاً في المال والمنصب

[illegible]

[illegible] الصباح بجانب التل في [illegible] بالمدينة كما تقدم

(المحضر الاول في ٢٥ [illegible])

[illegible] سليمان برتوبش سكرتير القائد العام

[illegible] بالقبض على [illegible]

فلم تمض ساعة حتى قبض على ثلاثة منهم وأحضروا في الحال الى المجلس ، [illegible] باستجوابهم في الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم الذي وقعت [illegible] الجريمة

وتتلخص اقوالهم فيما يأتي :

(١) الشيخ عبد الله الغزي : شاب في نحو الثلاثين من عمره ، مولود في غزة ، وساكن بالجامع الأزهر ، وصناعته قراءة القرآن ، أنكر أولاً معرفته لسليمان الحلبي ، وافضاء سليمان اليه بنيته في قتل القائد العام ، ولكنه اضطر ازاء اعتراف زميله الشيخ محمد الغزي ومواجهتهما أن يقر بأنه يعرف سليمان وانه رآه لآخر مرة قبل وقوع الجريمة بثلاثة ايام ، غير انه أصر على انكاره ان سليمان لم يكاشفه بنيته

(٢) الشيخ محمد الغزي : شاب في الخامسة والعشرين ، مولود في غزة ، وسكنه بالجامع الازهر ، وصناعته قراءة القرآن ، قرر أولا انه يعرف سليمان منذ ثلاثة أعوام لأنه كان بمصر ثم غادرها الى مكة فلم يسمع عنه بعد ذلك ؛ ثم عاد فقرر انه رآه منذ يومين وتحادث معه ، وانه (أي سليمان) قال له :

أنه سيرتحل رحلة قد لا يعود منها ولم يصرح له مطلقاً بنيته إلى [illegible]
القائد العام

(٣) السيد احمد الوالي ، قارىء بالجامع الازهر في متوسط العمر ، ومولود في غزة قرر أنه يعرف سليمان ، وان سليمان هذا يذهب للقراءة في منزل أحد الافندية ، وانه رآه منذ عشرين يوماً ولم يره بعد ذلك ، وانه أفضى اليه بأنه سيقدم على عمل جنوني لم يبينه له الا بأنه يقصد أن يغازي في سبيل الله ، بقتل أحد النصارى ، وانه شرح له فساد رأيه وحاول أن ينهيه عن اتمام قصده فلم يفلح (محضر ٢٥ برريال سنة ٨ الساعة الثامنة مساء)

(٤) وأما السيد عبد القادر الغزي الذي لم يقبض عليه بادىء بدء لاختفائه فقبض عليه بعد ذلك ، وتبين من استجوابه انه قارىء بالجامع الازهر ومولده غزة ، وقد انكر أولاً معرفته لسليمان ، غير انه عاد فاعترف بها وبأن سليمان أخبره بعزمه على المغازاة في سبيل الله

وقد أدى استجواب المشايخ الاربعة الى القبض على شخص آخر هو مصطفى افندي البورصلي الذي قال عنه السيد احمد الوالي ان سليمان يذهب للقراءة في منزله ، وقدم للاستجواب فقرر ما يأتي :

أنه يسمى مصطفى افندي البورصلي ومولده في بورصه من أعمال الاناضول وعمره واحد وثمانون سنة وصناعته معلم وسكنه مدينة القاهرة ، قرر ان سليمان تلميذه منذ ثلاثة أعوام ، وانه قدم الى القاهرة منذ نحو عشرين يوماً وزاره في منزله للسلام عليه ، فأضافه ليلة واحدة لفقره ولسابق علاقته به ، وان سليمان اخبره انه حضر ليتقن علم القرآن ، ولم يخبره عن سبب آخر لحضوره ، ولم يفض اليه مطلقاً بشيء يتعلق بنيته في ارتكاب الجريمة ، وانه لا يخرج كثيراً من منزله لكبر سنه وضعفه

وسئل هل يحض القرآن على الغزو في سبيل الله وقتل الكفار ، وهل علم سليمان شيئاً من هذا ، فأجاب أن القرآن يحث على الغزو ، ولكنه يفرض قتل القاتل ، وان المسلمين والفرنسيين سواء في الشرف ، وانه لم يعلم سليمان شيئاً من هذا بل علمه الكتابة فقط

وقد دوّن وجه الاستاذ [illegible] أقواله (محضر ٢٦ بريريال سنة ٨)

— ٣ —

ولما انتهى التحقيق الابتدائي أصدر القائد العام جنرال منو في اليوم التالي (٢٦ بريريال) قراراً بانشاء محكمة لمحاكمة المتهمين مؤلفة من تسعة أعضاء برئاسة الجنرال رينيه وهم رينييه، وفريان، وروبين، من القواد، ومورانژ، ورجنيه، ولروى، وبرتران، وسارتلون، ولير من كبار الضباط ورؤساء الاقلام، على ان يقوم لير بوظيفة المدعي العمومي، وسارتلون بوظيفة مقرر المحكمة، وفوض هذه المحكمة أن تتخذ كل الاجراءات التي ترى اتخاذها من قبض وتفتيش وتحقيق للوصول الى اظهار الحقيقة والقبض على جميع الجناة وأن تقضي على هؤلاء الجناة بالعقاب المناسب للجرم، وأن تبدأ بعقد جلساتها في الحال

فبدأت المحكمة بسماع شهود الاثبات وهم: (١) يوسف برين العسكري الخيال الوطني من حراس منزل القائد العام قرر أنه هو ورفيقه المدعو روبر قبضا على «المسلم» سليمان، وانهما وجداه مختفياً في الحديقة المجاورة لمنزل القائد العام، بين الجدران المتهدمة، وانهما شاهدا بقعاً من الدم فوق الجدران، فقبضا على المتهم وضرباه بالسيف صفحاً لانه حاول المقاومة والفرار، وانه عثر حين عودته بالقرب من ذلك المكان بخنجر ملوث بالدم ملقى على الارض فالتقطه وسلمه الى مركز القيادة العامة (٢) الوطني روبر العسكري الخيال، قرر أنه انطلق مع زميله برين للبحث عن القاتل، فقبضا على سليمان بالحالة التي وصفها زميله، وأن زميله عثر بعد ذلك بخنجر ملوث بالدم وسلمه الى مركز القيادة العامة (٣) الوطني كونستان بروتان المهندس وعضو البعثة العلمية الذي انتقل المقرر سارتلون اليه ليسمع شهادته لانه كان طريح الفراش بسبب جروحه، قرر أنه كان يتمشى مع القائد العام في الممشى الكبير للحديقة المشرفة على بركة الازبكية، فرأى رجلاً

يرتدي الثياب العثمانية يقترب من القائد العام وكان قد سبقه بمسافة قصيرة ، وان هذا الرجل انقض على القائد العام وطعنه بخنجره عدة طعنات ، فهرول اليه حين سمع صياحه ، فانقض عليه القاتل وطعنه أيضاً عدة طعنات ألقته صريعاً ، وافقدته الرشد ، وانه رأى سليمان بعد القبض عليه فتأكد انه هو الذي طعن القائد العام وطعنه (٤) الوطني فورتونيه ضابط في فرقة الفرسان ، ومن معية القائد العام ، قرر انه كان بصحبة القائد العام حينما قدم ليرى منزله الجديد بحي الازبكية ، وانه لمح شخصاً رث الثياب ذا عمامة خضراء يتتبع القائد العام أينما سار ، فاعتقد هو وزملاؤه ان ذلك الشخص من الفعلة الذين يشتغلون في عمارة منزل القائد العام فلم يتعرضوا له ، فلما دخل القائد العام الى حديقته لينفذ منها الى منزل الجنرال داماس ، رأى ذلك الشخص ثانية يندس الى حشم القائد العام فنهره وطرده ، ثم رآه بعد وقوع الجريمة فتأكد أنه هو بعينه الذي طرده من قبل

ثم أعادت المحكمة استجواب سليمان الحلبي ، فاعترف بجريمته ثانية ، وأفاض هذه المرة في تفاصيل الحوادث التي أدت به الى ارتكابها ، واليك ملخص قصته :

ان الصدر الاعظم لما هزم جيشه في مصر ، عاد بفلوله الى الشام في شهر ذي القعدة (سنة ١٢١٤ هـ) الموافق لشهر جرمينال سنة ٨ ، وكان سليمان حينئذ في القدس عائداً من الحج ، فلما عاد الى موطنه مدينة حلب ، خاطبه اثنان من أغوات الصدر الاعظم هما احمد آغا وياسين آغا في أمر قتل القائد العام الفرنسي ، واختاراه لتنفيذ تلك المهمة لانه زار مصر من قبل ومكث بها بضعة أعوام ويعرفها جيداً . وكان والي حلب ابراهيم باشا يضطهد محمد الحلبي والد سليمان ، ويرهقه بالغرامات والمكوس فاستجار سليمان منه الى احمد آغا المذكور فوعده خيراً ، وتعهد له بحماية أبيه ورفع الظلامات عنه ، وأوصاه بكتمان السر ، والحذر في تنفيذ مهمته . ولما عاد احمد آغا الى القدس زاره سليمان هنالك فكرر مخاطبته في تلك المهمة وتحذيره ونصحه من أجلها ، ثم ارسله الى ياسين آغا في غزة فنقده مالاً يستعين به على السفر وعلى تنفيذ

مشروعه ، ثم غادر غزة مع قافلة من التجار كانت قادمة الى مصر وقطع سيناء على هجين ، ولما وصل الى مصر نزل في جهة تسمى البيطة في ناحية الالفية واكترى حماراً من أحد الفلاحين وركبه حتى مدينة القاهرة ، ثم نزل في الجامع الازهر واجتمع بالمشايخ الاربعة ، ولم يكتم عنهم نيته في اغتيال القائد العام ، بل كان يحدثهم بها كل يوم ، وقد حاولوا أن يثنوه عن اتمام قصده فلم ينثن

وأن أحداً في مصر لم يفاوضه في هذا الامر ولم يعطه مالاً من أجله وأنه كان يذهب الى منزل مصطفى افندي البورصلي ليقرأ عليه كل خميس واثنين ولكنه لم يخبره بتاتاً بمشروعه .

واعترف سليمان أيضاً بأن الخنجر الملوث بالدم الذي ضبط في مكان الحادث خنجره وأنه اشتراه من سوق غزة ليرتكب به جريمته (الاستجواب الثاني لسليمان — محضر ٢٦ بريريال سنة ٨)

ثم ووجه بالمشايخ الاربعة فأصر على أنه حدثهم بمشروعه مراراً ، واعترف هؤلاء ثانية بمعرفته ، وبأنه حادثهم في شأن الغزو في سبيل الله بقتل القائد العام ، وأنهم اعتبروه مجنوناً ، وحاولوا منعه عن اتمام قصده فلم يفلحوا

ووجه سليمان بمعلمه القديم مصطفى افندي البورصلي كما تقدم فأصر على أقواله (المحضر السابق)

— ٤ —

وقد استغرق تحقيق القضية يوماً واحداً هو يوم السبت ٢٥ بريريال . أي اليوم الذي وقعت فيه الجريمة ، واستغرق استجواب المتهمين امام المحكمة يوماً آخر هو اليوم التالي ٢٦ بريريال . وفي ختام هذه الجلسة التي لبثت طول اليوم طلبت المحكمة الى المتهمين أن يختاروا محامياً للدفاع عنهم . فاجابوا أنهم لا يعرفون أحداً يعهدون اليه بتلك المهمة ، فعهدت المحكمة بذلك الى المترجم لوماكا

وفي يوم الاثنين ٢٧ بريريال سنة ٨ — ١٦ يونيه سنة ١٨٠٠ — عادت المحكمة الى الانعقاد — وكانت المحاكمة علنية يشهدها جمهور من المصريين — وبدأ المقرر سارتلون مرافعته التي نثبتها بنصها لانها قطعة من الفصاحة القضائية ، ولانها بالاخص تشرح بديع لظروف الجريمة وتفاصيلها

مرافعة المقرر سارتلون

ايها الوطنيون !

ان الحزن العام ، والألم المبرح اللذين يحيطان بنا يعربان بافصح بيان عن فداحة الخطب الذي نزل بجيشنا . لقد انتزع خنجر القاتل الذي تمت خيانته ونم تعصبه عن دافع التحريض والشراء قائدنا من بيننا فجأة وهو في إبان ظفره وفخاره . واذ قد عهد الي بأن استنزل على ذلك القاتل الأثيم وشركائه نقمة الشرائع فليسمح لي لحظة أن أضم دموعي وحسراتي الى تلك الدموع والحسرات التي أثارها ذهاب فريسته . فان قلبي يشعر بأشد الحاجة الى أن يقدم اليها ذلك النذر الواجب لها ، ولأن ذلك يسهل مهمتي ، فاستطيع أن أطرق دون كبير اشمئزاز تفاصيل ذلك الحادث المروع

لقد قرأت عليكم أقوال المتهمين في التحقيق وغيرها من وثائق المحاكمة . وما نهضت الأدلة قط بأكثر من نهوضها على ذلك الجرم الذي عهد اليكم بالحكم على مرتكبيه الأوغاد ، فأن أقوال الشهود ، واعتراف القاتل وشركائه ، كلها قد اتحدت لترسل ضوءاً مرعباً على ذلك الاغتيال الشنيع

سأستعرض الوقائع بسرعة ، وأكبح جهد الاستطاعة ما تثيره من السخط ، فلتعلم أوربا بل ليعلم العالم كله أن الصدر الاعظم للدولة العثمانية ، وأن قوادها وجيشها بلغوا جميعاً من الخسة والنذالة أن أرسلوا وغداً سفاكاً ليقتل القائد الشجاع ، المنكود ، كليبر الذي عز عليهم قهره ، فأضافوا بذلك الى هزيمتهم جرمهم الشنيع، ولوثوا به أنفسهم أمام العالم بأسره

تذكرون سيل الترك الجارف الذي دفع به الوزير من الاستانة ومن

أعماق آسيا الى مصر لينتزعها ، ويذكرون ما زعموه من ظفرهم بارغامنا على أن نخليها بمقتضى معاهدة منهم حلفاؤهم (الانجليز) من تنفيذها

فان فلول هذا السيل المتوحش ما كادت بعد سحقها في ميادين المطرية وهليوبوليس تعود مخذولة الى القفار حتى تجاذبتها صيحات اليأس والنقمة من كل ناحية ، وحتى أغرق الوزير مصر بفيض من التحريض على قتل الفرنسيين قاهريه

كانوا يريدون اذاً أن يصبوا جام نقمتهم على قائدنا العام

وفي الوقت الذي يشعر فيه شعب مصر الذي أضلته سعايات الوزير ، برفق الفاتح وكرمه ، وفي الوقت الذي نحسن فيه معاملة الاسرى من الاعداء ونداوي جرحاهم في دورنا ، — في هـذا الوقت ينفذ الوزير مشروعه الفظيع

وقد استعان الوزير على تنفيذ مشروعه بآغا وغد ، وهبه ثمناً للجريمة التي اقترحها عليه عودته الى حظوته ، وانقاذ رأسه الذي كان قد حكم بقطعه من قبل

كان أحمد آغا سجيناً في غزة منذ سقوط العريش ، فنقل الى بيت المقدس بعد هزيمة الوزير ، وسجن في منزل واليها ، ولبث في سجنه يشتغل بتدبير ذلك المشروع الدنيء

سليمان الحلبي شاب في الرابعة والعشرين لا ريب في أن نفسه قد تلوثت بالجريمة من قبل ، تقدم الى الآغا يوم وصوله الى بيت المقدس ، والتمس منه الحماية ، وأن ينقذ والده التاجر بحلب من عسف واليها ابراهيم باشا ، ثم عاد اليه في اليوم التالي . وقد أسفر التحقيق في شأن هذا الفتى المتعصب عن أنه كان يدرس ليكون فقيهاً في مسجد ، وأنه حج الى بيت المقدس ، وحج قبل ذلك الى مكة والمدينة ، وأن حمى الحماسة الدينية قد عصفت به أيما عصف بتلك الرأس التي أضلتها النظريات الخاطئة عن كمال الاسلام حتى غدا يعتقد أن ما يسميه للغازاة وقتل الكفار هو خير الحسنات وأسماها

ثم يتردد أحمد آغا حينئذ في أن يخاطبه بشأن المهمة التي يريد أن يعهد بها اليه ، فوعده بالحماية والمكافأة ، وأرسله الى ياسين آغا والي غزة ، ثم ارسله اليه مرة أخرى ليتزود بالتعليمات الاخيرة والمال اللازم .

واندفع سليمان الذي فاضت مخيلته بجريمته الى الطريق على الأثر ، وأقام عشرين يوماً بقرية الخليل من اعمال فلسطين ينتظر ورود القافلة ليجتاز معها الصحراء ، فلما عيل صبره عاد الى غزة في اوائل شهر فلوريال الماضي ، فآواه ياسين آغا الى احد المساجد ليذكي ضرام تعصبه ، وأخذ يتردد عليه خفية بالليل وبالنهار اثناء الايام العشرة التي قضاها هنالك ، ثم زوده بالتعليمات ، ونقده أربعين قرشاً تركياً ، وأركبه على هجين برفقة قافلة وصلت الى مصر في ستة ايام

فوصل مسلحاً بخنجره في اواسط شهر فلوريال الى مدينة القاهرة التي قضى فيها ثلاثة أعوام من قبل ، وأقام بالازهر طبقاً للتعليمات ، وأخذ يتأهب لتنفيذ الجريمة التي أرسل من أجل ارتكابها ، بالدعاء الى الله ، وبصلوات مكتوبة كان يلصقها على جدران المسجد .

وقد استقبله بالازهر أربعة فقهاء من مواطنيه ، فافضى اليهم بمهمته ، وأخذ يحدثهم عنها في كل وقت ، ولم يرده عنها ما أوضحوه له من الصعاب والمخاطر المقترنة بتنفيذها

علم محمد الغزي ، والسيد احمد الوالي ، وعبد الله الغزي ، وعبد القادر الغزي بسر هذا المشروع ، ولم يفعلوا شيئاً لمنع تنفيذه ، فاصبحوا شركاء في ارتكابه بصمتهم المستمر المقصود

وقد لبث القاتل يتربص لفريسته في القاهرة واحداً وثلاثين يوماً ، ثم اعتزم اخيراً أن يذهب الى الجيزة ، وأفضى يوم ذهابه اليها بعزمه الى محمد الغزي أحد المتهمين

والظاهر أنه وفق من كل وجه ، فان الجنرال غادر الجيزة غداة قدومه عائداً الى القاهرة ، فتبعه سليمان طول الطريق حتى أرغم رجال المعية على طرده مراراً ، غير أنه لم ينقطع عن مطاردة فريسته حتى استطاع اخيراً

في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر أن يدنو الى حديقة القائد ، ثم اعترضه ليقبل يده ، وأشفق الجنرال على هيئة بؤسه فلم يأبه عن دنوه ، فانتهز القاتل فرصة عزلته وطعنه بخنجره اربع طعنات ، وعبثاً حاول الوطني بروتان المهندس وعضو المعهد العلمي أن يبادر الى انقاذه ، فقد ذهب اقدامه سدى وأصيب هو من يد القاتل بستة جروح أفقدته صوابه

وهكذا سقط ذلك الذي خاض غمار حياة حربية ملؤها المخاطر والمجد ، ذلك الذي كانت تهابه أقدار الحرب ، والذي كان اول من جاز الرين على راس جيوش الجمهورية والذي انتزع مصر مرة ثانية من سيل العثمانيين الجارف ـ سقط صريعاً وبلا دفاع أمام طعنات القاتل

وماذا عسى استطيع أن أضيفه الى الألم المبرح الذي أثاره فقده في نفوسنا ! ان دموع الجند الذين كان لهم أباً شفيقاً ، وأسف القواد الذين كانوا صحب أعماله وفخاره ، وحزن الجيش وذهوله وحدها خليقة بأن ترثيه

لم يستطع القاتل سليمان أن يفلت من بحث الجند النافين ، فقبض عليه ملوثاً بالدم وهو في روع ووحشة ، وضبط خنجره ، فاضطر الى الاعتراف بجريمته ، وذكر أسماء شركائه ، بل يلوح لي انه يغبط نفسه على الجرم الشنيع الذي ارتكبه لانه أثناء التحقيق وأثناء العذاب كان يبدي جلداً هائلا هو في الغالب شطر من ضرام التعصب

وقد اعترف الشركاء أيضاً بعلمهم بمشروع الجريمة التي تمت بصمتهم

ومن العبث أن يزعموا انهم اعتقدوا ان سليمان لا يستطيع مطلقاً أن ينفذ عزمه ، وانهم لو اعتقدوا لحظة في صدق نيته ما تأخروا عن كشفها . ان الوقائع تكذبهم ، فقد استقبلوا القاتل ، ورحبوا به ، ولم يردوه عن قصده الا لخوفهم على أنفسهم ، فهم شركاؤه ، ولا عذر لهم

ولست أتكلم عن مصطفى افنـدي ، فانه ليس من ثمة دليل على ذلك الشيخ يسمح باعتباره شريكا

أما نوع العقوبة التي يقضي بها على المتهمين فأتركه لرأيكم ، غير اني أعتقد انه يجب عليكم أن لا تقضوا بعقوبة لا يسوغها عرف البلاد وان كانت فداحة

الجرم تستدعي أن يكون العقاب هائلا . ولا بأس من الاعدام بالخازوق ، ولكن لتحرق يد ذلك الاثم قبل كل شيء ، ثم ليزهق بعد ذلك فوق خازوقه ، ولتترك جثته حتى تلتهمها الجوارح

أما الشركاء فمهما يكن من فداحة ذنبهم ، فيلوح لي أنه يجب أن يكون عقابهم اخف من عقاب القاتل ، ويكفي أن يحكم عليهم بالموت البسيط طبقاً لما هو متبع في مصر ، وهذا هو ما اقترحه عليكم

فليسمع الوزير ، وليسمع العثمانيون البرابرة في رعب وروع خبر القصاص الذي أنزل بذلك الوحش الذي اجترأ أن ينفذ مشروع انتقامهم . حقاً أن جرمهم يحرم جيشنا من رئيس يبقى فقده دائماً موضع دموعنا وحسراتنا ، ولكن لييأسوا اطلاقاً من دحض شجاعتنا ، فان خلفه الشجاع البطل سيعرف كيف يقودنا الى النصر . وان الانذال لم يخجلوا من أن ينتقموا لهزيمتهم بجريمة لم يشهدها التاريخ ، على أنهم لن يجنوا من ذلك التوحش سوى الخزي واحتقار العالم بأسره

واني ألخص طلباتي طبقاً لما تقدم فيما يأتي (١) الحكم بادانة المدعو سليمان الحلبي في مقتل القائد العام الجنرال كليبر ، وبأن تحرق يده اليمنى ، ثم يعدم على الخازوق ، وتترك جثته حتى تلتهمها الجوارح (٢) وان يقضي على كل من محمد الغزي ، والسيد احمد الوالي ، وعبدالله الغزي وعبدالقادر الغزي بقطع الرأس (٣) وان ينفذ هذا الحكم عقب تشييع جنازة القائد بحضور رجال الجيش وأهل البلاد (٤) وان يقضي ببراءة مصطفى افندي وأن يخلى سبيله (٥) وان تطبع أوراق القضية بالعربية والتركية والفرنسية ثم تعلق على الجدران في أنحاء البلاد المصرية

القاهرة في ٢٧ بريريال سنة ٨ للجمهورية الفرنسية

الامضاء : سارتلون

وبعد أن تمت مرافعة المقرر ، وقرئت أوراق التحقيق ثانية ، أحضر المتهمون الى قاعة الجلسة دون أغلال وسألهم رئيس المحكمة الجنرال رينييه بحضور وكيلهم المترجم لوماكا عدة أسئلة أخيرة فلم يغيروا شيئاً من أجوبتهم

السابقة ، ثم سألهم ان كان لديهم ما يبرئون به أنفسهم فلم يجيبوا بشيء ، فعندئذ أمر الرئيس باخلاء الجلسة من الحضور ، واختلت المحكمة للمداولة ، ثم عادت الى الانعقاد ، واصدرت حكمها بادانة كل من سليمان الحلبي ومحمد الغزي وعبد الله الغزي وعبد القادر الغزي والسيد احمد الوالي ، وبراءة مصطفى افندي البورصلي واطلاق سراحه ، وقضت على المحكوم عليهم بالعقوبات الآتية :

(١) أن تحرق لسليمان الحلبي يده اليمنى ثم يعدم فوق الخازوق ، وتترك جثته فوقه حتى تفترسها الجوارح ، وأن يكون ذلك خارج البلد فوق التل المعروف بتل العقارب ، وأن يقع التنفيذ علناً عقب تشييع جنازة القائد العام

(٢) أن يعدم عبد القادر الغزي على الخازوق ايضاً وان تصادر أمواله من عقار ومنقول لحساب الجمهورية الفرنسية

(٣) أن يعدم كل من محمد الغزي وعبد الله الغزي واحمد الوالي بقطع الرأس ، ثم توضع رؤوسهم فوق الرماح ، وتحرق جثثهم بالنار وان يكون ذلك فوق تل العقارب ايضاً وأمام سليمان الحلبي قبل أن ينفذ فيه الحكم

وقرىء الحكم على المتهمين بواسطة المترجم لوماكا وكان ذلك في اليوم الثامن والعشرين من شهر بريريال . فيكون جملة ما استغرقته هذه القضية من تحقيق ومحاكمة هو اربعة ايام فقط

* * *

وفي اليوم التالي ـ الاربعاء ٢٦ محرم سنة ١٢١٥ ـ تأهب الفرنسيون لدفن قائدهم القتيل فشيعوا جنازه في موكب حافل وصفه مؤرخ معاصر بما يأتي : اجتمع عساكرهم وأكابرهم ووفد عليه الاقباط والشوام وخرجوا بموكب مشهده ركباناً ومشاة ، وقد وضعوا الجثة في صندوق من الرصاص مسنم الغطاء ، مغطى بالقطيفة السوداء ، ووضعوه فوق عربة ، وعليه خوذة القتيل وسيفه ، والخنجر الذي قتل به وهو ملوث بدمه ، ورفعوا في أركان العربة الاربعة أربعة أعلام صغيرة مجللة بالسواد ، وتقدمته الموسيقى تضرب أنغاماً محزنة ، وقد غطت الطبول بالسواد ، وسار الجند يحملون البنادق ،

منكسة ، وقد وضع كل منهم على ذراعه شارة سوداء ، ولما تهيأت الجنازة للتحرك أطلقت مدافع وبنادق كثيرة ، ثم ابتدأ الموكب بالسير من حي الأزبكية الى باب الخرق (باب الخلق) فدرب الجماميز ، فالناصرية ، فلما وصلوا الى تل العقارب بالقرب من القلعة التي بنوها هنالك أطلقوا عدة مدافع أخرى ، وكانوا قد احضروا سليمان الحلبي وزملاءه . فنفذوا فيهم الحكم بحضور الجند والاهالي ، ثم استأنف الموكب سيره حتى وصل الى باب قصر العيني وهنالك واروا الصندوق في كثيب من التراب ، وأحاطوا مكانه بسياج من الخشب غطوه بالقماش الابيض وزرعوا حوله أعواد السرو ، ونصب على القبر جنديان مسلحان يتناوبان حراسته ليل نهار (١)

* * *

هذه هي قصة مقتل قائد الفرنسيس في مصر وقصة محاكمة قاتله ، وهي صفحة لا غبار عليها في تاريخ الحملة الفرنسية المصرية ، بل هي صفحة ناصعة من صحف العدالة في ذلك العصر الذي غلبت فيه الفوضى كل قانون وكل شريعة ، واستبيحت الانفس والاموال والحرمات .

قتل كليبر واعترف قاتله ، فعوقب بالموت ، وعوقب بعد محاكمة قانونية روعيت فيها الاجراءات الصحيحة ، والعلانية التامة ، وقام بالمحاكمة رجال من القادة والرؤساء المفكرين كانوا أثناء المحاكمة كلها مثال الرزانة وضبط النفس ، بل مثال النزاهة والعدالة

مثال الرزانة وضبط النفس لانهم نظروا الى القضية في ذاتها ، ولم يتخذوا من الاعتـداء على قائدهم الاعلى حجة للنكال والبطش بخصومهم وأعدائهم من المصريين والمماليك

ومثال النزاهة والعدالة لانهم كقضاة راعوا تطبيق الاجراءات والنصوص القانونية ، بل راعوا عرف البلاد ولم يستعملوا الاكراه والعنف والاغراء والخديعة لينتزعوا اعترافاً من القاتل أو شركائه . فاما انهم أحالوا القاتل وبعض شركائه الى التعذيب عند الانكار ، فذلك لان التعذيب

---

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٤٠

[illegible] بعض وجدان الشرق في هذا العصر، بل إن التعذيب بأروع أشكاله كان قبل ذلك بضعة قرون جزءا من الشريعة الفرنسية، ولم تلغ نصوصه إلا إبان الثورة الفرنسية.

وأما أنهم قضوا بالإعدام على المشايخ الأزهرية كشركاء القاتل فالظاهر أنهم طبقوا في ذلك قانونا فرنسيا قديما صدر في عهد لويس الحادي عشر، ينص على اعتبار من يمتنع عن التبليغ عن مؤامرة تدبر ضد سلامة الدولة أو ضد الأمراء والحكام شريكا للفاعل الأصلي، وينص على عقابه بنفس العقوبة؛ وقد اعترف المشايخ بعلمهم بالجريمة قبل وقوعها.

وإذا لاحظنا في النهاية أن هذا الاعتداء الفادح قد وقع على أكبر رأس في الجيش الفرنسي في مصر، وأنه وقع في وقت تحرج فيه مركز الفرنسيين، واشتد الجفاء بينهم وبين المصريين، وأن فقد الجيش لقائده الأعلى في ذلك الظرف الدقيق كان داعية لتسرب الوهن والاختلال إلى صفوفه، استطعنا أن نقدر اعتدال أولئك الجند القضاة، ورأفتهم وعدالتهم حق قدرها.

مقتل بول لوي كوريه

سنة ١٨٢٥

— ١ —

مضى قرن كامل على مقتل الكاتب الفرنسي الكبير كوريه دي ميريه ، ونقرأ ونحن نكتب هذه السطور أن الفرنسيين يحتفلون بذكراه المئوية ، وأن الأندية العلمية الفرنسية تفيض بتلك المناسبة في ذكر مواهبه ومناقبه ، وقد اعتزمنا نحن بتلك المناسبة أيضاً أن نقص على القارىء سيرة مقتل هذا المفكر الكبير .

بول لوي كوريه احدى هذه الطبائع الغربية التي تتفجر مواهبها الى نواح عدة ، وتنم نزعاتها عن شذوذ وخروج ، وتحتقر كل ما هو طبيعي ومألوف ، فقد كان قناناً ، وساخراً وباحثاً متعمقاً ، مولعاً بدرس الآداب القديمة ، غير أنه كان في نفس الوقت يؤثر الانزواء والعزلة ومقاطعة الحياة العامة ، بل كان يبغض الرجال ويحتقرهم ، ولا سيما العظماء منهم ، وينطوي سني حياته ناقماً منهم ساخطاً عليهم ، ونفسه فياضة بالأثرة ، والأهواء الوحشية ، وحب الاستقلال الكامن في كل أمر من أمور الحياة ، فلم يكن يعرفه العالم الخارجي الا من لغته القاسية ، وقلمه الصارم الوثاب ، وتهكمه القارص المؤلم

كان كوريه قوة يخشى بأسها ، وكانت رسائله العديدة التي ينشرها في صحف ذلك العصر مثل الصاصير والكوريه فرانسيه والكنستتيوسنل تثير البلاط والارستوقراطية ، وتطرب الناقمين والساخطين

وفي سنة ١٨١٤ هام كوريه وهو في الثانية والاربعين بحب ابنة صديقه كلافيه عضو معهد النقوش والآداب ، وتم زواجه منها في صيف هذا العام ، وادركت زوجه الفتاة لأول وهلة ما انطوت عليه طبيعته من الأثرة والجفاء ، فحاولت أن تلطف من صرامة نفسه وحدة طباعه ، غير

أنه كان صلباً لا تلين قناته ، وقد كتب اليها يوماً بتلك المناسبة : « تحثينني على ضرورة ارضاء الناس الذين أراهم والاتفاق في ذلك السبيل ، وتعظينني بجد وخطورة وبأرق ما يستطاع كأنما الأمر لا يتوقف الا علي . انك لا تكلمين الا في ظرف ورقة . ولكنني أجيبك ، يجب أن لا نعصب مواهبنا ، لقد قالها لافونتين ، واذا كان الله قد خلقني جافاً فيجب أن أحيا وأموت على هذا الجفاء . . . »

والواقع أن كوريه كان جافاً ، صارم الطبع ، بل كان متوحشاً يرسل صواعق سخطه هنا وهنالك على كل من يعتقد فيه الخصومة ، وكان جم الخشونة في كل علاقة له أو مخاطبة ، سواء أكانت مع الحكومة أو الاسرة الملكية أو القضاء أو المعهد العلمي ، أو أية سلطة من السلطات ، بل مع أهل قريته وجيرانه ، وبالجملة مع كل من يعامله في شأن من شئون حياته

وكان كوريه يعيش في ضيعته في مقاطعة فيرز منذ سنة ١٨١٦ كما تعيش الضواري

والظاهر أنه شعر بعد بضعة أعوام من تلك الحياة الجافة الحافلة بصنوف الاعتداء والشر بما تحمله اليه من البغضاء والمخاطر ، فأورد في كتاب نشره سنة ١٨٢٣ تلك الفقرة التي تكاد تكون نبوءة صادقة : « في هذا الصباح حينما كنت أريض في البالية روبال مر بي م . . . وقال لي حذار يا بول لوي . حذار ! سوف يدبر القادرون قتلك — فقلت وأي حذر تريد أن آخذ ؟ ألم يدبروا قتل ملوك عدة ... ثم ألم يفلت منهم من احكموا تدبير اغتياله ؟ ... »

* * *

بعد ذلك بعامين — في ليلة ١١ ابريل سنة ١٨٢٥ — وجد بول لوي كوريه مقتولا في غابات لارسي بين حقلين يقال لها « البلوطة المشنوقة » و « خندق لالاند » بالقرب من ممر يفضي الى ضفة حفار تستغل . وكان بالجثة جرح كبير نشأ عن طلقة بندقية ، وقد اتبعت المقذوفات في الجسم سيراً مدهشاً ، فقد سارت من الاسفل الى الأعلى متجهة من العجز الأيمن نحو الكتف الأيسر

وقد أثار مقتل الكاتب الكبير ضجة شديدة ، وضربت [illegible] باريس في ١٢ أبريل سنة ١٨٢٥ قبض بالشكوك نحو الملك شارل العاشر ووزرائه ونحو زعيم من زعماء اليسوعيين في تور كانت بينه وبين الكاتب القتيل ضغائن ومناوشات حادة .

غير أن القضاء الفطن لم يعبأ بهذه الأقاويل ، فسار في اجراءاته بحزم وذكاء ، وما لبث التحقيق أن اسفر عن حقائق مدهشة برهنت على أن مقتل الكاتب لم يك الا نتيجة لمأساة عائلية ، وانتقام قروي .

— ٢ —

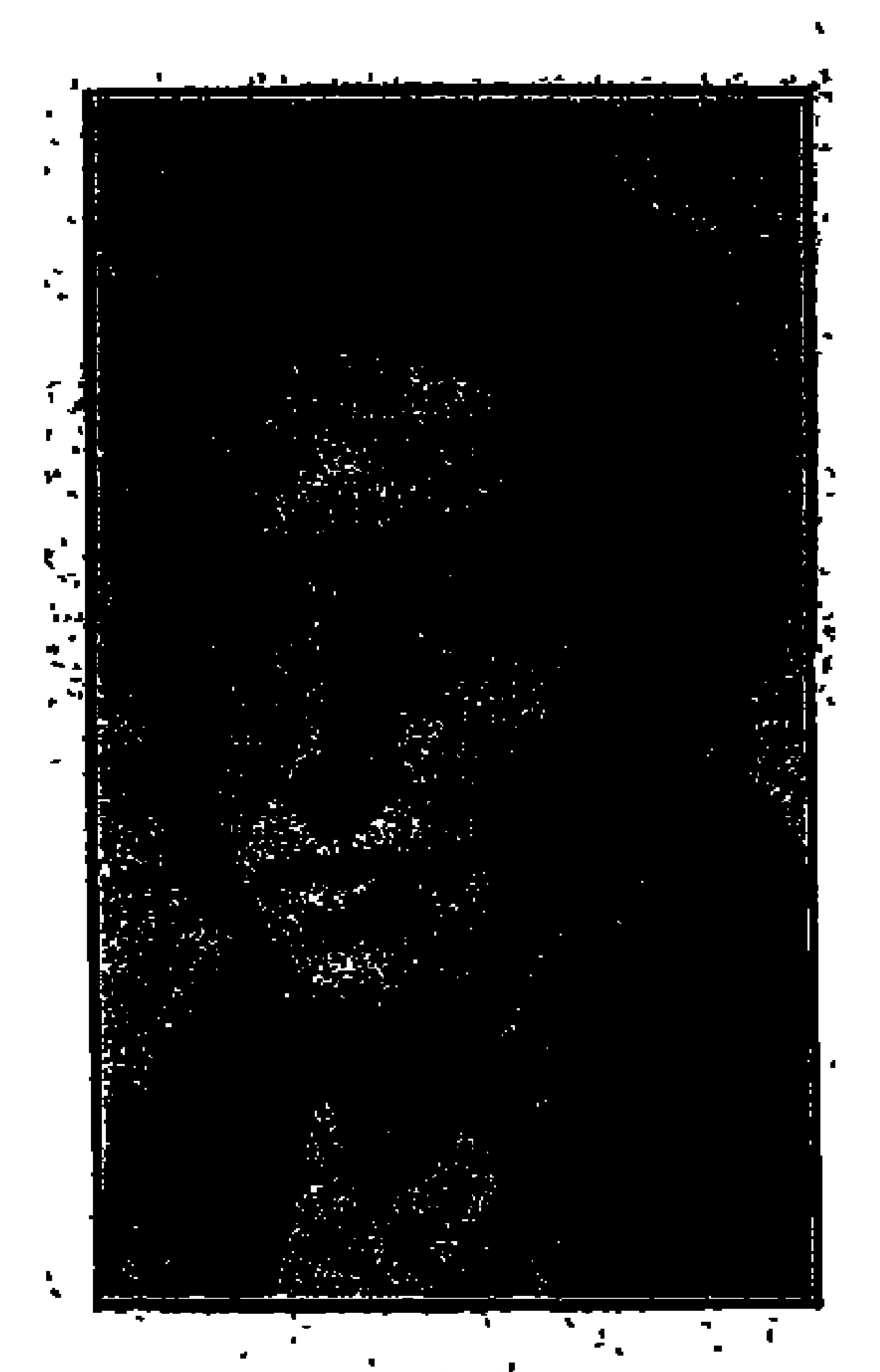
واليك البيان :

كان قران بول لوي كورييه وارميني كلافيه في الواقع تعساً لم يطل وئامه وسلامه ، لأنه خلق الزوج المستقل ، وشغفه بالعزلة ، وايثاره الانزواء حالت دون احتماله نظام حياته الجديدة ، بل مما يؤثر عنه أنه كتب في احدى رسائله في سنة ١٨٠٩ ان الزوج لا يعبأ بجمال زوجه بعد أسبوعين من زواجه ، وعلى ذلك فانه ما كاد يقترن بزوجه الفتية الحسناء حتى غادرها فريدة في باريس ، وسافر الى تورين ليعنى بمصالحه وشئونه ، ثم عاد بعد مدة ، ومكث الى جانبها قليلا ، ثم سافر ، ولبث على ذلك النحو ينفق سواد أوقاته بعيداً عنها حتى سنة ١٨١٨

وكان الكاتب يرغب رغبة شديدة في الابتعاد عن باريس وضجيجها ، ومجتمعاتها التي يمقتها أشد المقت ، فعقد عزمه على مغادرتها نهائياً وسافر ليقيم مع زوجه في ضيعته الكبيرة المسماة « شافونيير » في مقاطعة فيرتز .

وكان لذلك النفي أثر سيء في نفس الزوجة الفتاة ، رغم ما كان يحوطها هنالك من مظاهر الفخامة والسيادة ، فقد كانت باريزية رشيقة ، وكان عليها أن تنزل عن عاداتها الانيقة لتعيش في عزلة قرية نائية ، ولتحيا حياة جديدة ملؤها الكآبة والضجر برفقة صاحب ليس في عشرته وخلاله ما يلطف وحشة هذه الحياة ، أو يخفف وقع مظاهرها المكدرة

بل لقد كشف كوربيه في ذلك المقام الموحش عن أسوأ ما تكنه طبيعته الجافة من الفظاظة والغرابة، فقد كتب الى زوجه في بدء مقدمها ما يأتي : « متى نوينا الى غابتنا على ضفاف الشير، فيجب أن تستقر هناك ولا تصادق أو تصاحب أحداً كما كنا نعمل في باريس، وأنت تعرفين أسلوبي في ذلك »



بول لوي كوربيه

وأسلوب كوربيه هو المقاطعة الصارمة كما قدمنا، فما كاد يستقر في مقامه الجديد بضعة أشهر حتى أغضب بفظاظته وسوء معاملته كل سكان هذه الناحية، فقد كان جم النطرسة، شديد الجفاء، كثير الشجار والمشاحنة، شديد البخل الى حد أن كان يقسو في مطاردة الفقراء الذين يحتطبون الأخشاب المهملة من حقله أو يلتقطون الاوراق الساقطة من غاباته. وقد وصفته ادارة شرطة هذا الاقليم في تقرير وضعته عنه بما يأتي : « أسمر

اللون ، حاد الطبع ، ذا محيا متقلب جاف ، ينحني قليلا عند السير ، ورأسه مائل الى ناحية ، مختل الثياب ، قذرها ، يضع دائماً في عنقه رباطاً أسود »
وفي هذا الوصف صورة مادية ومعنوية لبول لوي كوريه

* * *

وكان الكاتب يسافر أحياناً الى باريس تاركا زوجه الفتاة لعزلتها الحزينة ، فأفضى ذلك الجفاء المؤلم والترك المستمر الى النتيجة الطبيعية ، وهي ان الزوج المهجورة أخذت تبحث فيما حولها عن السلوى ، فهامت بحب فتى عامل في الضيعة يدعى بيير دبوا وهو قروي متين البنية في عنفوان شبابه ، وكانت تصحبه بكثرة الى الحقول والاسواق والى الحانة مستندة الى ذراعه حتى شاع أمرها وتحدث كل الناس به ، فانطلقت الألسنة الحادة من كل ناحية تشهر بالزوج الخؤون

ثم اشتدت الفضيحة بعد حين حينما بدا على الزوج السافلة أنها تميل كذلك الى أخ خليلها الوضيع وهو عامل بالضيعة أيضاً يدعى سيمفوريان دبوا

ونبيء الكاتب بخيانة زوجه وتدهورها الى الدرك الاسفل ، فطرد عامله بيير دبوا من خدمته في ١٨ يوليه سنة ١٨٢١ ، أما أخوه سيمفوريان فبقي في الضيعة لأن الشبهة لم تتوجه اليه ، وقد فاه الخادم المطرود عند انصرافه بتلك العبارة : « لقد طردني من خدمته ، فلئن صادفته لأقتلنه قتلة الكلب »

وفي نهاية شهر يوليه فرت مدام كوريه من مقام زوجها ، فأثار فرارها فضيحة كبرى وانطلق الكاتب في أثر زوجه فوجدها بعد بضعة أيام في منزل جنان في تور وهو صديق لبيير دبوا ، فعفا عن سلوكها واقتادها معه الى باريس حسماً لذلك العار المؤلم

ثم سرت الاشاعة في فبراير سنة ١٨٢٥ أن كوريه يحاول ارغام زوجه على دخول الدير واعتناق الرهبنة ، والظاهر أن الخائنة لم تنقطع عن مكاتبة بيير دبوا وان كانت اقامتها في باريس قد حالت دون اجتماعها

وكان الكاتب أثناء ذلك يسافر أحياناً الى ضيعته ، فسافر اليها في ه

ابريل، وفي يوم السبت ٧ ابريل ألقت مدام كوريه الى مكتب بريد باريس خطاباً بعنوان بيير دبوا وهو « الى مونبارون – يحفظ بالبوستة » غير أن ذلك الخطاب لم يضبط قط رغم ما أنفقه القضاء في سبيل ذلك من العناية والتنقيب

وفي مساء ١٠ ابريل سقط الكاتب قتيلا في الغابة كما ذكرنا

* * *

قلنا ان القضاء لم يأخذ بشيء من الاشاعات والاقاويل التي أفاضت فيها الصحف عن مقتل كوريه ، وأنه نشط الى التحقيق بحزم ونزاهة

وقد ظهر من فحص المقذوف الناري الذي أدى الى الوفاة واستخرج من الجثة أنه لف بقطعة من ورق الجرائد وجد مكتوباً عليها بأحرف كبيرة هذا المقطع « ouy.0 » وظهر من فحصها ومقارنتها أنها قطعة من « الصحيفة الادبية » وهي جريدة قليلة الذيوع في تلك الناحية كان كوريه مشتركا فيها . كذلك ثبت من الفحص الطبي أن المقذوف أطلق على مقربة من القتيل

وفي ١٢ ابريل قبض على بيير دبوا وأخيه سيمفوريان ، ثم قبض على أبيهما في اليوم التالي

أما مدام كوريه فلم تحضر الا في يوم ١٨ ابريل ، وما كادت تصل الى الضيعة حتى نشطت الى الدفاع عن آل دبوا بحماسة شديدة ، ثم القت تهماً غامضة على اليسوعيين ، وخصت بالاتهام حارس الصيد المدعو فريعون ، وهو رجل شرير يقدم على كل موبقة ، وقد خرج ليلة الحادث متقلداً بندقيته ، وقيل بأنه ضرب للقتيل موعدا مريباً للمقابلة في الغابة

نشطت مدام كوريه الى اتهام هذا الحارس بشدة ، وكتبت الى النائب تتهمه بصفة رسمية ، ولبثت تقدم الى النيابة في كل يوم تقريراً بقرائن وأدلة جديدة تلقي في الواقع على الحارس شكوكا خطيرة ، منها أنه شرير ، كثير المطامع ، شديد الغيرة ، وأن زوجها كان يعتزم طرده من خدمته وأنه علم بذلك ، وقدمت أيضاً عدة شهادات على أنه هدد القتيل مراراً ،

هذا الى أن المحقق ضبط في غرفته عدة أعداد من جريدة « الصحيفة الأدبية » التي وجد المقذوف ملفوفاً بقطعة منها

وكان من أثر ذلك أن قبض على فرعون حارس الصيد في ٢٢ ابريل وضم الى باقي المتهمين

***

أما آل دبوا فقد استشهد كل منهم بشهود على أنه كان ليلة الحادثة في مكان معين ، وبعد أن استمر التحقيق والمواجهات والتحريات نحو خمسة أسابيع تقرر حفظ التهمة بالنسبة لهم وأفرج عنهم لعدم كفاية الأدلة في ٢٧ مايو ، فبقي فرعون وحده رهن الاتهام ، وحوكم بغرفة الاتهام رغم انكاره المستمر على محكمة جنايات تور ، فظهر أمامها في ٣١ أغسطس سنة ١٨٢٥ واعترف بأنه وجد حقيقة في الغابة ليلة الجريمة على مقربة من مسرح الحادث ، غير أنه زعم أنه لم يسمع شيئاً ، لانه كان ثملا ، وقد غلبه النوم

واتهمت مدام كوريه حارس الصيد علناً في الجلسة ، فأجاب فرعون بأنها تريد الانتقام منه لانه أبلغ خيانتها وسوء سلوكها الى سيده . وقد كان سلوك مدام كوريه أثناء نظر القضية مؤيداً لاقواله ، فقد كانت تجوب طرقات المدينة متكئة على ذراع بيير دبوا بلا حياء ولا وجل ، وكان سكفوريان يهدد الشهود حتى لا يجرأ أحدهم على قول الحقيقة ، وأخيراً تضاءلت الادلة والقرائن التي قدمتها النيابة على أدانة فرعون ، فقضى ببراءته في ٣ سبتمبر سنة ١٨٢٥

وذهبت الأرملة الخائنة في غدرها ونفاقها الى النهاية فأقامت أثراً فوق المكان الذي سقط فيه زوجها ثم عادت الى باريس

وفي ذلك الحين توفي شخص يدعى باريه وهو أحد الشهود الذين هددهم سكفوريان واشتبه في وفاته وفي أنه قتل مسموماً غير أن ابحاث النيابة في سبيل اثبات ذلك الجرم الجديد ذهبت سدى

أما سكفوريان نفسه فقد توفي في سنة ١٨٢٧ ، وحضرت نزعه مدام

كوريه والبنت أمينة جامعا ذهبيا اشارة الى الوفاء والاخلاص حتى بعد الممات !

— ٣ —

ومرت الاشهر والسنون وسحب النسيان ذيله على حادث مصرع الكاتب الكبير ، وبدا للناس أن الحقيقة قد طمست الى الابد

ولكن شاءت الاقدار أن تفلت في سنة ١٨٢٩ من فم فتاة تدعى سلفين جريفول ، وهي فتاة ساذجة سيئة السلوك ، عبارة وصلت الى أذن القضاء وأثارت اهتمامه . وذلك أنها كانت تخترق الغابة من جانب « البلوطة المشنوقة » فجمح فرسها فصاحت بها :

« ان جوادك المقدس كاد أن يلقيني على الارض ، فقد تملكه ارتياع شديد ، شديد كالارتياع الذي استولى على جنيا قتلوا المرحوم المسيو كوريه »

نقلت هذه العبارة الى القضاء ، فاستدعى في الحال سلفين جريفول وسألها عن حقيقة ما قالت ، فاعترفت بأنها وجدت في الغابة على مقربة من « البلوطة المشنوقة » ليلة الجريمة ، مختبئة في الغابة مع فتى من أبناء هذه الناحية ، فسمعت كوريه وفرعون يتناقشان بحدة ، ثم قدم على أثر ذلك أربعة أشخاص آخرين هم بير وسمفوريان دبوا ، واثنان من الجيران هما أربوك وبوتيه . ثم أن سمفوريان انقض فجأة على كوريه وقبض على ساقيه وألقاه على الارض ، فاطلق فرعون بندقيته عليه وهو بتلك الحالة ثم فر الجميع وتركوا الجثة الهامدة في مكانها .

وهكذا أدرك القضاء لاول مرة سر ذلك السير الغريب الذي اتخذه المقذوف الناري في جسم القتيل ، فهو لم يطلق من أدنى الى أعلى كما يفهم لأول وهلة ، وانما أطلق على رجل ألقي على الارض

فاستدعي فرعون وسئل فاعترف حينئذ بالحقيقة وقال ان الجريمة دبرت كلها بتحريض مدام كوريه . وكانت محاكمته غير جائزة قانونا لان الحكم الصادر ببراءته من محكمة جنايات تور قد أصبح نهائياً لا مطعن فيه ، فقبض

على بيير ديوا وارنول وبوتيه ، ولكنهم انكروا كل شيء ، وانكر ايضاً الفتى الذي كان يرافق سلفين جريفول ليلة الحادث تلك الواقعة انكاراً بتاتاً لانه كان متزوجاً ولم يجرأ أن يكشف عن سريرته الماضية بل قال انه لم تربطه أية علاقة بسلفين.

وقد قبض على مدام كوريه أيضاً فانكرت كل شيء ودافعت عن نفسها بشدة وجرأة ، والواقع ان مركزها كان متيناً إذ لم توجد ضدها سوى أقوال فريعون الذي اتهمته هي من قبل وطاردته أمام النيابة والمحكمة وحدث بينهما ما ذكرناه ، ولذلك لم تجد النيابة من الادلة ما يبرر تقديمها لمحكمة الجنايات فقررت حفظ التهمة بالنسبة اليها وأطلقت سراحها ، ولم تقدم الى الجنايات سوى بيير ديوا وارنول وبوتيه

وكانت المحاكمة مؤلمة مؤثرة ، فتقدمت سلفين جريفول متهمة ، وتقدم فريعون كشاهد فقط وقد أثقلته السنون وشوهت ملامحه الخطوب وعذبه الندم ، فاعترف بجريمته وفصل ظروفها وحوادثها تفصيلا دقيقاً منبهاً ، بيد أنه نسب تدبيرها وتنفيذ أهم أدوارها الى المتهمين ، وكانت مدام كوريه أثناء ذلك في ايطاليا على وشك ان تضع ثمرة غرام جديد ، فكتبت الى المحكمة تعتذر عن عدم المثول

واستمر نظر القضية أياماً ولكن ضمائر المحلفين لم تطمئن الى الحكم على المتهمين لان فريعون الفاعل الاصلي الذي ارتكب القتل كان حراً بعيداً عن نقمة القضاء ، وربما لم يطمئنوا كذلك الى أقوال سلفين جريفول ولم يجدوا فيها الدليل المقنع ، فقضوا ببراءة جميع المتهمين

* * *

وهكذا ذهب دم بول لوي كوريه هدراً ، وأفلت سافكوه من يد العدالة أما الزوج الخائنة السافلة فنظمت شئونها وتزوجت ثانية في سنة ١٨٣٤ وذهبت للاقامة في جنيف حتى توفيت سنة ١٨٤٢

نستطيع ان نحمل طبيعة بول لوي كوريه وخلاله السيئة شطراً من مسئولية هذه المأساة ، ولكن نذالة الزوجة وسفالة تصرفاتها لم تقفا عند حد الجريمة وسفك دم المحسن البريء

قضية مدام لافارج

سنة ١٨٤٠

— ١ —

في أوائل سنة ١٨٤٠ ثارت في الصحف الفرنسية وفي دور القضاء ضجة كبيرة حول قضية جنائية قدمت الى محكمة جنايات كوريز . وكان الباعث على تلك الضجة فظاعة التهمة المنسوبة ، ومركز المتهمة الاجتماعي ، وجمالها وشبابها الغض ، وما أحاق بظروف الجناية من الغموض والحلك

والمتهمة في تلك القضيـة الشهيرة هي ماري كابيل أرملة شارل بوك لافارج ، وموضوع التهمة هو أن ماري كابيل مدام لافارج قتلت زوجها بالسم ، وسرقت جواهر احدى صديقات حداثتها الآنسة نيكولاي مدام دي ليوتو

وملخص ظروف القضية طبقاً لما ورد في محاضر التحقيق هو أن المسيو شارل بوك لافارج صاحب مصنع للحديد في جلانديه (مقاطعة كوريز) ذهب في يوليه سنة ١٨٣٩ الى باريس ليبحث عن زوج تؤنس بظرفها وحشته ، وتصلح بمهرها ماليـته المضطربة ، فتوفق بمساعدة أحد وكلاء الزواج الى التعرف بالآنسة ماري فورتونيه كابيل ، وهي فتاة يتيمة خلف لها والدها الذي كان ضابطاً كبيراً في الحرس الامبراطوري ثروة قدرها ثمانون الف فرنك

وكان لافارج في الثامنة والعشرين من عمره ، قبيح الطلعة ، وكانت ماري كابيل في الرابعة والعشرين، حسناء ، خلابة الملامح والصفات، فتعارفا بسرعة ، ولم يمض أسبوعان حتى عقدا زواجهما ، وعاد لافارج بزوجه الحسناء الفتية الى داره في جلانديه

بيد ان التباين كان عظيماً في الخلال والتربية بين الباريزية الحسناء ،

والقروي الجاف ، فلابد لافارج أن ظهر في ثوبه الحقيقي من الغلظة والخشونة : ذلك الثوب الذي أخفيت معالمه كما يعترف الاتهام للتأثير على الفتاة وتذليل الصعاب في سبيل اقترانه بها .

يقول الاتهام : الواقع ان مدام لافارج ارتاعت منذ اللحظة الاولى لجفاء زوجها وخشونته ، وقبيح صفاته ، وسيء تربيته ، وساورتها خيبة أمل عظيمة حينما وصلت الى جلانديه التي تبعد عن باريس مائة مرحلة ، فألفت مقامها داراً منعزلة ، مقفرة ، خربة ، ورفيقها في ذلك المكان الموحش المكدر رجل « يروعها أن يقبل يدها ، وتموت اذا شعرت أنها بين ذراعيه »

فبلغ من حنقها ويأسها أن كتبت ليلة وصولها الى جلانديه — في ١٥ اغسطس — خطاباً الى زوجها — يقول عنه المدعي العمومي انه مفتاح الاتهام — تعرب اليه فيه عن احتقارها وتتهمه بأنه خدعها ، وتقول أنها تهوى رجلا آخر وأنها سترتكب جرم الزنا اذا لم ينقذها زوجها من ذلك ، وإن العادات والتربية قد أقامت بينهما سداً حائلا ، وترجوه أن يوصلها الى بوردو لتركب البحر منها الى أزمير

وهو خطاب غريب بلا ريب ، يرى البعض أن في عبارته ما ينم عما كان يضطرم بين جوانحها من عوامل الخيبة والحنق ، وأنه أول دلائل الاتهام ، ويبرر البعض الآخر صدوره من فتاة هائمة يائسة ، فقدت صوابها ، وغلبها خيالها

يقول الاتهام : من تلك الساعة اعتزمت مدام لافارج أن تتخلص بأية وسيلة من ذلك الزوج الذي مقته

ثم توالت الحوادث بسرعة مدهشة فأصابها في أواخر اكتوبر مرض مصطنع على قول الاتهام — فكتبت وصية توصي فيها بثروتها الى زوجها وسلمتها الى حماتها فأعلن الزوج من جانبه أنه سيوصي بثروته الى زوجه اذا ادركته الوفاة قبلها

وبعد ذلك بأسبوعين سافر المسيو لافارج وحده الى باريس ليسعى

في الحصول على امتياز باختراع اخترعه متعلقاً بأعمال مصنعه ، واقتراض الاموال اللازمة لاستغلال هذا الاختراع ، وفي أثناء غيبته تبادل الزوجان عدة خطابات ودية رقيقة

وفي ١٥ ديسمبر أرسلت مدام لافارج الى لموج ومولا اشترى لها ثلاثين جراماً من الزرنيخ من صيدلية المسيو ايسارتيه

وفي ١٨ ديسمبر استلم المسيو لافارج بواسطة البريد صندوقاً صغيراً أرسلته اليه زوجه فيه صورة لها وبعض الفطائر ، ففتحه بحضور خادم الفندق وأكل جزءاً من الفطائر فأصابه في الليل آلام وقيء

وفي ٣ يناير سنة ١٨٤٠ عاد الى جلانديه مريضاً منهوكاً ولزم فراشه وفي الخامس من يناير بعثت مدام لافارج في شراء الزرنيخ مرة ثانية ، وبعثت في شرائه مرة ثالثة في العاشر منه

وفي الحادي عشر قدمت الآنسة بران المصورة الى جلانديه لتتم رسم صورتها ، فرأتها هذه الآنسة تضع مسحوقاً أبيض في قدح من اللبن والبيض هيأته لزوجها ، وقد أخذ هذا القدح في اليوم التالي الى الصيدلي ايسارتيه فقرر انه يحتوي على أثر من الزرنيخ ، وقرر الطبيب في التحقيق فيما بعد أن هذا المسحوق ربما كان بياض البيض ، أو الجير

وفي الرابع عشر من يناير توفي المسيو لافارج في غمار من الآلام الهائلة ، فبادرت أمه بابلاغ النيابة أن ولدها توفي مسموماً بيد زوجه ، ولم تمض بضعة أيام حتى أمرت النيابة بالقبض على مدام لافارج التي بقيت في جلانديه ولم تقبل نصح الاصدقاء ولا تشجيعهم اياها على الفرار

— ٢ —

وكانت مدام لا فارج قد سمعت ذات مرة محامياً فتى يترافع أمام هيأة المحلفين في كورز ، ولم تكن تعرفه غير أنها تأثرت بذلاقته ، وفصاحته ، وقوة جنانه : ولم يكن ذلك المحامي الفتى سوى الاستاذ لاشو الذي أصبح

فيما بعد فخر المحاماة في عهد الامبراطورية ، فكتبت اليه من سجنها تلك الرقعة تطلب اليه أن يدافع عنها :

« أنك ذو مقدرة غريبة ياسيدي ، فقد سمعتك مرة واحدة ، ولكنك أبكيتني وقد كنت مبتهجة ضاحكة . أما اليوم فاني حزينة باكية فاعد الي الابتسامة باظهار براءتي أمام جميع الناس » ماري كابيل

فقبل لاشو أن يدافع عنها ، وكانت أسرتها في باريس قد عهدت بتلك المهمة الى محام شهير هو الاستاذ بايه نقيب المحامين حينئذ ، غير أنها اصرت أن ينضم محاميها الفتى في الدفاع عنها الى زميله الكبير ، ومع أن لاشو لم يترافع الا في تهمة السرقة ، فان اسمه اقترن منذ تلك اللحظة بتلك القضية الشهيرة التي كانت مبدأ شهرته الواسعة وفاتحة مجده الكبير

وأول نقطة يجب البت فيها هي بالطبع ما اذا كان المسيو لافارج قد توفي مسموماً ، وقد كانت هذه النقطة الحاسمة نفسها مثار الغموض والريب ، وحسبك ان تسعة خبراء استشيروا في شأنها فرأى كل منهم رأيا يخالف رأي الآخر

فقد قرر الدكتور باردون الذي عالج المتوفي ابتداء من ٤ يناير حتى وفاته بأنه كان مصاباً بالتهاب في الحلق ، واعترف بأنه هو الذي كتب لمدام لافارج التذكرة التي اشترت بها الزرنيخ للمرة الثانية في ٥ يناير

وقرر الدكتور ماسينا الذي دعي للاستشارة في ١٠ يناير أنه لم يلاحظ ما يدل على أثر للتسمم

وقرر الدكتور بوتيه انه لاحظ بعض « أعراض مدهشة »

وقرر الدكتور ليانا ، الذي استدعاه للاستشارة موظف بالمصنع يدعى دني أنه يجزم بحدوث التسمم

هذا ما قرره الاطباء الذين عنوا بالميت قبل وفاته . وشاهدوا أعراض مرضه . اما الخبراء الذين شرحوا الجثة فقد قرر ثلاثة منهم أن ليس بالجثة اثر للزرنيخ ، ولكن المسيو أورفيلا خبير الحكومة قرر أنه وجد بها [illegible]

واعترض المسيو رسباي الـكيماوي الشهير الذي استدعاه الدفاع لمناقشة الاطباء والخبراء على آرائهم وأنـكرها . ومما يؤثر عنه قوله للمحكمة : « الزرنيخ ! وما الذي يثبته هذا ؟ أعطوني أيها السادة عصاة ، بل اعطوني الـكرسي الذي تجلسون عليه فاستخرج لـكم الزرنيخ منه ! »

هذه هي آراء الاطباء والخبراء يغلب فيها الغموض والريب ، والريب اذا وجد يؤخذ دائما لصالح المتهم ، فكيف به اذا كان قوياً راجحاً

***

واذا فرضنا جدلا أن المسيو لافارج توفي مسموماً فمن الواجب أن نتحقق مما اذا كان موته انتحاراً أو جريمة ، أو نتيجة لخطأ فظيع

فأما الانتحار فيراه كثيرون ومنهم المسيو قلنيات قاضي الصلح . ورأي هذا الفريق أن المسيو لافارج لم ير سوى الانتحار وسيلة للتخلص من الازمات المالية التي توالت عليه ومن عنف الدائنين

وأما الخطأ فلم يتعرض لاستجلائه لا الاتهام ولا الدفاع ، بيد أنه ليس من المستحيل ان يكون المسيو لافارج قد ذهب ضحية خطأ شنيع ، وأن تـكون خادمتـه كليماتين او خادمه الفرد ، أو مدام لافارج نفسها قد وضعت له الزرنيخ القاتل خطأ مكان بيكاربونات الصودا أو الصمغ الملين

وأما الفرض الثالث وهو حدوث جريمة فان الادلة على رجحانه تتلخص فيما يأتي :

أولا ــ شراء مدام لافارج للزرنيخ ثلاث مرات متوالية ، وقد ردت مدام لافارج على هذا الدليل بأن مقامها في جلانديه كان منزلا عتيقاً مهجوراً ، وكانت تغشاه الجرذان بكثرة ، وتقضم الثياب والمؤن ، وتمنع بضجيجها مدام لافارج من النوم ليلا . فاشترتها الزرنيخ كان يقصد به اهلاك هذه الحشرات المؤذية . هذا الى أن الدفاع يعلق أهمية كبرى على الطريقة التي اشتري بها السم وما اقترن بها من العلانية والجهر : فقد اشترت مدام لافارج الدفعة الاولى منه بخطاب أرسلته الى الصيدلي ، و[illegible]

الا بمن الذي طلبت اليه أن يستحضر لها زرنيخا لإبادة الجرذان ، فهل عمل هذه العلانية تصرف مجرمة سيئة ؟

غير أن الدفاع من جهة اخرى لم يوضح كيف أن المبيدة التي ضبطت أثناء التحقيق لم يكن بها أثر للزرنيخ ، وكيف إن النيابة عثرت أثناء التفتيش على علبة من بيكربونات الصودا مدفونة في الحديقة تشبه علبة الزرنيخ التي استحضرها دني من صيدلية أوزيرش .

ثم ما الذي فعلته مدام لا فارج بمقادير الزرنيخ التي اشترتها ؟

يقول الاتهام أنها بدأت بأن أرسلت الى زوجها وهو في باريس فطائر مسمومة ، ولكن أليس من المعقول اذا كانت مدام لا فارج تريد قتل زوجها أن تصحبه في سفره ومن ثم تنفذ جريمتها حيثما يقل الاهتمام بأمر المجنى عليه وحيثما يسهل اخفاء آثار الجريمة ؟ أضف الى ذلك أنها كتبت اليه خطاباً تطلب اليه فيه أن يدعو أختها لمشاطرته في أكل الفطائر . فهل كانت من الحمق بحيث تقدم الدليل الكتابي على جريمتها ؟ وهل كانت تريد أن تقتل أختها بالسم أيضاً ؟ وأهم من ذلك أنه لم يثبت أن لا فارج قد ظهرت عليه في باريس أعراض التسمم حيث لم يدع احداً من الاطباء لمشاهدته ، ولم تضبط الفطائر المسمومة ولم تحلل قط

ثانياً ـ شهادة الرؤيا ، وهـذه تنحصر في أقوال الآنسة بران التي استقدمتها مدام لا فارج في أوائل نوفبر لترسم صورتها ، فقد شهدت هذه الآنسة بأنها رأت علبة الزرنيخ التي اشتراها دني من أوزيرش عند المتهمة في ١٠ يناير ، ورأت المتهمة في يوم ١١ يناير تضع مسحوقا أبيض في قدح من البيض واللبن معد لزوجها المريض

وقد اكتفت مدام لا فارج في الرد على ذلك بأن قالت أن الشاهدة واهمة وأن المسحوق الابيض لم يكن الا صمغاً :

وأما عن بواعث الجريمة فيرى الاتهام أن هنالك باعثان على ارتكابها : البغضاء والجشع

فأما البغضاء فلأن مدام لا فارج ، وهي فتاة ذكية متعلمة ، عميقة الخيال ،

قد خدعت في آمالها وعواطفها بالزوج من رجل تفصلها منه هاوية سحيقة ، وقد جعلها الى مقام موحش ناءٍ ، فالفت نفسها هنالك في عزلة مخيفة ، وفي مجتمع لا يفهمها ولا ترتاح اليه ، بل شعرت أنها محاطة بسياج من بغضاء المقيمين معها بين جدران منزل واحد ولا سيما حماتها الحسودة الناقمة

غير أنه يقال في الرد على ذلك ان لافارج وان لم يكن متعلماً مهذباً كزوجه فقد كان محباً على ما يظهر ، ولم يك ثمة من يبغضها في المنزل



ماري كابيل (مدام لافارج)

سوى حماتها ، وهذا ما يحدث غالباً حينما تصطدم الام وزوجة ابنها ، وأما باقي أهل المنزل فقد كانوا يحبونها ومخلصون لها ، وقد ظهر هذا العطف والاخلاص وقت محنتها ولا سيما من الوصيفة كليمانتين التي تبعتها الى سجنها ، وابنة عم زوجها الفتاة إما بونتيه . ثم أنه لم يثبت من أقوال الشهود ما يؤيد فرض الاتهام هذا بل يوجد بالعكس ما يدحض ذلك في الرسائل الرقيقة التي كتبتها الى زوجها وفي عباراتها الرشيقة الخلابة ، ولم يثبت من جهة

أخرى أن مدام لا فارج كانت تهوى رجلا آخر هوى يدفعها الى أن تلجأ الى الجريمة لتفتدي حريتها ، بل أن الاتهام لم يحاول أن يفترض هذا الفرض . أما الخطاب الذي كتبته الى زوجها يوم قدومها الى جلانديه في ١٥ أغسطس ، والذي أتينا على خلاصته في مبدأ هذه السيرة فلا يمكن ان يؤخذ عنوانا قاطعاً لما يجول في خاطر فتاة متشعبة الاهواء كمدام لافارج ، فضلاً عن أنه كتب في ظرف خاص هو يوم ربما شعرت فيه هذه الفتاة بأن قصوراً بنتها في الهواء قد انهارت وأن آمالا كباراً تعلقها على الزواج قد غاضت وتحطمت

وأما الجشع أو بعبارة أخرى المصلحة المادية فهو فرض يفيد الدفاع بأكثر مما يفيد الاتهام اذ كيف ينسب الشره الى زوج توصي بثروتها الى زوجها في أول وصية تكتبها ، وتضحي معظم ثروتها في بضعة أشهر لانقاذه من العسر المالي، ثم تجرد نفسها من بقية مالها لتنقذ سمعته وذكراه بعد وفاته بان تسدد جهد الاستطاعة ديونه الفادحة ؟

* * *

والخلاصة أنه لم يوجد بين الادلة التي قدمها الاتهام على مدام لا فارج ما يقطع أو يرجح ادانتها

لم يكن لمدام لافارج باعث من المال أو الهوى يدفعها الى التخلص من زوجها . ان امرأة تقتل مدفوعة بعامل البغض تخفي فؤادها عادة حباً آثماً يشجعها على ذلك ولم يثبت قط أن مدام لا فارج كانت زوجة خاطئة

وان امرأة تقتل مدفوعة بعامل الجشع لا تجرد نفسها مما تملك لتنقذ ذكرى ذلك الذي اتهمت بقتله

وان الهاوية التي تفصل بين زوجين تتباين تربيتهما وأهواؤهما وعواطفهما تزول عادة بتأثير الحياة المشتركة المستمرة

وان فتاة ذكية كمدام لا فارج تعرف جيداً أن موت زوجها يجردها من العضد الادبي الوحيد الذي تبقى لها في الحياة

وان حادث تسمم تضطرب بشأنه الآراء الى الحد الذي رأينا ، بل لا تزال تضطرب اليوم بشأنه المباحث العلمية ، وان اتهاماً لا يستطيع أن يجد باعثاً للجريمة ، ولا يستطيع الاعتماد الا على شهادة فتاة حديثة السن (الآنسة بران) — كل ذلك يدحض من فكرة الادانة ، ويعضد فكرة البراءة

— ٣ —

هذه هي حجج الاتهام وحجج الدفاع في تلك المأساة الشهيرة سردناها كما يسرد قاضي التحقيق ملخص التحقيقات والأدلة ، وفي رأينا أن جانب البراءة أقوى

غير أن محكمة جنايات كوريز لم تر ذلك الرأي ، فبعد أن استغرق نظر القضية سبع عشرة جلسة كانت مثار الاهتمام العظيم في ذلك الحين وبعد أن استنفد اقطاب الدفاع بايه وباك ولاشو ما أوتوا من بيان وحجة ، طرح رئيس المحكمة على هيئة المحلفين في يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٨٤٠ السؤال الآتي :

« هل قتلت ماري فورتونيه كابيل أرملة السيد بوك لافارج زوجها في شهري ديسمبر ويناير الماضيين بواسطة مواد يمكن أن تحدث الموت وقد احدثته فعلا ؟ »

فتداول المحلفون وأصدروا قراراً بادانة المتهمة مع وجود الظروف المخففة ، ثم تداولت المحكمة بدورها وقضت على مدام لافارج بالاشغال الشاقة المؤبدة وبالعرض العلني في الساحة العامة لمدينة تيل

* * *

يرى بعض الذين يقولون ببراءة مدام لافارج أن المحلفين قد تأثروا بأمرين كلاهما خارج عن القضية الاصلية

أولهما تهمة السرقة ، فقد ذكرنا أن مدام لافارج اتهمت أثناء اتهامها بالقتل بسرقة جواهر صديقتها الآنسة نيكولاي . وظروف هذه التهمة هي

ان الآنسة نيكولاي دعت صديقة حداثتها ماري كابيل الى حفلة زفافها في بوزاني في فبراير سنة ١٨٣٨ أي قبل أن يعقد زواج لافارج وماري كابيل ، فذهبت ماري كابيل لتصرف بضعة أيام في بوزاني ، وفي أثناء اقامتها فقدت الآنسة نيكولاي عقداً من الماس يبلغ ثمنه نحو عشرة آلاف فرنك ، ولم يعرف السارق . فلما وقعت مأساة جلانديبه وقبض على مدام لافارج وفتش مسكنها وجد العقد المسروق وضبط ، فوجهت الى مدام لافارج تهمة السرقة ايضاً ، وحوكمت عنها أولا أمام محكمة جنح بريف ، وكان دفاعها أن العقد أخفته صديقتها وأودعته لديها لتحصل من زوجها على مبلغ المال ، فلم تأخذ المحكمة بدفاعها وقضت عليها بالحبس عامين في يوليه سنة ١٨٤٠ ، وتأيد هذا الحكم من محكمة تيل

وثانيهما أن المدعي العمومي ديكو خاطب المحلفين بما يأتي : « هل تريدون أن يعتقد الناس أن المحلفين هيئة لينة جبانة اذا ما تعلق الامر بامرأة ذات مركز اجتماعي كبير ، وأنها ترفع جبينها اذا تعلق الامر برأس وضيع ? » وقد كان لهذه العبارة على رأي الاستاذ دي شوفرون أسوأ وقع في نفوس المحلفين بالنسبة لمدام لافارج

ولم تستفد مدام لافارج من النقض شيئاً سوى أن أعفيت من العرض العلني الذي نص عليه الحكم

* * *

قابلت مدام لافارج الحكم عليها بشجاعة وجلد ، وكانت أثناء محاكمتها موضع اهتمام عام وعطف كبير وكانت أثناء سجنها في تيل تتلقى نحو ستة آلاف رسالة في العام ، منها رسائل اشفاق ، ورسائل غرامية ، وعرض هبات ، وطلبات زواج ، وكان من بين مراسليها بعض أقطاب الادب والبيان في ذلك العصر ، مثل اسكندر دماس الكبير ولاشو ، والاب بونيل ، والعلامة راسباي

وقد أطلقت المحنة قلم مدام لافارج وأذكت خيالها وبيانها فكتبت في

سجنها ثلاثة كتب تفيض بلاغة ورقة هي « ساعات السجن » و « المذكرات » و « الرسائل »

وفي سنة ١٨٥٢ كتبت الى البرنس لويس نابوليون رئيس الجمهورية خطاباً تطلب اليه فيه اجراء العدالة بشأنها ، وفي هذا الخطاب فقرات دامعة نقتطف منها :



الاستاذ لاشو محامي مدام لافارج

« اني بريئة يا مولاي ! لقد قضيت اثنتى عشرة عاماً من عدالة الناس ، ولكنك أنت تمثل العدالة الالهية في الدنيا . . . لست ألتمس حرية السعادة وانما ألتمس الوسيلة لارضاء الله باطهاري حتى . . . أيها الامير ! لو كان أبي حياً لكان عليه فقط أن يجد اسماً عظيماً ليحول قرار رأفة الى قرار عدالة ! وأنت تحمل هذا الاسم يا مولاى ! وأني لاصل صلاتي الليك ! مرغماً مذكرى ابى وشرفه ! عفواً أيها الامير وعدالة لشخصى ! »

فعفا عنها البرنس لويس نابوليون ، وعادت الى جلانديه لتقيم في منزل زوجها الذي هجر نيفاً وانتي عشرة عاماً ، غير أن المحنة وصروف الزمن لم تذهب بسوء الظن من قلوب أهل القرية ، فكثيراً ما كانت تسمع من حولها اذا خرجت الى التريض من يصمها « بالسارقة ! والمسممة ! »

ولم تنعم مدام لافارج بحريتها طويلا فرضت بعد اشهر من اطلاق سراحها ولما شعرت بدنو أجلها جمت حول فراش موتها أوفى أصدقائها وا كدت أمامهم وامام قسيسها الذي قدم ليغدق عليها السلوان الاخير أنها بريئة من دم زوجها قائلة : « اني سأتقدم أمام الله للمحاكمة ، واني أمامه أؤكد براءتي » وهذه أيضاً حجة قوية لمن يقولون ببراءتها

* * *

كانت قضية مدام لافارج فاتحة شهرة لاشو وبداية مجده ، ولم يتأثر انسان بأكثر منه لمحنة هذه الفتاة الخلابة التي كانت صفاتها الشعرية تجذب اليها كل من يقترب منها

دافع عنها بكل ما أوتي من قوة جنان ومنطق وذلاقة ، وانفق في محاولة انقاذها ضروباً رائعة من بلاغته الساحرة الفتية عندئذ ــ تلك التي ما زالت مضرب الامثال في فرنسا

وبلغ من تأثر لاشو لمصابها وعطفه عليها أنه لم ينقطع عن مراسلتها أعواماً عديدة ، وكان يزورها في سجنها كلما سنحت الفرصة ، بل لقد حدثته نفسه ذات مرة حينما نقلت مدام لافارج الى سجن الجنوب ، أن ينقل مركز أعماله الى مونبلييه وأن يقيد اسمه في جدول المحامين هنالك ، ولكنها حملته على العدول عن تلك الفكرة

وكان لاشو يثق ببراءة موكلته ثقة تبلغ حد الايمان ولم يعدل عن هذا الاعتقاد قط رغم توالي الآراء والنظريات المختلفة بشأن هذه المأساة المؤلمة ، وقلما كان يجرأ انسان أن يذكر اسمها أمامه لما كان يعرف من تأثره وشجنه لذكراها

ولما توفيت ماري كابيل في سنة ١٨٥٢ لم ينقطع لاشو مدى ثلاثين عاماً من أن يزور قبرها وينثر الازهار عليه

فهرس

كتاب قضايا التاريخ الكبرى

